

104: ~~15~~ C.2

سلامه و بولس.

حدث العشي.

104

Sa 15A

C.2

~~27 Mar 69~~

~~JAN 20 '61~~

~~24 Oct 67~~

~~24 Oct 67~~

cont. June. 52

104
Sa15hA
c.2

بوسر سلامه



حبر العريفة

cat. June. 52

79041

منشورات

مجلة «الرسالة المخاصية»

١٩٥٠

مكتبة
مكتبة

مجلد اول



تبيين عقائد ايرانيه

١٨٥٤

مجلد اول

«تبيين عقائد ايرانيه»

٠٥٦١

الحقوق محفوظة
للؤلف وللناشر

	فهرس ست	٢٧
	مقدمة الناشر	٢٧
ص	تصدير المؤلف	٢٨
ك	لحات في الفلسفة	٢٩٠
	ما هي الفلسفة	٢٩١
	الذاكرة	٢٩١
	الاخيلة والصور	٢٩١
	العادة والتربية	٢٩٠
	الاحلام	٢٩٦
	الجمال	٢٩١
	الفن	٢٩١
	الوجدان	٢٩٤
	الواجب الادبي	٢٩١
	المسؤولية	٢٩١
	الوجدان الادبي	٢٩١
	الحبير الاحمى	٢٩١

صفحة	
٧١	المحبة
٧٦	اساس الاجتماع السياسي و اساس السلطة
٨٢	ما هي مهمة الدولة
٨٨	واجب الافراد نحو الدولة
٩٣	واجب الانسان نحو جسده
٩٨	الشك
١٠٣	التطور
١١٣	التشاؤم ومشكلة الشر
١٢١	الحلوليون
١٢٥	الرواقية
١٣٤	مرقس اوريليس او الامبراطور الفيلسوف
	نفسية الجماهير
١٤٦	بساطة الجماهير
١٥٢	كيفية استهواء الجماهير
١٥٨	تأثير الالفاظ في الجماهير
١٦٣	سلطان المرس في الجماهير
١٦٨	هل للجماهير منطق ؟
١٧٣	المستوى العقلي في الجماهير
١٧٨	رد الفعل في الجماعات

بحث في الاديان القديمة

صفحة	
١٨٤	بحث في الاديان القديمة
١٨٩	الغرائب في اديان المتوحشين
١٩٥	لمحات في الديانة الهندية
٢٠١	البوذية
٢٠٨	ما هي النرقانا
٢١٣	الدين في الصين
٢١٩	مذهب كنفوشيوس وما تلاه في الصين
٢٢٥	الاديان في اليابان
٢٣١	البوذية في اليابان
٢٣٧	الدين في الفرس
٢٤٣	الاديان في اشور وبابل
٢٤٨	الصلاة في بابل واشور

شوارد

٢٥٤	علي فارس الاسلام
٢٥٨	علي امير الكلام
٢٦٤	علي الزاهد المتصوف
٢٦٩	اللفة
٢٧١	خواطير في الادب

مكتبة جامعة

في سنة ١٩٢٤م في مدينة
البحرين في سنة ١٩٢٤م في مدينة
البحرين في سنة ١٩٢٤م في مدينة
البحرين في سنة ١٩٢٤م في مدينة
البحرين في سنة ١٩٢٤م في مدينة
البحرين في سنة ١٩٢٤م في مدينة

في سنة ١٩٢٤م في مدينة
البحرين في سنة ١٩٢٤م في مدينة
البحرين في سنة ١٩٢٤م في مدينة
البحرين في سنة ١٩٢٤م في مدينة
البحرين في سنة ١٩٢٤م في مدينة
البحرين في سنة ١٩٢٤م في مدينة

في سنة ١٩٢٤م في مدينة
البحرين في سنة ١٩٢٤م في مدينة
البحرين في سنة ١٩٢٤م في مدينة
البحرين في سنة ١٩٢٤م في مدينة
البحرين في سنة ١٩٢٤م في مدينة
البحرين في سنة ١٩٢٤م في مدينة

لست قلمياً في بلدي ومن يسيء هذا القول ويتألمه بقا يسيء به في
مسألة لوية بلدي

فقالوا يا منة قل لي يا منة يا منة يا منة يا منة يا منة
يا منة يا منة يا منة يا منة يا منة يا منة يا منة يا منة
يا منة يا منة يا منة يا منة يا منة يا منة يا منة يا منة
يا منة يا منة يا منة يا منة يا منة يا منة يا منة يا منة

تصدير للمؤلف

كما كنت احسب يوم انشأت هذه الاحاديث انها ستلقي في كتاب ،
ولو توقعت ذلك لآلفت بينها كما يؤلف الباني بين شيت الحجارة . اما وقد
جمعت فامل في هذه الحصى البديدة واحدة يستحسنها البناء للدعم الحجارة
الزاوية .

والاحاديث بل الكلمات الحافظة التي تمر بها ايها القارئ ، اذيعت من
محطة راديو الشرق التي كلفتني ان اوافيها بمحاضرات تتلى بالنيابة ، شرط
الا يتجاوز الحديث دقائق معدودة . وماذا يستطيع الباحث في لحظة لو
اعطيت للطائر الهليب القوادم لما حلق بعيداً ، فكيف به اذا كان مهبض
الجناح ؟

ونظرت في ما تعرضه المحطة يومئذ من احاديث فرأيت اكثرها يدور
على القصة او النقد الادبي ، على اضطراب في المقاييس ، وتباين في
الموازن ، فاحسبت ان ادير معظم الابحاث على الفكر ، وهو الذي لا ايس
له ولا غد ، لانه الانسان موصول الماضي بالحاضر والمستقبل . ولقد اقتبست
كثيراً من مفكري الغرب ، وازفت كثيراً ، وناقشت ومحصت وضربت
الامثال وارسلت النوادر لآخرج بالسامع عن التجريد والاهام ، حتى ليخيل

اليه وهو يسمع ادق المواضيع واعمقها انه يسمر مع اصحابه في ليلة شتاء
يحاور فيها السمر .

وتعمدت سهولة الاسلوب فجعلته اقرب الى البساطة منه الى الانافة
وزخرف القول . فلو كان الموضوع ادبياً بحتاً لأبست الكلام غير هذه
الحلّة ولكنه الفكر لا يقبل له بالالوان والصور ، فاذا هي ازدحت عليه
طمرته ، كالورد يلتف على النحلة فيخنقها .

قد لا يكون في هذا الكتاب نفع للفكرين الراسخين في العلم ، ولا
لأساتذة الفلسفة المصوّدين في آفاق المعرفة ، ولكنني اوقن انه جزيل
الفائدة للطبقة الوسطى من المتعلمين ، واجزم ان فيه توجيهاً صحيحاً للنشء
العربي ، والنشء اخرج ما يكون - في عصر طفت فيه المادة - الى
التحصن الاخلاقي وتفهم القيم الروحية . وقد يجد فيه طلاب البكالوريا
دليلاً يقوم - على الاقل - بمهمة الشرطي الواقف على مفترق الطرق ،
يتعذر عليه ايصال السياح الى الجبل ولكنه يقيهم مغبة الاخذ في طريق
وعر ، فيسلكون سمتاً سوياً يقودهم الى الاعالي حيث الجمال والعاوية وفوح العبير .
ولقد افردت باباً للاديان القديمة في هذا الكتاب ، لان الفلاسفة لم
تنفصل عن الدين الا في العصور الاخيرة ، ولكنها في العصور الاخيرة نفسها
ظلت وستبقى ملازمة للدين الى يوم البعث .

فاذا انا عجزت عن اضافة حجر الى هيكل المعرفة ، فحسبي ان اكون
في عداد السدنة الذين يفتحون الباب للداخلين لا يتقاضونهم اجراً ولا شكوراً
وانما اجرهم على الله الذي يرث الارض وما عليها .

بيروت ١٥ كانون الاول سنة ١٩٤٩ بولس سلامة

يا حيا على الدنيا والدار الآخرة والدار الآخرة والدار الآخرة



بواس سلامتہ یخط مواضیعہ

Handwritten text, possibly a signature or name, located in the center of the page.

ماهية الفلسفة

الفلسفة كلمة كبيرة لها وقع في الآذان ، ورهبة في النفوس ، ترنُّ في مسمع الرجل العادي فينفر منها نفوره من دواء مرّ ، فيضع الحاجز بينه وبينها تهرباً من البحث . وقد يختصر رأيه فيها بإيجاز فيقول لك بخشونة : وهذه كلمة مسمّناها في مناسبات عديدة « اعتقنا من الفلسفة » . ولكن كل الناس يتفلسفون وفقاً لاستطاعة كل منهم في كل يوم ، ابتداءً من ماسح الاحذية الوضع حتى ديكارت وبرغسون . على حد قول الشاعر :

وكل الناس مجنون ولكن على قدر الهوى اختلف الجنون

يتفلسفون وهم لا يشعرون . ويذكرك ذلك برواية مزلية للبعقري الفرنسي الخالد موليير ، وهي رواية المثري النبيل (Le bourgeois gentilhomme) اذ يدهش ذلك الغني المتظرف لانه يتكلم نثراً منذ ربع قرن وهو لا يدري انه ناثر . ولا ريب ان اكثرية الناس معذورون لتهمهم من الفلسفة لان الذين اشتغلوا بها اوردوا من المصطلحات والمعيات ما يعسر فهمه على السامع . وقد ينجم هذا الاتباس عن احد اسباب ثلاثة وهي :

اما غموض الموضوع في ذاته ، واما غموض قام في ذهن المؤلف فلم يستطع ايضاحه ، واما تقصير القارىء في الادراك لانه غير مثقف . والحقيقة ان الفلسفة هي حب الاستطلاع والفضول اي الشوق لمعرفة فكما ان الانسان

جسماً يقتضيه الغذاء ، فان له عقلاً يريد ان يتمدى ، على فرق بين الجسم والعقل .
لان الجسم يشبع فيتختم اذا تكاثرت عليه الاطعمة ، اما العقل فانه يظل في
نهم دائم كلما زدته معرفة زادك سؤالاً واستيضاحاً ، لانه متصل بالانهاية .
فكلما فتح افقاً تراه له افق اخر ، وهذا هو السبب في تواضع كبار العلماء
اذ يقولون انهم لا يفقهون شيئاً . اما الاميون وانصاف المتعلمين والسطحيين
من البشر ، فانهم يدعون معرفة كل شيء لانهم لا ينظرون الى ابعد من
انوفهم . وعندما وافى الاجل سقراط زعم انه يخرج من الدنيا جاهلاً ،
وهو ابو الفلسفة كان يحدث الناس في الاسواق فيعلمهم الحكمة عن
اقرب الطرق واسهلها ، لان الانسان يولد نزاعاً الى التعلم والاستفهام . وهذه
البادرة تشهدا في الطفل اول ما ينطق لسانه بالكلام فيسألك عن الاشياء
واسبابها . يرى الثلج منساقطاً فيستوضحك عن مصدره . ويخرج من الطفولة
الى الصبوة فيسألك عن خالق الانسان فتجيبه ان الله هو الخالق ، فيسألك
ومن خلق الله فترتبك . وعندما يخوض الاميون في ابحاث شتى ويتحدثون مثلاً
عن الوجدان والواجب والمحبة والغضب والدمامة والجمال والذاكرة والاحلام
فانهم يتحدثون فلسفياً ويسمون ذلك كلاماً للتسلية . ولا غرو ان الفكر
الاسير في هذا الجسد الحيواني يحتمك بالفلسفة كلما اطل على الحياة من
نافذة ولو ضيقة . والمتهرب من الفلسفة كالمهرب من الهواء اذ ينهم
بالهواء الریح العاصفة وانما الهواء يحيط به من كل جانب وهو ينشقه في كل
لحظة ، وحياته موصولة به

ان العاوم المتعددة ادوات للمعرفة ، ولكنها ادوات قاصرة لانها
تدلك على الاسباب القريبة ، اما الاسباب البعيدة الاولية فلا يبلغها الا

الحكمة . فالعلم شبيه بالطائرة ترتفع وترفعك الى علو لا يتجاوز بضعة اميال في الجو ، اما الفلسفة فهي كالضياء . تطوي الأبعاد وتبلغ المدى العميق الذي لا يستطيعه غيرنا لانها العلم الذي ينطلق من النفس فيمتصل بالله وقد ضلّ في تعريفها فنتان . اما الاولى فهي طائفة من الحكماء الاقدمين الذين حسبوها علماً شاملاً ؛ واما الثانية فهي فئة من الفلاسفة الومضيين الذين حسبوها علوماً شكلية لا تنطوي على كبير شي . وكلا القولين خاطىء . والحقيقة هي في الوسط .

اما الاقدمون فقالوا بان ان الحكمة هي محبة المعرفة فيجب ان يعرف الانسان كل شي . لذلك كان حكميهم يتصدى للطب والكيمياء والتاريخ والتنجيم وسائر العلوم المعروفة . وظلت الحال على هذا النمط حتى جاء سقراط فوضعها في المكانة التي تستحقها ، فقال انها معرفة النفس والله . وكان قد لمح على باب هيكل أبلون عبارة « ايها الانسان اعرف نفسك » ، فوضعها شعاراً ومنهاجاً للفيلسوف الحقيقي بدلاً من صرف المهمة الى درس النجوم والكواكب . لذلك قال شيشرون ان سقراط انزل الفلسفة من السماء الى الارض . وايست الفلسفة علماً شكلياً فقط كما زعم الومضيون (Positivistes) اي ان مهمتها تقتصر على تقسيم العلوم وتقرير منزلة كل منها وعلاقته بالآخر . فلقد ظنوا ان تقدم العلوم كالرياضيات والطبيعات والكيمياء وما شاكلها ، واستقلالها عن الفلسفة يعنيهم عنها ، ولكن غاب عنهم ان تقدم العلوم لا يوليهم معرفة ما وراء الطبيعة . وعلم المعقولات هذا هو رأس العلوم واسباسها ، فانك اذا شئت انما الشجرة وتوخيت منها الشرف فاست تنفرغ للمنايا باغصانها فقط بل تقضي عليك الحكمة ان تعنى

بالتربة التي ترتكز عليها الشجرة فتغذي جذورها لانها الاصل . ولا
تستطيع العاوم الاستقلال عن الفلسفة ومن ذلك نشأت الفلسفة الطبيعية لان
العالم الطبيعي يرى الواقعات فيرى ان الماء يتألف من الاوكسجين والهيدروجين
اذا حمله وهذا واقع لا سبب . ونشأت فلسفة النأريخ وهي لا تكتفي
بالنظر الى الحادث الفلاني بل الى اسبابه . ومن هذا القبيل نظر العلماء الى
ابن خلدون نظرة المؤرخ الفيلسوف لا الكاتب الذي يجمع الواقعات فيرصدها
رصفاً . بل كيف يستغني الطبيب عن الامام بعلم النفس مثلاً وهو على
ما نعلم فرع من الفلسفة ، فاذا لم يعرف قرى الخيلة (Imagination)
فكيف يستطيع معرفة تأثيرها في الجهاز العصبي وادراك ما يحدثه الغضب
او الحزن في الانسان ، وقد يفضي به ذلك الى الموت في بعض الاحيان .
وكيف يستغني الخطيب عن الامام بالمنطق - وهو احد اقسام الفلسفة -
اذا كان يرغب في اقناع سامعيه واستمالتهم اليه . ولا ريب ان ديموستين
وشيشرون ويوحنا فم الذهب وبوصيه (Bossuet) وامثالهم من اعظم
خطباء الدنيا كانوا على معرفة تامة بالمنطق . وكذلك قل عن مشاهير
المحامين فان مهمتهم الاولى هي الاقناع وقوة الحجة والبيان . وما يصح قوله
في الخطيب يصح في الكاتب فلقد قال النقادة الكبير بوالو (Boileau) :

« تعلم كيف تفكر قبل ان تكتب »

بل كيف يستطيع الحاكم تجاهل الأخلاقيات (Morale) اذا كان
يحترم نفسه ، افلا يجب عليه ان يعرف الغايات والاهداف ، ويعرف مبادئ
الحق والعدل ، وماهية الواجب والاسس التي عليها تبني الشرائع ، واي
الحكومات هي الفضلى . وانك تكاد لا تجد فيلسوفاً واحداً منذ فجر

التأريخ الى اليوم لم يتصدَّ للاخلاقيات ، وهي ما يعرض لكل منا ، فهي التي تعرفنا علاقتنا بالله والقريب وتلي علينا واجب التعاضد والمحبة وتضع لنا الحُطة المثلى التي نسير عليها تجاه العائلة والمجتمع والوطن ، وكل ما يتصل بذلك من القيم الروحية والزمنية . قال الفيلسوف باكون : « كل امرئ يظن ان لا فائدة من الفلسفة ، وانها من النوافل ، فقد جهل انها المصدر الذي تستقي منه كل العلوم والفنون . وكما ان سائر العلوم والفنون لا تستغني عن الفلسفة فانها هي ايضاً لا تستغني عن باقي العلوم ، لان منابع الفكر البشري في اتصال دائم ، وهي حلقة واحدة متمسكة ولكن الفلسفة تشرف عليها من عل » . ومثل العلوم بالنسبة الى الفلسفة مثل العمال القانين على بناء صرح عظيم ، يهيئون الادوات ويمعدون الحجارة ولكنهم يدعونها مطروحة في الارض بدون نسق او نظام ، فيأتي المهندس اي الفلسفة ويضع كل حجر في مكانه فيأتي البناء كاملاً متقناً . ولولا هؤلاء العمال لما استطاع المهندس اخراج فكرته الى المحسوس النافع . فاذا لم يستعن الفيلسوف بالعلوم الاخرى بقي في عالم التجريد والنظريات لذلك لا يكون الحكيم الا عالماً والا فهو مفكر يكون صغيراً او كبيراً على قدر استيعابه الاشياء . ولنا في شخصية الدكتور الكسيس كارال (Alexis Carrel) برهان على اجتماع العلم والفلسفة في كتابه « الانسان ذلك المجهول » . وفي شخصية هنري برغسون دليل على استعانة الفلسفة بالعلم في كتابه « مادة وذاكرة » (Matière et Mémoire) . فهمة الفلسفة اذن عظيمة اولاً لانها هي وحدها التي تحل المشاكل الخطيرة ومنها خلود النفس والحرية واتباعها ؛ ثانياً لان القيم المتعلقة بالأخلاقيات منها يتوقف على تفهمه ساو كنا في الحياة .

فحيث لا احترام لحق الحياة والعرض وحق الملكية ، وحيث لا ظل للعدل والواجب وما شابه ذلك تعم الفوضى ويعود الانسان الى وحشيته الاولى وقد عاب بعضهم على الفلسفة جفافها ، وزعم انها تورث الكآبة وتقتل الخيال . وهي بريئة من كل ذلك فهي صحة الفكر والقلب وينبوع الالهام الحق . فان شاعرية فالري وفن ليونارد دافنشي (Léonard de Vinci) هما من بنات الفلسفة . وليس يخلد شاعر اذا لم يدعم قصائده الفكر المتين والرأي النفاذ . وان تأثيرها في الجماعات عظيم . وان في روايات (Paul Bourget) مثلاً كثيراً من الدروس الفلسفية . فاذا كانت فلسفة الروائيين هدامة ، غيرت كثيراً من احوال المجتمع ، واذا استهدفت الاصلاح والتقدم أتت بطيب الثمار . ولا يقولن قائل ان الفلسفة في صعيد خاص لا تتمدى الى الجماهير ، فمن انعم النظر في اسباب الثورة الفرنسية ، رأى عظم تأثير فلسفة القرن الثامن عشر في عقول الناس ، وما اضرمته من النيران

اجل ان الفلسفة بالنسبة الى الانسان الماقل كالهواء بالنسبة الى الرثتين تلقاه كيف اتجهت ولا يمكنك الفرار منه الا اذا حكمت على نفسك بالاختناق . وان تستطيع الاستغناء عن الفلسفة الا بانقطاعك عن التفكير والتزول الى مرتبة الحيوانية ، واكن في هذا الانحدار نفسه فلسفة ولو انها فلسفة سفلية .

الذاكرة

نحسب ان افضل تعريف للذاكرة هو تحديدها بالقوة الحافظة التي
تذكرنا بجالاتنا الوجدانية الماضية . مثال ذلك ان تذهب في رحلة رياضية
الى صنين في فصل الشتاء ، ثم تتذكر هذه الرحلة في ابان الصيف وانت
جالس في مكتبك ببيروت . فاو لم تكن الذاكرة قوة حافظة لزال كل
اثر لهذه الرحلة من ذهنك . وهي حالة وجدانية لانك لو اخذت الى صنين
وانت تحت تاثر مخدر قوي لكان وعيك قائماً «لا يلتقط شيئاً» . وعرفناه
بانها ماضية لانك لا تحتاج الى اعمال الذاكرة فيما حضر لديك من الاشياء .
فانك عندما تجلس الى مائدة الطعام تستطيع تمييز الاطعمة بدون الرجوع الى
الذاكرة . اما المستقبل فانك تفكر فيه بقوة الخيلة لا بقوة الذاكرة .
وقد زعم العلامة برغسون ان ليس للانسان حاضر بل ماض ومستقبل فقط
وهو رأي وجيه لانك عندما تلفظ مثلاً كلمة زلزال ، فعند نطقك بالشق الاول
منها وهو زل يكون هذا الشطر قد دخل في الماضي بسرعة البرق ،
فالذاكرة اذن هي القوة التي تمثل بها الاشياء من خلال انفسنا . لانك لا
تستطيع تذكر شي . لم يمر بك فيقتضي ان تعلم الامر قبل ان تتذكره .
ولكننا لا نستطيع تذكر كل ما يمر بنا فننذكر الاشياء المهمة فقط .
ويزعم علماء النفس ان هذه القوة الحافظة لا تفقد شيئاً اذا قيضت لها ظروف

خاصة. اما انا فقد تيقنت من ذلك بالاختبار اذ اجررت لي تسع عشرة عمالية جراحية ، اربع عشرة منها بالخدرد العمومي . واذكر اني في ثلاث او اربع من هذه العمليات كنت قبل ان ادخل في الغيوبة التامة بدقيقة او دقيقتين أرى بعض حادثات وقعت لي في ماضي حياتي وكنت احسبها مطوية في عالم النسيان ولكن هذا العرض كان يجري بسرعة البرق . ولا ريب ان العوامل العضوية (Organiques) مرتبطة بهذه القوة الحافظة لان الامراض التي تعارأ على الدماغ وادمان الخدرات تؤثر على الذاكرة . ولكن العلماء اختلفوا في تعيين مراكزها واسباب ضعفها وقوتها : فمنهم من زعم ان قوتها قائمة بقدر الخلايا الدماغية ، ورأى آخرون ان المسافات القائمة بين بعض الخلايا هي التي تؤثر فيها ، ومنهم من عين لها مركزاً « في الدماغ » ، خصوصاً الغلاسة الماديين الذين قسموا الدماغ الى مناطق ، يزعمون بذلك الى انكار وجود الروح . غير ان العلامة برغسون اظهر فساد هذا الرأي في كتابه (Matière et Mémoire) مثبتاً « وجود الروح » ، مبيناً ان الدماغ هو بمثابة سنترال تلفون يمر به صوت المتكلم ولكن ليس السنترال هو الذي يخلق الصوت ، فمتى تعطل يتعطل وصول الصوت الى الضفة الاخرى ولكن الصوت موجود على كل حال . هذا من الجهة العضوية ، اما من الجهة النفسانية فالاشياء التي تلتقطها الحافظة غالباً هي الامور التي لها بعض الاهمية . فان الاشخاص الذين شهدوا انهيار كوكب الشرق سنة ١٩٣٣ لا ينسون هذه الحادثة ولكنهم ينسون سائقي العربات الذين مروا على ساحة البرج في ذلك النهار . ومن هذه العوامل التي ترسخ الاشياء في الذاكرة صرف الانتباه لانه مهما مرَّ بك من الحوادث الجسماء وكنت غير منبه لها فلا يعتلق

بالحفاظة . والعامل الاهم هو التكرار بحيث تصبح قوة الحفاظة عادة عقلية . يقول المثل العامي : « كثرة المادة تقطع خرزة البير » . وهذا صحيح مع ان الحبل من ليف او قنب وهو اقل صلابة من الحجر الذي يتأثر بكثرة التكرار فينقطع . حتى اننا اذا لم نكرر الاشياء التي نعرفها واهملناها اهمالاً تاماً فقد يطويها النسيان . والشروط الأهم للحفظ هو ارتباط المعاني والافكار . فلو كلفت مثلاً ان تحفظ هذه الالفاظ : ثمرة ، الناس ، زمن ، المرء ، دامت ، الاقبال ، الشجرة ، حولها ، لعانيت الامرين في حفظ هذه الكلمات المتفرقة بدون رابط ولو حفظتها لنسيتها بعد امد قصير . ولكنك لو كلفت استظهار هذا البيت :

المرء في زمن الاقبال كالشجرة والناس من حولها ما دامت الشجرة لحفظته بسهولة . وهو كما ترى مجموعة هذه الكلمات المتفرقة التي استعصت بمدد ، ولانت مجتمعة ، على عكس ما يجري في السياسة . وهذا الذي حمل اصحاب الارجيز على تأليف قواعد اللغة نظماً . وماوم مثلاً في باب النحو انه لا يجوز الابتداء بالذكورة ما لم تفد معنى . وقد تنسى هذه القاعدة بسهولة ولكنك لو حفظتها بالارجوزة وهي كما يلي :

ولا يجوز الابتداء بالذكورة ما لم تفد كعند زيد ثمه
لكانت القاعدة والمثل ارسخ في ذاكرتك

والشرط في الذاكرة النسيان الموقت . اذ لو لم تنس موقتماً لما تذكرت ، كما ان الذي لا ينام لا يستيقظ . وقد يأتي النذكر نفواً ، بل قد يظل في بعض الاحيان مائلاً امام البصيرة فيصبح خاطرة ملازمة تفضي بصاحبها الى مثل المستريا . ومثال ذلك ان تشهد قطاراً يتدهور ، او شرفة تهوي الي

الارض وفوقها بضعة اشخاص يصبح بعضهم جنباً وبعضهم الآخر جرحى تسح منهم الدماء . فهذه مشاهد مؤلمة تعاود ذاكرتك ولو حاولت طردها وهي لا تزول الا مع الزمن الطويل . ولكن قد تستعصي الذاكرة على صاحبها فلا تميد اليه صفحة ماضيه الا بعد اعمال الارادة . وقد تتمرد عليه في بعض الاحيان فيحاول ان يتذكر اسم شخص وكلما زاد بحثاً ازداد بعداً عن الصواب . والافضل ان يترك البحث مؤقتاً فتأتي الكلمة المطالوبة عفواً . وقد يستعصي على المنشى . احياناً كتب كلمة اي تركيب حروفها ، فكلمة اعمل فكره حار في الامر ، والاصوب ان يكتبها ميكانيكياً ، فاليد الآلية تكون في غالب الاحيان اصدق من الذاكرة . ويعرض مثل ذلك للكاتب عند كتابة المهزلة مثلاً فان في ذلك صعوبات يعرفها الادباء الذين اشتغلوا بالانشاء ، فان كثرة التبصر في هذه الحالة هي التي تحمل صاحبها على الخطأ . واكثر ما يساعد الذاكرة على احياء الصور السكون العميق او الظلمة والانصراف عن النظر الى ما يحيط بنا من الاشياء . لذلك كثيراً ما ترى الذي يحاول التذكر يغمض عينيه او يرفع بصره الى فوق ليستجمع القوى الحافظة . والذاكرة تختلف باختلاف الاشخاص فمنهم من يحفظون بسهولة ومنهم من يصعب عليهم الحفظ . وفي الغالب ترى الذين يحفظون بسهولة ينسون بسرعة ، كشجرة التين تنمو بسرعة ولكنها لا تثمر طويلاً ، خلافاً للسنديانة التي تنمو بطيئة وتعيش كثيراً . والقوة الحافظة تكون على انواع متعددة ، فمنها الرائية ومنها السمعية والحركية . مثال الاولى ان تستظهر قصيدة فتراها في ذاكرتك كأنك تشهدا بعينك وترى مكانها في الكتاب والصفحة . اما السمعية فهي التي تقوى على التقاط الالحان

والاغاني . اما المحركة فهي ذاكرة الراقصين واللامبين على البيانو والكمان ،
 يحركون اصابعهم وارجلهم بقوة الذاكرة التي تقوى بالعادة والتمرس .
 وترى في الذاكرات التباين والغرائب . فقد عرفت كاهناً من الكهنة
 القداماء . أنصاف الاميين ، قضى في خدمة الكنيسة ستين سنة لم يستطع في
 خلالها ان يستظهر كتاب خدمة القديس اليومية ، وهو كتيب لا يتجاوز
 العشر صفحات ، ولكنه كان يعرف جميع العائلات اللبنانية ويحفظ انسابها
 بدون خطأ ولا تردد . ومن الذاكرات ما تستوعب كثيراً فقد عرفت في
 قضاء مرجعيون الشيخ علي شمس الدين ، واذكر انه روى لي في خمسة او ستة
 ايام ما يربي على خمسة آلاف بيت من الشعر العربي ، واظن انه يحفظ ضعف
 هذا المبلغ . ويحملني ذلك على تصديق ما ورد عن رواة العرب الذين كانوا
 يحفظون عشرين او ثلاثين الف بيت من الشعر . وكثيراً ما تضمف الذاكرة
 عندما يبلغ الانسان السن العالية . والظاهر ان الطبقة الدماغية التي تبدأ في
 الوهن والارتخاء ، هي الطبقة السطحية ، ثم يتسرب الضعف الى الداخل
 رويداً ، والدليل على ذلك ان الشيخ الحرف ينسى ما فله البارحة ويذكر
 لك بدقة وتفصيل ما جرى له في صباحه لان هذه الذكريات القديمة تغلغل
 في الخلايا العميقة من الدماغ ولم يبلغها الانحلال بعد . واول ما يتناوله النسيان
 هو اسماء العلم ثم النكرات ثم النعوت فيتدرج من الخاص الى العام حتى
 تسود الصفحة الذهنية تماماً . وللعلمة برغسون في وظائف الدماغ رأي
 مخالف لا مجال ليراده هنا :

وللذاكرة في حياة الانسان العقلية شأن جد خطير . فلو كان الانسان
 ينسى ما يمر به لما ارتسم في ذهنه شيء . ولما تعلم شيئاً ، بل لظل طول حياته

في طفولة عقلية . فالذاكرة هي رأس المال العقلي اذ ان الانسان لا يستطيع بدونها التفكير ولا القياس ولا الانشاء ولا الاستنتاج بل يكون الدماغ شبيهاً بالقفر الحلي ، ومعلوم ان القفر لا ينبت شيئاً . وكل ما يعمله العقل يعمله بفضل الذاكرة فلزومها للعقل كلزوم الدم للجسم . فاذا صح ذلك وهو اصح من اليقين ، فلماذا نرى بعض الناس يتبجحون بضعف ذاكرتهم ، ويتباهون بقوة عقولهم ؟

ان السبب في هذا الاحتقار للذاكرة هو اعتبارها مسجلاً آلياً لا يد لنا ولا شأن في قوته او ضعفه ، فهو منا وخارج عن طاقتنا في آن واحد . اما العقل فهو الذي يحكمم ويقرر ويستنتج ويجرد وقد قال الشاعر :

لولا العقول لكان ادنى ضعيف
اذنى الى شرف من الانسان

ولم يقل لولا الذاكرة

والغريب ان الانسان لا يرضى عن ذاكرته ولكن الناس جميعاً راضون عن عقولهم . وقد يتدمرون من كل شي . في هذه الحياة الدنيا ويطمعون بالمال والجاه ولا يشبعون من الدنيا

وقد قال الناظم :

يريد ان يغترف البحر ولا يترك منه قطرة تروي الظما
بالعقل والدين له كل الرضى اما بماله وجاهه فلا يرضى

فببعض مقدم الذكريات والعقول .

الأخيلة والصور

ليلة ذي دوران هل كانت كما حدثت أم أخيلة وصور
 هذا البيت للشاعر بشاره الخوري المعروف بالانخل الصغير ، وهو من
 قصيدته عمر ونعم . فهو يسأل عمراً اذا كانت هذه المغامرات الغرامية
 التي رواها عمر قد وقعت فعلاً ، أم ان الشاعر تصورهما . وهذا تساؤل في
 موضعه لان الانسان العادي يستطيع التصور فكيف بالشاعر . اذن ما هي
 الاخيلة والصور ؟ هي ما تطبعه الحادثات في ذهنك بواسطة الحواس
 بعد زوالها .
 فهب انك مررت بنخارة فشربت قدحاً من الخمر ثم اشتريت ضمة بنفسيح
 في طريقك الى السيخا ، وشهدت رواية عنتر وعبلة وقد تخللها بعض الاغاني ،
 ثم اتيت بيتك ، فانك تستيقظ في اليوم الثاني ولم يزل للطعم والرائحة
 وللبطولة والانشيد اثر في ذهنك ، تتلفت الى امسك فتراه كما تشهد
 صورتك في المرأة ، فهذه هي الصور . واكن تأثير الصور اضعف من تأثير
 الاصل فإنك ولو تخيلت الرواية بتفاصيلها وبقيت معجباً بها ، فلا يملك
 هذا الاعجاب على الحماسة والنصفيق . غير ان هذا الاحساس ولو تضائل
 فهو لا يتجدي . فانت عندما تأكل الليمون الحامض ينزر الزيت في فمك ،

ولكنك لو كنت في البرية ظامناً واستحضرت في ذهنك مفعول الحامض لتبادر الريق الى فكك بالتصور ، وان كان اقل منه عند وقوع الامر بالفعل . وترى الكثيرين من الذين خدروا للعمليات الجراحية يتقيأون لذكر الكلورفورم (Chloroforme) ولو بعد مدة طويلة . ويتغير تأثير الصور بتغير الاشخاص والامزجة والظروف الخاصة والصور انواع فمنها التمثيلية وهي التي تتراعى للعين كما لو شهدت الارز مثلاً فتذكرته ومرت امام عينيك اشجاره الباسقة . ومنها الذوقية وقد مثلنا لها بالطعم . ومنها الحركة وهذه اشد تأثيراً من اخواتها ، فقد تمر على خشبة ضيقة لتعب الساقية من ضفة الى اخرى وتتصور انك ستسقط ، فاذا بلغ منك هذا التخيل مبلغاً قوياً فانك لا محالة واقع . وقد يتصور بعض المرضى الوهميين انه مصاب بطفاح جلدي فاذا لازمه الوهم وألح عليه كثيراً فلا يلبث ان يشعر بالاعراض ثم بالطفح . والاطباء يدركون تأثير التخيل على صحة المريض لذلك تراهم يبشرونه بالشفاء وقد يكون على عتبة الموت . وقد ذكرني ذلك بنادرة ملخصها ان احد الامراء اصيب بداء وبيل وكان طبيبه الخاص يذيع كل يوم ان مريضه في تحسن . ومات الامير بعد ايام ، فقال احد الظرفاء : اظن ان سمومه مات من كثرة التحسينات وهذه الصور المحركة هي سبب العدوى الاجتماعية التي تشهدنا في الازياء والاخلاق ، ولها في عقول الاطفال على الاخص مفعول عظيم ، لان اذهانهم بيضاء ترسم فيها ما تريد . وان بحث التخيل هذا يفضي بنا الى تعريف الخيلة . وهي القوة التي تستطيع تخيل الاشياء المنظورة او الممكنة بشكل محروس . والفرق بينها وبين الذاكرة هو ان الذاكرة تراجع الماضي ، اما هي

فتوقظ الماضي والحاضر والممكن الذي لم يقع بعد. والمخيلة تختلف باختلاف الاشخاص ونبوغهم ودرجة ثقافتهم . والمخيلة السلبية التي تقتصر على استيعاب الصور لا تفرق عن الذاكرة وهي تتأثر بما يطرأ على الدماغ من حالات كالمرض والشيخوخة . وانها في الصبيان والنساء اقوى منها في الكهول والشيوخ . وان المخدرات والكحول التي تثير الدماغ تهيجها هي ايضاً فاذا تعالى هذا الهيجان افضت بصاحبها الى الهذيان والهستريا . وليست هذه المخيلة الناسخة التي تقتصر على الالفاظ انا. يدخر الصور ويحفظها فقط بل قوة ايجابية تلد خراطنا ولادة ثانية تستحضرها وتنظم ما بينها فتستدعي اليها الصور الممكنة وهذا ما يسمونه في الفلسفة «تداعي الافكار». وتداعي الافكار هو مثلنا الطبيعي للسير من فكرة الى اخرى كأننا الافكار اخوات تتنادى لما بينها من جوار او تشابه . مثال ذلك ان تذكر امامك لفظة «بتدين» فتذكرك بالقصر الفخم الذي فيها وبقاعة العمود والامير بشير وشاعره بطرس كرامه . وكل هذه الحاطرات اثارها في نفسك فكرة واحدة كأنها سلسلة حركت احدى حلقاتها فاضطربت حلقات اخرى عديدة . اذن فما هي هذه الظاهرة النفسية وكيف تتكون ، بل كيف يتم هذا الاستدعاء وتستجاب الدعوة ؟

زعم المعلم الاول اي ارسطو وتابعه على ذلك اكثر الفلاسفة ، ان التداعي يقوم باحد اسباب ثلاثة : اولها المشابهة بين فكرة واخرى ، فلو كنت ماراً بالسوق ونظرت شخصاً تراه للمرة الاولى وفيه بعض الشبه من صديق لك لتذكرت حتماً ذلك الصديق لما بينه وبين هذا الغريب من المماثلة؛ وثانيها التضاد ، فان الحرب تذكرك بالسلم ، والليل بالنهار ، والبرد بالحرارة ؛

ونالهما التلاصق والمجاورة . كما لو كنت تشي . مقالاً فخطر لك ان
تعبير عن حالات غرامية فرت ببالك لفظة الهوى ثم جاءت لفظة غرام وهييام
ووجد الى آخر الباب ~~بالألفاظ~~ ~~واللفظ~~ ~~من~~ ~~اللفظ~~ ~~نفسك~~ ~~لا~~ ~~بمثال~~
ويعترض معترض فيقول : ان هذا التقسيم خاطئ . لان المجاورة هي
المشابهة . اجل وهو اعتراض مصيب لان احدى النظريات الفلسفية تمسخت
على توحيد هذه الاسباب الثلاثة وجعلها سبباً واحداً وهو المجاورة فقط .
لانك عندما تشهد اللون الابيض وبذكرك بالاسود فلا تنس على رغم التباين
بين اللونين ، انك في عالم اللون والالوان متجاورة . وكذلك القول في
الاضداد فهي متجاورة ايضاً لان البرد الشديد يذكر بالاطرف الآخر وهو
الحرارة الشديدة ، فكلاهما في نفسك ملاصق للآخر
ولمبدئ تداعي الافكار هذا اهمية عظمى في حياتنا العقلية فهو الحزان العظيم
الذي ينهل منه العقل وبه تتعلق الذاكرة ومنه تستوحي الخيلة فتأتي بالمجاز
والصور وكل ذلك يرد الى مبدئ تداعي الافكار (Association d'idées)
ولكن هذه القوة الحسبة الملهمة تصعب خطراً على النتائج العقلية
والاوهام . فيجب على العاقل ان يضعها على محك النقد وان يزنها بميزان .
واليك مثلاً من الاضاليل التي تقع فيها العامة وهي ناجمة عن تداعي
الافكار فمنها التشاؤم من الرقم الثالث عشر والاعتقاد بان اليوم الغلاني هو
من ايام النحوس ، والتظير من منظر اجرة الفارغة او التفاؤل بمشهد قطع
غشم صباحاً . واغرب من ذلك بعض الامثال السخيفة التي تبادر الى الذهن
فيلفظها اللسان ولا يحصها العقل ومنها قول العامة : « ايد الما فيك تعضها
بوسها وادعي عليها بالكسر » ، وقولهم : « مين ما اخذ امي صار عمي »

والسبب في هذا الضلال ان الافكار تأتي وتجتمع بديهيًا كما تتلاقى
السيدات في قاعات الترين والتجميل . وانما النقد والتمجيص يقتضيان بعض
التعب ، والانسان كسول بطيء وهذا هو سبب الضلال
ولتداعي الافكار تأثير كبير على المرء ، وهو يختلف باختلاف
الاشخاص وتباين امزجتهم وثقافتهم . ولنفرض ان ثلاثة اشخاص مروا
تبعاً بجانب روض انيت في صبيحة يوم من الربيع ، اولها شاعر وثانيها
راع وثالثها اص . فالشاعر يؤخذ بهذا الجمال وهذا العرس الذي تقيمه
الطبيعة بين صداح الطير وأنة الساقية . اما الراعي فيتمنى لو كان هذا
البيستان ملكاً له يمسح فيه ابقاره ويسمنها . اما الاص فيتمنى مورت الناطور
ليخلو له الجو فينهب ثمار البستان لا يبقى منها واحدة للمالك
وان بين الذي يربط افكاره برباط العقل والمستسلم لها فرقاً عظيماً .
ويكون الثاني كالذي حلم ببيع جرة السمن واقتنا . النعاج التي تتوالد فتأتيه
بالقطعان ثم بالثروة فيتزوج ويرزق ولداً فاذا استمضى عليه تأديبه ضربه
بالصا فانكسرت الجرة وساح السمن على وجهه فانهارت احلامه جميعاً .
ولتداعي الافكار نصيب كبير في ميلنا او كرهنا لبعض الاشخاص ،
فاو شهدت شاباً وقيل لك انه حفيد جمال باشا السفاح لكرهته لا لذنب
اتاه ، بل لان فكرك انتقل الى جده وذكرك باعواد المشانق والضحايا
فكرهت الحفيد من خلال جده
ولهذه الحاطرات اثر عظيم في ذكرياتك الماضية ، فقد تمر بعد ثلاثين
سنة بكان قضيت فيه يوم انس مع اصحابك فتقف فيه وقفة المتاهف
وتنتش في زواياه وانما تبحث عن نفسك التي انطوت في خلايا الزمن . ولا

ريب ان موقفاً مثل هذا حمل امرؤ القيس على انشاء قصيدته التي مطلعها:
 « الاعم صباحاً ايها الظلل البالي » . اما الظلل البالي المجرد فمنظره لا يثير
 شيئاً من كوامن النفس ولا يهز الشاعرية
 ولا يقتصر هذا التأثير على الناحية العقلية بل يتعداها الى الجسم . فانك
 لو دعيت الى مأدبة مثلاً وطابت لك اصنافها وكان في عداد هذه الاصناف
 لحم الخيل او افخاذ الضفادع وانت لم تعود نفسك هذا المأكل لتقززت
 وربما اضربت عن الطعام . وافضل ما نفعه تجاه افكارنا الحياشة المتنادية
 هو حسن الزوية والاعتدال وصرف الامور في وجوهها ، فاذا كان للسيارة
 رابط فاننا رابط الانسان العقل واكرم به مشيراً .

العاوة والغريزة

قال ارسطو: ان المادة طبيعية ثانية . اذن فهناك طبيعة اولى مستعدة لاجراء عمل ما وقد نبتت عليها هذه الطبيعة الثانية التي يسمونها العادة كما تنبت الفروع على اصول الشجر . اما علماء هذا العصر فيرون انها ملكة مكتسبة ، وقابلية لاجراء بعض الاعمال بسهولة تختلف بتقدير تكرير هذه الاعمال . مثال ذلك ان المدخن يدخن السيكارة الاولى بصعوبة ثم يسهل عليه التدخين كلما كرر اشغال اللقائف . والفرق بينها وبين الغريزة هو ان الغريزة ميل مولود فينا ثابت لا تعترضه الزيادة والنقصان ، وهو ضروري لحفظ النوع . اما العادة فمكتسبة تتغير بتغير الظروف ، غير ضرورية لحفظ النوع . فان البط مثلاً يولد وفيه غريزة السباحة التي لا يحسنها الانسان الا بعد ان يتعودها ويكرر الغوص مرات عديدة ، وقد يفقد من قوته على العوم اذا تركها مدة طويلة . ويفترض في اكتساب العادة ان يكون الانسان قد كرر الفعل مرات عديدة لتتأصل العادة فيه ، ولكنه قد يتورد مرة واحدة . وانا نعرف كثيراً من المدمنين على المورفين اعطيت لهم جرعة واحدة على اثر عملية جراحية لتخفيف آلامهم فأحسوا بنشوة كبرى انارها فيهم هذا المخدر فنشأ فيهم ميل الى استعماله مرة ثانية بعد خروجهم من المستشفى ولغير ضرورة ، ثم تكرر هذا الفعل حتى اصبحوا من المدمنين

ولا ريب ان كل عمل نعمله يفتح اثرأ لما يأتي بعده ، فيسهل الطريق للتعلم والاكتساب رويداً رويداً . ولو اتى كل اثر للعمل الاول ثم اتى اثر الثاني وهلمَّ جرأ لما تعلم الانسان شيئاً بل اظن طفلاً مسناً . فلو لم يتذكر

القلم في المرة الاولى ادنى اثر فينا لتعلم الكتابة ، لكان المتعلم في المرة الثانية خالي الذهن مما اكتبه في المرة الاولى . وهكذا يستحيل على الانسان تعلم اي فن او صناعة ، اذن فقول ارسطو ان العادة لا تقوم بعمل واحد كما ان الربيع لا يقوم بطائر واحد ، لا يعبر عن الحقيقة تماماً فان عملاً واحداً هو بدء للمادة

والعادة تكون ايجابية وسلبية . ومثال الايجابية ان تعود التدخين والسباحة والصيد والعناء وما الى ذلك من الوف الاشياء . اما السلبية فان تعود تحمل البرد والحرق مثلاً حتى ايشق عليك ان تخالف هذا التعود الساي . وأذكر ان جنوداً بولونيين جاؤوا بيروت سنة ١٩٤٠ فوصلوها في شهر شباط ونزلوا البحر يستحمون على الشاطئ ، فماتوا في ذلك فأجابوا انهم يشعرون بحر شديد . وهذا النوع من التعود يدعى التعود الاحساسى . وهناك تعود سلبي آخر هو الفيدرولوجي . مثال ذلك تلقیح الجسم بالمصل الواقي من بعض الامراض ، فان هذا المصل يكسب الجسم مناعة وقوة تعاب الجرثام . ومن هذه العادات السلبية ان تعود سماع هدير متواصل . فانه في الليالي الاولى يقض عليك مضجعتك ، ثم لا تلبث ان تألفه وتنام نوماً عميقاً فاذا توقفت هذه الضجة فجأة استفتت من منامك . ويذكرنا ذلك بنادرة وقعت للخليفة الاموي مروان المعروف بمروان الحمار اذ يروى عنه انه وقف يوماً بباب طعان فرأى حماراً يحرك الوحى كلما دار حوله لانه شدد اليه برباط وثيق ، ورأى في عنق الحمار جلابلاً ، فسأل الطحان في ذلك فقال : يا مولاي ربما ادركني النعاس ونمت ، فما دمت اسمع صوت الجلابل اعلم ان الحمار دائب على العمل ، فاذا انقطع الصوت ادركت انه واقف فأقوم اليه واستحمته

على الحركة . فقال مروان : وما يدريك ، لعل الحمار يقف ويقتصر على تحريك رأسه فتتخدع . فقال الطحان : ومن لي بحمار نبيه يكون عقله كعقل الامير ! فخبجل مروان ومضى لسبيله .

وانما تكرير العمل الواحد في العادات الايجابية يفضي بنا الى اتقانه . فتصور مثلاً ، انك تحاول تعلم اللغة الانكليزية ، فلا ريب انك تلاقى في بادىء الامر كثيراً من الصعوبات ، سواء في البحث عن المفردات او في كيفية النطق بها ، ثم يسهل عليك ذلك بعض الشيء ، ثم يفضي بك التكرار الى استعمال الالفاظ والجمل آلياً حتى انه يصعب ان تتكلم لغة غيرها .

اما التكرار في العادات السلبية ، فشأنه ان يضعف الشعور بالشيء . لانه يغدو مألوفاً . فلو انك دخلت غرفة العمليات الجراحية ونشقت الـ (Ether) المخدر لتأذيت من هذه الرائحة . اما الطبيب الجراحي الذي ألف هذه الغرفة وقضى معظم اوقاته فيها ، فهو يكاد لا يشعر بوجودها والانسان يستطيع ان يألف كل شيء . ويتعوده . فان الذي ينطق بالكذب للمرة الاولى يتلعثم لسانه وتضطرب الالفاظ في لهاته ، وتلاو جبينه حمرة الحجل . ولكنه متى تمرد الكذب وراض نفسه على النفاق ، يصبح كالسيل المنهور يأتيه الكذب عفواً ، حتى ليصعب عليه ان ينطق بالصدق يقولون في الامثال السائرة : « كل شيء يبدو صغيراً ثم يكبر الا المصيبة فانها تبدو كبيرة ثم تصغر » . وهذا كلام وجيه لان الانسان يألف المصائب نفسها . فكلم من ام تشكل وحيدها فتراها تتمزق يوم مصرعه حتى تود ان تدفن الى جانبه ثم تمر الايام وتآلف الشكل وان الزمن لكفيل بتغزية الحزاني قلنا ان الانسان يألف كل شيء . ، وذلك بما يضعف شعوره ، ولنا على

ذلك ادلة وافرة . فن استسلم كثيراً للذات يبلغ به الامر الى فقد الاحساس باللذة . وكلما استغرق فيها ب مدت عنه ، وهو لا يزداد الا نهماً وهي لا تزداد الا بعداً . وحسب المتطرفين عقوبة انهم يفقدون اللذة في اللذة وهكذا يكون الجزاء . من ضمن العمل . خذ لك مثلاً على ذلك مدمني المخدرات . فان الذي يتنازل جرعة من المورفين يكفيه في بادى الامر نصف سنتيمتر مكعب في كل يوم ، فيحدث فيه هذا المخدر نشوة كهوى ثم يكرر ذلك اياً ، فاذا هذه الجرعة الصغيرة تتر به مر الكرام ، فيزيدها رويداً رويداً ، حتى يبلغ اضعاف اضعاف مقدارها الاول ، وهكذا يكون الانتحار البطيء .

ولكن قولنا هذا ليس من باب الاطلاق ، لان للطبيعة البشرية حدوداً لا تستطيع ان تتعداها . فلو قلنا مثلاً ان شارب الخمر يستطيع اذا ادين ، ان يتنازل ليترين في النهار الواحد ، فانه يستحيل عليه ان يبلغ العشرة . وان هنالك عقبات كثيرة تقف في سبيل العادة ، فانك لا تستطيع تعويد الانسان على الصوم المتواصل ، لان جسمه يقنضي التغذية كما يتعذر عليك ان تخرج السمك من الماء ويبقى حياً

• الغريزة فهي عامل داخلي يوجب بالحيوان للقيام ببعض اعمال تفضي الى حفظ الفرد والنوع ، بدون ان يعرف الحيوان الغاية التي يمشي اليها . مثال ذلك العصفور الذي يبني عشه ، والنحلة التي تنظم خلاياها ، والنملة التي تجمع الحبوب وتدخره ، والطيور التي تتزوج وتبيض . ولكن هذا العامل هو عامل اعمى لا يمت الى الذكاء والمعرفة بصلة ، لان التفكير وقف على الانسان وحده . فان النحلة عندما تنظم الخليا وتدخر القوت تفعل ذلك

بدافع الغريزة وحدها غير عاقلة انها مقبلة على الشتاء حيث تحرم الجني والقوت . والعنكبوت تنسج من لعابها خيوطاً جاهلة انها تنسج فعلاً تصطاد به الذباب الذي يصبح طعاماً لها

ونظراً لحلو الحيوان من العقل ، فهو يلتمز اختصاصاً واحداً وخطأ مفرداً رسمته له الغريزة ، فلا العصفور يستطيع ان ينسج مثل العنكبوت ، ولا العنكبوت تستطيع بناء خلايا النحل . وهذه الغريزة تولد مع الحيوان فلا حاجة به للتعلم . وكثيراً ما يوضع بيض البط الى جانب بيض الدجاجة في دور الحضانه ، وعندما ينقف البيض تهرع فراخ البط الى اقرب غدير لتعوم فيه ، وبعثاً تصيح الدجاجة لتردع الجملة الصغار عن السباحة . ولكن هذه الفراخ لا تتورع عن الغوص ، فانها من معدن غير معدنها وهي اعلم بمقدرة هذه الاجنحة والمناقير منها . ولكن هذه الغريزة العجيبة لم يكتب لها التطور ، فكما بنى العصفور الاول عشه منذ آلاف السنين كذلك يبني احفاده عشوشهم اليوم ، وهو مجرب في ساوكه غير مختار في مايفعل . ولكننا لا نقول ذلك من باب الاطلاق فان الانسان يستطيع ترويض الحيوان وتدريبه على امور تخالف غريزته . مثال ذلك تدريب كلب الصيد على حمل الطريدة الى صاحبه بدلاً من ان يأكلها هو . ولا ريب ان الكلاب التي تحرس القطعان وتستقتل في سبيل حمايتها هي من نسل تلك الكلاب الهريه التي كانت تفتس القطعان منذ آلاف السنين مثلما تعدو عليها الذئاب اليوم . فترى ان الغريزة تطورت والحالة هذه بحكم الوراثة ايضاً

قد بينا الفارق بين العقل والغريزة ، فاذا رأيت في بعض الحيوان حكمة فانها من ضمن الغريزة التي استودعها عندما ولدت وانما الحكمة للاخلاق السامي

الذي اودعها اياها
ولكننا نغالي في الرأي اذا زعمنا كما زعم ديكارت ان الحيوانات
آلات متحركة فقط . فاننا نلمس فيها فطرة تحملها على العمل في اتجاه ما
وفقاً لعامل داخلي يميز بين الاشياء . ويوقظ في الحيوان قوى كامنة ، ولكنه
من الصعب تحديد هذا الحس الذي يقود الحيوان فتدري بعض الطيور تهاجر
في وقت معلوم لا تحطه ابداً . ولا ريب ان الذين يردون الغريزة الى العادة
قد اخطأوا . فقد زعم بعضهم ان الهر الصغير مثلاً رأى ابيه او جده الاعلى
يطارد الجرذان فتعود هو مطاردتها . ولكن من علم الهر الكبير العداوة
للغأر ؟ نعم ان الحيوان يتطور بعض التطور كما اسلفنا ، ولكن الغريزة هي
المتغلبة عليه . وقد حاول بعضهم ان يرد الغريزة الى حركة انعكاسية
(Mouvement réflexe) فقط كما لو ان احداً حاول ان يضربك على
صينك فرفعت يدك تتقي الضربة . ومثالوا لذلك بان النعجة يعثرها الارتجاف
لدى رؤيتها الذئب ، والصواب هو ان بين الحركة الانعكاسية والغريزة
تجاور وقرين . غير ان الحركة الانعكاسية عضوية بحتة ، اما الغريزة فان
فيها عنصراً نفسانياً . فسهجان الخالق الذي استودع الغريزة الحيوان . فجعل
هذه النحلة الصغيرة تهدي الى اكمام الزهر فتحمل العبير وتطير به في الجو ،
تشقه طرقات الى ماواها لا تضل سبيلاً ولا تستشير دليلاً الا هذه الفطرة
المركبة في طبيعتها ، ثم تأوي الى قفيرها فتأخذ في الهندسة التي يعجز عن
مثالها الانسان الناطق ، ثم تفيض الشهد في خلاياها ، فيتناولها المرء عن
ايسر السبل . فسهجان الله الذي سخر الكون لهذا الانسان الذي قلما تراه
شاكراً حامداً !

الأحلام

لا ريب ان الجسد هو الوسيط بين النفس والعالم الخارجي ، فهي تطل منه على هذا الكون بواسطة الحواس . وكثيراً ما تحدها الحواس وان كان العقل يصلح هذه الاخطا . عندما يكون الانسان مستيقظاً . فان العين تنظر مثلاً الى الفلك الصاحي ، فتتعمق بهذا البساط الازرق وتعمق في الافق البعيد فتراه يوشك ان يتصل بالسماء . لولا هذا الحيط الرقيق كتمرار السيف ، وتنظر الى القضيب المنتصب في المياه الصافية فتحسبه مكسوراً ، ولكن العقل الرقيب الواعي يصلح هذا الخطأ الظاهري فيعلم صاحبه ان ذلك ضلال النظر فلا لون للجسد ولا اتصال بينه وبين الافق ، وان القضيب الذي يبدو مكسوراً هو سوي مستقيم لا صدع فيه ولا عوج . ولكن اذا غاب هذا الرقيب الواعي او أملت به الغفلة ، تغلت ذلك الجسم الوسيط من الرقابة وجاءك بالاكاذيب والاهام . ويكون ذلك في حالات خاصة ، كحالة الاختلال العقلي او التنويم المغناطيسي او في الحالات الشاذة التي تقرأ على الانسان في اثناء النوم كالأحلام والكابوس وما يتصل بذلك والذي يعيننا في هذا البحث ، هو النوم وما ينجم عنه . ومعلوم ان

الرقاد هو طبيعي وضروري للانسان ، وهو تحدير جزئي يطرأ على الجهاز العصبي ليتمكن صاحبه من الاخلاص الى الراحة بعد هذه المتاعب اليومية التي تطرأ على الجسم وتقضيه السكون ، فتعزله عن العالم الخارجي . ولكنها عزلة . وقتة فانك لو أثرت هذه الحواس المشاولة جزئياً ، لتنهت واستيقظ النائم . وهي عندما تكون مخدرة بالرقاد تستعصي على اوامر ونواهي الارادة ، لان الارادة نفسها تكون مشاولة جزئياً رغم ان الاعضاء وبعض الحواس تستطيع الاتيان بمركات نصف واعية ، ولكنه بعض الوعي المشوه . فارل ما يُعنى به الوجدان في هذه الحالات هو عدم معرفة الوقت ، لان النائم قد يستغرق في النوم ساعات عديدة ، وهذا هو السبب في ان المريض او المتعب القلق يجد الليل طويلاً . وفي ذلك تفسير لقول الشاعر :

شكونا الى احبابنا طول ليلنا فقالوا لنا ما اقصر الليل عندنا

والدليل الآخر على تشوه الوعي اثناء النوم ، هو ان الانسان يرى حلماً طويلاً كما لو رأى انه سافر من بلد الى بلد ، وشهد الفرائب ويمسب ان ذاك الحلم استغرق الساعات الطوال ، وفي الحقيقة يكون ذلك الحلم قد استغرق بضع ثوان لا اكثر . وقد يريد النائم الاتيان بامور كثيرة ولكنها ارادة مقيدة وغير مسؤولة في غياب العقل ، تتحكم بها المخيلة التي يعظم شأنها وتسرح ما طاب لها الهوى ان تسرح

وما الحلم الا مجموعة حوادث واعية نخسها اثناء النوم . ولكن من اين تأتي الاحلام وما هو السبب في انعدام السياق فيها ولماذا تحمل هذه الرؤى على محمل الحقيقة ؟

قالوا ان للاحلام سببين : اولها ان تذكاراتنا وابكارنا التي تطرأ علينا اثناء

اليقظة ، تعاودنا في اثناء النوم مختلطة بمبعثرة ، وثانيهما ما ندركه مشوشاً في المنام ، او هذه الاحساسات الصماء التي تعترينا فتضخمها الذاكرة وتلوونها على هواها . مثال ذلك ان تكون نائماً فيساقط البرد على الذرافوذ فتحلم انك في معركة حربية ، وان الرصاص يتر ويمزق الهراة حول اذنيك ، او ان تسمعك بموضة فتحلم ان مدوك طعنك بخنجر ، او ان يردى جسمك بالعرق فتري في منامك انك تستحم على شاطئ البحر ، وامثال ذلك مما تأتي به الخيلة من الالوان . اما عدم السياق في الاحلام فسببه غيبة العقل الرقيب كما قدمنا . فبينما تكون حاملاً انك في جبل صنين مثلاً ، ترى نفسك في غوطة دمشق ، ثم ترى على جانب الغوطة سفناً شراعية كبيرة ، تترجح فوق الأذي العريض واشباه ذلك من التناقض والحبط . ولكن لا يجب ان نبالغ في هذا الزعم كثيراً ، فان العقل رغم الشلل الجزئي الذي يطأ عليه ، يظل متصلاً ببعض انظمته . مثال ذلك انك تفكر في اثناء اليقظة بعمالية رياضية يتعذر عليك حلها ويتفق لك ان تحلها في اثناء النوم . اما الجواب على السبب الثالث وهو اننا نحمل الرؤى على محمل الحقيقة ، فسببه هو ما ذكرناه آنفاً من ان العقل الواعي يصلح الخطأ ويرد صاحبه الى الصواب كما في المثال الذي قدمناه عن توهم القضيب في المياه الصافية مكسوراً . ولكن هذا التعليل للاحلام يبدو ناقصاً من بعض جهاته . فاذا زعمنا ان الذاكرة تشوه وتلون تذكاراتنا او مشاعرنا ، فكيف نعلل لهذه الاحلام التي تطأ علينا ، على حين اننا لم نفكر بشيء منها ، ثم تتحقق بجذائرها غيب مرور السنين الطوال . وقد وقع مثل ذلك لاشخاص عديدين ذكرهم التاريخ بل يقع لكثيرين منا اليوم ، وسيحدث مثل ذلك في المستقبل .

ان العلم لم يستطع حل هذه الالغاز بعد ، ولعل المستقبل يكشف عنها النقاب . وقد يحلم الانسان في اثناء اليقظة فيجنح الى الخيال والتصور ولكن الفرق عظيم بين ما يتراءى له في حال يقظته وما يراه في المنام مما شط في التصور ، فانه يبقى ضمن دائرة المنطق . وقد يطرأ على الدماغ حالة مرضية تسم صاحبها الى التوهم (Hallucination) . والفرق بينهما وبين الحلم انها تصدر عن الباطن الى الخارج ، على حين ان الحلم يأتي من الخارج الى الداخل . وهمي وهم مجرد لا موضوع له ، يختلف عن الوهم العادي المرتكز على سبب خارجي يوضحه ويشوهه ، كما لو مر الجبان الخائف في غابة كثيفة ، فقد يرى بعض الحجارة المتكدسة على جانبي الطريق ، ويحسبها ذئاباً ، بل قد يرى لها رؤوساً واذناباً . اما التوهم الذي نحن في صدده فهو انقلاب خطير في الاحساس اذ يكون صاحبه جالساً على مقعده في منتصف النهار ويتصور لوصفاً بطاردونه ، او حيات هائلة فاغرة افواهها بقصد ابتلاعه ، وما شاكل ذلك من الاشباح والاخيلة التي لا وجود لها ولا اثر الا في دماغه المشوه . ويمكن احداث هذا التشويش بطرق اصطناعية كتناول المخدرات وعلى الاخص الافيون والحشيش فان صاحبها يخلع على العالم الخارجي من الاشباح ما لا وجود له الا في ذهنه . وهناك نوع آخر من الحالات التي تعرض للنائم وهو المعروف بالـ (Somnambulisme) . وهو في الحقيقة حلم فاعل ، لان الحلم العادي يقتصر على فتح افق التصور لصاحبه الذي يبقى ساكناً في فراشه . اما هذا النوع فهو يحمل صاحبه على التكلم والحركة ، فيمشي ويصعد الى السطح وينقل الامتعة ويأتي كثيراً من امثال هذه الامور وهو قائم

والفروق بين هذا النائم والنائم العادي كثيرة . فالنائم العادي مخدر بفعل الرقاد وتكون اصابه المحركة مشاولة بقدر ، اما هذا فيحتفظ بقوة اصابه وصلابة اعضائه ، بل قد تزداد عما كانت عليه في حالة اليقظة . فقد يستطيع المشي على شفير هاربة عميقة ، وقد لا يتجاوز عرض هذا الشفير بضع سنتيمترات ، ويسير عليه بسرعة كما لو كان سائراً في السهل الفسيح . وفي الحلم العادي يكثر التخبط وينعدم السياق ، اما هنا فيسير الحالم مدفوعاً بفكرة منظمة ينفذها بكل دقة . مثل ذلك ان يعتم الحالم نقل الكرسي الفلاني من بهو الاستقبال ليضعه على السطح ، فانه يحمله الى السطح رأساً ، ولا يمكن ان يبدل خطته فيضعه مثلاً في غرفة الاكل . واذا كان الصعود الى السطح يضطره الى ارتقاء درج عال فانه يصعد الدرج واحدة واحدة فيعود فينزل متراً رزياً ، لا يتعث ولا تزل به قدم . وفي النوم العادي ، يشمل التخدير الاعضاء جميعاً ، اما في هذه الحالة فلا يصيب الا بعضها . اما الاعضاء التي توجه للعمل فتقوى على حساب تلك التي لم تزل نائمة . وكثيراً ما يتذكر الحالم العادي ما رآه في منامه ، اما الحالم العامل فانه ينسى كل شيء . ولا ريب انه في الاعمال التي يقوم بها من مشي ونقل امتهمة وما شاكل ذلك مقود بذكرته ، لانك لو وضعت في طريقه حاجزاً لم يألف وجوده في مكان معين اثناء يقظته ، لاصطدم بهذا الحاجز نظراً لحال ذاكته من وجوده في ذلك المكان . وان هذه الحالة الخاصة التي تعتمري النائم اي ال (Somnambulisme) قد تكون حالة مرضية وقد لا تكون الا اضطراباً عصبياً . وللوراثة تأثيرها في هذا الشأن . وهي حالة طبيعية كما قدمنا ، ولكن يمكن احداثها بطريقة اصطناعية اي التأثير

في شخص ما لعله على امور يأتيها اثناء النوم مرغماً عليها . وانما نعني بذلك التنويم المغناطيسي الذي نلوح اليه تلويحاً ولا نبجته لانه ليس غرضنا في هذا المقال . ولكننا نقول انه يتعب الجهاز العصبي صحياً ، وانه اذا اسي . استعماله افضى الى اخطار اخلاقية واجتماعية . مثال ذلك ان يأمر المنوم في اثناء النوم بارتكاب الجريمة الفلانية في اليوم الفلاني فيفعل ذلك مرغماً . والصراب انه لا يجوز الالتجاء الى هذا التنويم الا في معالجة بعض الامراض العصبية شرط ان يعهد بذلك الى طبيب معروف باستقامة الوجدان وحسن الاخلاق

وبعد ان الممنا بايجاز كلي بالاحلام واسبابها ترى ما يبقى من القيمة لكتب تفسير الاحلام التي لا تفيد سوى بائعها .

الجمال

كنت ذات يوم ابحت احد المعاجم العربية منقبا عن فعل «جمل» . واذا قلت احد المعاجم فكأنني قلت سائرهما لان اكثر المؤلفين لم يخرجوا عن النسخ ، وقد الجأهم هذا النوع من العبودية في النقل الى الخروج عن الكياسة والظرف . فقد ورد في شرح لفظة جمل : ان الجمل بمنزلة الرجل ، والناقة بمنزلة المرأة ، والبكر بمنزلة الغلام ، والبكرة بمنزلة الجارية ، فاصح هذا التشبيه . ورأيت ان لفظة الجمل مأخوذة من مادة جمل ومعناها الاصلي الشحم ، والجمل هو الشحم المذاب ، وتجمل الرجل اي اكل الشحم المذاب . ومنها قول امرأة لابنتها : تجملي وقمفني اي كلي الشحم واشربي العفافة وهو ما بقي في الضرع من اللبن والظاهر ان الناس في باديتهم نظروا فقط الى جمال المرأة ، واحبوا منها السمن والشحم ، فخلعوا على الحسناء هذا النعت معجبين بالارداف الرجراجة ، والعدور المنهدلة . فاذا تغزل شاعرهم بالمليحة قال مال الكتيب ، والكتيب قل من الرمل يشبهون به هذه التلال من اللحم . ولا ريب ان معظم النساء كن في ذلك الزمن عجافاً ضامرات فاحب الرجل النادرات بينهن اي البادئات . اما الجمال الذي نتحدث عنه اليوم فهو بحمد الله من غير هذا المعدن

ان الشعور بالجمال سهل فهو في متناول الناس جميعاً ، ولكن الصعوبة
تقوم في تعريفه . فاذا اعجبك شي . فليس لك ان تنفرد بالاستحسان فتزعم
انه يوافق ذوقك ، وما ذوقك بالمقياس العالمي الذي يخضع الناس جميعاً
لسلطانه . فوجب اذن ان يكون الاستحسان مطلقاً ، وشرطه ان يتجرد
من غاية اللذة والمنفعة وما يتصل بهما ، حينئذ يرتدي الشعور بالحسن طابعه
الاجتماعي ، ويحمل المعجبين على نشره في الناس كما تشيع العدوى ، وقد
يجهلون سبب هذا الاعجاب ولكنهم يشعرون به . وقد زعم بعضهم ان
الجمال هو انتظام الاجزاء والانسجام فيها كما لو نظرت الى وجه حسنا . ورأيت
فيه حسن النسق والتقويم ، ولكنه تعريف يتناول المرئي من الاشياء فلا
يشمل رخامة الصوت مثلاً . اما القول بان الجمال هو انتظام الاجزاء فقد
يكون الامر على عكس ذلك ، فاي نظام ترى في الغصون الملتوية التي
تنطلق من بين العروصج ، فتشعب طرائق لا نسق فيها ولا هندام وانما
تقوم روعتها بالفوضى التي فيها . وفي الحقيقة ان الجمال تعبير نفسي وصبوة
الحياة الى الحياة ، وان الانسان لا يحب الاشياء التي حوله الا لانه يرى فيها
بعض نواحي نفسه فيخلع عليها من ذكائه وشعره وروحه .

وميلنا في الحيوية الى الكائنات يشترط تجرد هذه الخواص من القبح
والدمامة ، والا فهي مجلبة للارحمة او الكراهية . وان ما يثير اعجابنا هو
دفق من الحياة الخصب الطليقة فنهفر اليها وقد ملك سحرها مشاءونا ،
فايقظ العقل والخيال وارهب الحس والشعور . ومظاهر الجمال درجات ،
تبدأ بالجماد وتنتهي الى الانسان . فانك اذا اجلت النظر في قلعة بعلبك
مثلاً وشهدت هذا البناء الضخم ، ارحى اليك هذا المشهد فكرة القوة

والجهوت . ويوحى اليك منظر الرياض فكرة الشباب النضر ، والامل
 الخصب . فاذا لمحت الزنبق ذكرت الطهر ، كما تذكرك رؤية الاسد
 بالقوة ، والحمل بالوداعة .
 اما الغاية في الجمال فهو الانسان ، لانه المرأة التي تنعكس عليها النفس .
 ولا يكون الوجه جميلاً الا اذا انعكس عليه شيء من حدة الذكاء ، او
 صفاء القلب ، او قوة الارادة . فاذا تلاتت عليه هذه كلها فهي دولة
 الحسن ظاهرة في وجهه . وكثيراً ما يكون جمال الخلق مظهراً لجمال الخلق .
 وانما الله سبحانه هو مصدر الجمال الاعلى ، وقد انعكس بعض هذا الجمال
 على النفس الانسانية التي شعَّ بعضها على مظاهر الكون فاحبها الانسان ،
 وقد احب الله واحب نفسه على غير علم منه ، والله جميل يحب الجمال .
 وقد يخلط بعضهم بين الجمال واللذة ، وقد تكون اللذة حيث لا جمال .
 فقد يلتذ المسافر الضارب في القفر بنسيم بلبل يهب عليه فيبرد . من افح الهجير .
 وبطبيب لمن اضرَّ به البرد ، فاجمد الدم في عروقه ، ان يأوي الى غرفة
 دافئة فيصطلي . وتشعر الضواري بلذة الشبع عندما تقع على فريسة . ولكن
 اين الجمال في كل ذلك ؟
 والشعور بالجمال يثير في الانسان وحده نشرة الاعجاب والغبطة ، ويسمو
 بالنفس صعوداً الى الذوات العلى ، اما اللذة فكثيراً ما تدنيه من الحيوان الاعجم .
 وكذلك يخلطون بين الجميل والنافع وليس ذلك صواباً . فاية منفعة
 يجنيها الواقف على اهرام الجيزة المأخوذ بزوعة هذا البناء ، الذي تحدى
 العصور ولما يزل ؟ ان فنجاناً من القهوة يتناوله في ظلها لانفع واجدى .
 ولكن اين هو الجمال في القهوة ؟

وفي الجمال درجات : فاذا تناهى صمواً كان الرائع المدهش ، واذا تضائل كان الحسن . اما الرائع فهو ما يشعرك باللانهاية . مثال ذلك ان ترقى جبال الارز في يوم صاح ، حتى اذا بلغت قمة قم الميزاب وسرحت بصرك في الازرق المتوسط تاهت عينك في الافق ، فيرف الجفن الكليل وقد تحضب بسحر اللانهاية ، او ان تنظر الى الاوقيانوس وقد تنادت الزوابع من كل صوب ، وزجر الاعصار فتعالت المياه جبالا تنقض على الشاطئ . انقراض القدر ، فيدوي هديرها في اذنك دويأ موصولاً ؛ وتلفتت الى السماء فتأخذ الكواكب عينيك ويعود طرفك حبيراً . حينئذ تشعر انك شيء صغير بجانب اللانهاية ، فينقبض الصدر ويهن الحيال ويغتبط العقل وحده ، لانه متصل باللانهاية ، متصل بالله

ان الحسن يثير اعجابك ، اما الرائع فيدهشك وقد يعقل اسانك فلا تستطيع كلاماً . وفي الجمال ما يسحرك فيلاشي فيك الارادة كما يلاشيها الاستهواء المغناطيسي . فلو شهدت مثلاً حفلة موسيقية راقصة ، لشعرت بالحياة تتثنى في الخنا . الراقصين ، ويعجبك في التثني حركة الجسم صاعدة اكثر منها منحدرة ، لان الانحدار حركة طبيعية موافقة لنظام الثقل ، اما الصعود فهو خروج على المألوف وهو خلق وارتجال ، والانسان يتوق الى الابداع والخلق

فاذا قال قائل ان الانسان يقلد ولا يخلق ، فهو يقلد الطبيعة مثلاً بالموسيقى والغناء ، وانه تزاع الى المحاكاة . فالمطرب يعبر عن شعور كامن فينا ، لانه بينما يكون آخذاً في العزف نسايره نحن مسايرة خفيفة ، اذ لو طرأ على الآلة ما يقفها عن العزف ، لرأيت المستمع وكأنه يد يده في

الفضاء لينجد المطرب في موقفه هذا
قلنا هذا رأي صحيح ولكن هنالك فرقاً كبيراً بين شعورنا بالجمال
الطبيعي وشعورنا بجمال الفن ، فان الطبيعة تمرض علينا الجمال عرضاً اما الفن
فيمليه علينا املاءً ويثله وحياً

الا ترى انك لو سمعت العندليب يصدح في الروضة الغناء ، لما تعدى
شعورك به الاستحسان ؟ ولكنك لو سمعت هذا النغم نفسه ينطلق من وتر
الكمان في ليلة قمر . لاحسنت بنا يشبه التنويم المغناطيسي ، يقف سريان
افكارك واحساسك فتجس انفاسك على غير علم منك . فلو سمعت في
تلك الساعة ديب النمل لعكر عليك صفوك ولعنت النمل ، ذلك لان
الشعور العميق تغلغل فيك فاصبحت في غربة عن هذا العالم ، واكنها غربة
حبيبة تعود منها وقد تركت فيها بعض قلبك

ونقيض الجمال القبيح وهو خلو الكائن من شروط الجمال التي اسلفناها في
هذا المقال ، اي افتقاره الى الحيوية والطلاقة ، والعظمة وحسن النسق .
وقد يكون الحسن في صميم القبح وحسبه ان يربنا الصفحة الاخرى المظلمة ،
لندرك قيمة الصفحة الاولى النيرة وفقاً لقول صاحب اليتيمة : « والضد
يظهر حسنه الضد »

ويستطيع بعض اهل الفن التعبير عن القبح بجمال خلاب ، ومثال ذلك
الشاعر المراهوب شارل بودلير في قصيدته التي عنوانها : « الجيفة » . فقد وصف
الجيفة التي يتأكلها الدود بفن ساحر . ولما كان الشيء يذكر بالشيء او
بنقيضه ، كما يذكر كره الورد بالنار او المر بالخلو ، فقد ذكرني ذلك ببعض
الذين امتهنوا الجمال فشهروا العيون النجل بعيون البقرة الوحشية وقوامها

بالتضيق و اردافها بالكيب وهم يعيشون في القرن العشرين لم يشهدوا في حياتهم بقرة ولا كتيباً

واننا ننقل اليك في ما يلي فقرة عن كاتب شهير ترى كيف يفهم الجمال في بعض المقول ، وكيف يشنع عليه قال : « ولكن الوجه الجميل كذب ظاهر ولا يلائمه الا كذب مثله . ومن هنا فاض الشعر واصبحت اوصاف الجمال كلها تمزيهاً على الغريزة وترويراً للبشرية في غير حقيقتها وتقليباً على روحانية الانسان ، وعاد الوجه الجميل كالصالح المنافق ، صالح ومنافق اي منافقان في شخص واحد »

ويقول في مكان آخر : « والمرأة ترى بعينها في اناث الطير والبهائم من الجمال ومعانيه ما يروقها ويكفر عندها ، غير انها لا تحس ذلك من امرأة مثها ، اذ من الصدق الا يصدق كاذب كاذباً فان لم يقنعك ايها الرجل فايقنعك هذا »

وكتب في الهاش ما حرفيته : « تشذ في هذا بعض النساء المذكرات اللواتي خلقن ذكوراً وانحرفن في التركيب الى الانوثة فتراهن يمشقن النساء عشق الرجال ويعرن عاينهن اكثر من غيرته »

افرايت ايها القارى . كيف يفهم الجمال ؟ انا لربما به ان يطالع من خلال شهوة ويذهب بذهاياها ، فيشوه ويخط من قدره .

اللهم انك انت مصدر الكمال ، فعلمنا كيف نفهم الجمال .

الفن

لا ريب ان الموسيقى اعلق الفنون بقلب الانسان ، بما فيها من
حلاوة التمييز وقوة الجاذبية ، ولكنها تأتي في الدرجة الاخيرة من حيث
الدقة والوضوح . فهي شعور فياض ولكنه مشوب بالابهام ، لانها
تبر عن كل شي . ، تحس ولا توصف ، فهي ادنى الى الروح منها الى الجسد ،
والروح لا تحد الا بتقدير . فلو خطت ريشة الرسام الماهر صورة الهركان مثلاً
لنظرت في اللوحة المعروضة عليك الجبل المتقد ، ولحت السنة الالهيب تتاوى
كما تتثنى حمر الافاعي ، وشهدت اللحم يتطاير من هذا الجحيم ، والدخان
يتلاحق غماماً قائماً ، فيلتنف وينمقد هالات سوداء فاحمة . اما الموسيقي فانه
ييمت فينا حساً مبهماً مماثلاً لرؤية الهركان ، يخدر فينا القوى المقاومة . وقد
استعملت الموسيقى مخدراً قبل ان يكتشف العلماء المنومات المعروفة اليوم .
فكان الاطباء الجراحيون يعمدون الى احدى طريقتين : احدهما اعطاء المريض
جرعة من المسكر وهي طريقة ضارة ، والثانية تخديره باسماحه الموسيقي وتخف
بذلك آلامه جزئياً . وقد استهوى هذا الجمال الغامض طائفة من شعراء اوربا
فنافسوا الموسيقيين في هذا الصعيد ، وخلصوا على شعرهم كثيراً من الروعة
الغامضة ، فعنوا بالنغم والايقاع يغمرونها بالحسن تعبيراً عن الخليجات العميقة
وهي خليجات يزداد غموضها بازدياد عمقها . فنهج هذا النهج نفر من شعراء

الفرانسييس ، ويعتبر بول فاليري حامل لواء هذه الدولة الرمزية . ولا تنس ما تخلطه الرنة الموسيقية على الشعر العربي من الجمال ، سواء كان ذلك في وحدة القافية ام في الوزن والتفاعيل . وقد تكون القصيدة خالية من الفكر والابداع واكتنك تسممها فتثير فيك الحماسة وتمز اعصابك فترهفها لسيل السيوف وطعن الرماح . مثال ذلك القصيدة المنسوبة الى عنتره ، ومطامها :

حكيم سيوفك في رقاب العذل واذا تزلت بدار ذل فارحل
او قول المتنبي :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
ويأتي بعد الموسيقى النحت والرسم وما يتصل بهما من الفنون . اما الشعر فهو سدره المنتهى في مماء الفن . وكذلك شأنه منذ القديم يوم كان اليونان حملة لواء المدنية ، اذ تنطوي سائر الفنون الجميلة تحت الشعر لانه كان ينشد في المسارح مصحوباً بالتمثيل والغناء والرسوم والالوان . هكذا كانت تجتمع دنيا الفن على خشبة مسرح ، وطالما خدر الشعر الانسان فسحره وألهب الجماهير فأفنى فيها الارادة ، ودك العروش ، وخلق الجمال حيث لا جمال ، وانبت الربيع في صميم الصخر الاجرد . وقد قال الشاعر في هذا المعنى :

ما الربيع الطلق الا خلجة مسها الشاعر فاخضرت جنابا

خط اوراداً على البيد وفي لفحة الرمضاء اظلالاً رطابا

ينعم العشاق فيها كلما ضاقت الدنيا فسامتهم عذابا

لقد رأينا في ما تقدم ان الفن يوقظ فينا القوى الكامنة لتذوق الجمال ، وهو يترسل الى ذلك بوسائل ثلاث : التقليد والتعبير والخلق . اما التقليد فقد رأى فيه الطبيعيون (Réalistes) منتهى الكمال زاعمين انه على صاحب الفن

نقل الطبيعة كما هي . فاذا صورَّ الشجرة مثلاً ، فلينقلها الى لوحة على علاتها .
وفي هذا الرأي انكار للمثالية . واذا استطاع المصور نقل الطبيعة فكيف
يستطيع نقل الشعر الغنائي ، وليس من الذوق بشي . ان ينقل اليها وتر الموسيقى
صياح الصائحين ، مثلاً . واذا اصبح الفن حقيقة مجردة فقد يفضي ذلك الى
الاشتمزاز بل الى الرعب في بعض الاحيان . تصور انك تشهد رواية « روميرو
وجولييت » مثلاً ، وان هذه الحسنة التي تقوم بدور جوليت ستجرع الدم
امامك على المسرح ، فيتقلص وجهها الجميل وتفيض الحياة في مباسمها ، وتنهض
هذه الوردة المتألقة مائة ، وان هذا الموت حقيقي لا وهمي . لا ريب انك
تكون اول الهاربين من قاعة التمثيل . ولكن صاحب الفن لا يستطيع
الاستقلال عن الطبيعة تماماً ، لانها الأم التي تغذيها والكوكب الذي يهديه ،
يستوحياها ويضيف اليها من عبقريته سعيماً في طريق المثالية

اما العنصر الثاني فهو التعبير . فان الملهم يذف اليك الطبيعة وقد صفأها
من شوائبها وخلع عليها من نفسه . فلو نظر الجاهل الى عتمة الليل لقال
لك ان الظلام شديد ، وانه لا يبصر . ولكن الشاعر يحس رهبة الليل
وسكونه وما فيه من عمق ، فيقول امرؤ القيس :

وايل كموج البحر ارخى سدوله علي بانواع الهوم ليبتلي

ان الطبيعة وحدها اي الحقيقة المجردة لا تشبع نهم الانسان ، والنفس
البشرية تفتح آفاقاً وراء الطبيعة ، وهي تواقّة ابدأ لايجاد ما لا يوجد . الا
ترى ان القبائل المتوحشة نفسها ، وافرادها حفاة عراة يزيدون على انتاج
الطبيعة شيئاً كأن يخضبوا اجسامهم بمختلف الوان الوحول ، او يتزينون بالوشم
ويعلقون في انوفهم عقوداً من الاصداف ؟ أولاً يدل ذلك على رغبة الانسان

في التفنن والزيادة على الطبيعة ؟ لانه لا يمكن ان يكون الفن
 اما العنصر الثالث في الفن فهو الخلق . وهو يتعدى التقليد والتعبير ،
 فينطلق الملمهم في الاجراء الجديدة ، ويابح الآفاق الأبتكار لانه ليس للعبقورية
 حدود . وهنا يبدأ عمل الخيلة الخلاقة فتبدل الاشياء . بأن تضيف اليها او ان
 تدمر بها فتصفيها من شوائب او ذكرت لاسماء الى الجمال . فتري الشاعر
 العبقري يصف البحر بالظلمة والرحابة والعمق ، ويصف زرقته بانها مرآة
 الفلك وقد غطست فيها النجوم تتعري وتبتعد ، ويتحاشى ذكر ملوحة البحر
 وما يلقي فيه من الجيف ، وما ينصب من الاقدار . لكن من اين تأتي
 الانسان ان يهفر الى المثالية ؟ لقد زعم افلاطون ، وتابعه على هذا الرأي بعض
 الفلاسفة ، ان الانسان قبل ان يهبط الارض شهد الجمال السماوي وما في العالم
 الآخر من مباحج وسحر ، فظل في نفسه رسيس من هذه الذكريات ، فهو
 يحن اليها دائماً ، وهو كلما خطا خطوة في الفن ارتفع درجة في سلم التذكرة .
 ولكنه رأي واهن يفتقر الى الاثبات . والصواب ان الخالق فطر الانسان على
 حب الجمال والسعي الى المثالية ، واطاف الانسان الى ذاك اختباره الشخصي
 فتطور على الزمن واخذ في الصعود فتدرج من الكوخ الى القصر ، ومن تقليد
 عواء الذئاب الى موسيقى بيتهوفن وشوبرت ، والخيلة المولدة تأتي بالمعجزات .
 ترى شاعراً يصف صريراً قام بينه وبين الاسد فتسري في نفسك رعدة الخوف
 مما يصف من هول الانياب والاظافر ، وتكاد تحس بالزئير يمزق اذنيك على
 حين ان الشاعر لم ير في حياته كلها اسداً . وعندما نقول الخيلة الخلاقة ،
 لا نعني بذلك انها تخلق الاشياء من العدم . ان الله وحده يستطيع ذلك .
 لكننا نقول انها تريد وتنمي وتلون ما شاء الفن والنبوغ . الا ترى القصصي

كيف يأخذ الحادثة النافهة ، فيجعل منها صرحاً ادبياً عالياً ترتد عنه العيون
 حيرة ؟ ان الشاعر الخالد راسين اخذ عن التوراة بضعة اسطر ورد فيها ذكر
 عتاييا ، فأتحف العصور بنأساة قال فيها قولتيه انها رائحة الفكر البشري
 ويشترط في الخيال المولد ان يعتمد بالعقل والذوق ، فقد يشط الخيال
 ولا يكون اذ ذاك مولداً بل مريضاً متهدماً فيأتي بالخرافات والالوهام اشباعاً
 لفضول الغوغاء ، فيتفقت حينئذ من رعاية العقل والذوق ويأتيك بأمثال قصة
 علي الزبيق وفيروز شاه وامثالها . يلقي الانسان ما يلقي في هذه الحياة من
 الشقاء والالم ، فيأتي الفن وينقذه من براثن الشقاء ، ويحمله الخيال المجنح
 الى عالم اسمى من هذا العالم

فاذا تماظم شقاء الانسان كثيراً فاصبحت الدنيا في عينيه اضيق من عين

البخيل ، واكتنفه الظلام فحبس انفاسه ، لجأ الى الخيال المولد فقال :

ياموت يا حلم الخيال النائي يا صبح اعلامي وحلو رجائي

انت الرسول الحق غير مدافع جأت رسالته عن الالتقاء

ما الموت الا رقدة سحرية مخضرة الاحلام غب شتاء

ابدية سكراتها فنعيمها امواج لذات وهدهنا هنا

الوجدان

ان الوجدان الذي نتحدث عنه اليوم ليس الوجدان الاخلاقي الذي
 يمينه المتكلم بقوله : « ان فلاناً طيب الوجدان صافي السريرة » ، ولا الذي
 يمينه القاضي الجزائي بقوله : « اني مطمئن الوجدان لهذا الحكم » ، فذلك هو
 الوجدان بالمعنى الادبي . اما الذي نبخسه اليوم فهو الوجدان البسيكولوجي اي
 استطاعة النفس ان تعي ذاتها في ما تفعل ، وفيما يطرأ عليها من تغير .
 فانك عندما تكون فرحاً او حزيباً ، فالقوة التي تعي ما انت فيه من
 سرور او حزن وتسجلها هي الوجدان او هو الوعي المسجل لما يطرأ عليك
 من الحالات ، وهو يقينك الداخلي الصميم المحتجب عن العيون فلا يشعر
 به سواك . وقد زعم بعض الفلاسفة انه لا يسجل الا التغير والانتقال من
 حالة الى حالة كما لو كنت محوطاً بصمت عميق فسمعت صداح البلبل ، ثم
 ازيز الرصاص ، او هدير الرحى ، فيكون الوعي قد سجل الفروق بين
 هذه الاصوات . والصواب انه لا يدون التغير فقط بل يستطيع ان يعي
 حالة تستمر ساعات طوالاً ، كما لو كنت في نشوة فرح مثلاً فان الوجدان
 يعيها مهما طالت وبدون ان يطرأ عليها تغير . ويكون هذا الوعي بديهيّاً
 حين تشعر بمرور سيارة او تهدم جدار . وهو ايضاً ما تدركه عندما
 تنظري على نفسك بالتأمل وامعان الفكر ، والبديهي يشترك فيه الانسان

والحيوان على السواء . اما المنظوري فهو خاص بالنفس الانسانية ، وقد حسبته
الفلاسفة الماديون اشعاعاً من الدماغ وألحقوه بالمادة . ولكنهم اخطأوا خطأ
فاحشاً لانه روحاني يعبر عنه بالكيفية لا بالكمية

وقد زعم ليبنتز (Leibnitz) وشوبنهور وسواهم ان هذا الوعي هو
مجموعة حالات لا واعية ، اي حالات لو فرقتهما الى وحدات صغيرة لما شعرت
بها ولكنها متى تراكت يعقلها الوعي . وقد مثلوا لذلك بهدير امواج
البحر ، فقالوا ان هذه الامواج الصاخبة مؤلفة من توججات ضئيلة ، بل من
قطرات صغيرة جداً لا يدرك لها صوت الا ان تتكسدس وتنمو فتسمع
لها هذا الدرر ، مفترضين ان مجموعة الاجزاء اعطت هذه النتيجة الكبرى ،
مستتجين ان للجزء الصغير نتيجة صغيرة . ورد عليهم خصومهم بان
النتيجة تقتضي مقداراً كافياً من الشدة ، فاذا تدانى هذا المقدار فتكون
نتيجته العدم تقريباً . مثال ذلك ضربة الابرّة التي تقع على قذيفة البندقية ،
فلو كانت اخف من اللازم لاثارتها لما بدأ اشعال البارود ، وهو لا ينفجر
الا دفعة واحدة بضربة كافية . اذن فقذار ما ياتقطه الوعي ليست كمية
تتراكم بل كيفية تنمو . وقد مثل العلامة برغسون لهذه الحالة بالمثل
الآتي :

حاول ان تطبق كف يدك وتشد بدون ان تريد في مقدار الشدة .
فاول ما تحس به هو تشنج في الذراع ، ثم يتد هذا الاحساس الى الكتف
فالظهر ثم يحتاج الجسم كله حتى يتعطل النفس . واكتفك لا تعي هذه
الحركات المتلاحقة ما لم تنبه الى ذلك لانه كان قد رسخ في ذهنك من
قبل ان تمة حالة وجدانية واحدة تنغير مقدارياً . والصحيح هو التغير في

الكيفية لا في المقدار
 ان الوجدان لأشبه شيء . بالنهر الذي يجري بدون انقطاع . فلا تتوهمن
 انه ينقطع في حالة الإغماء والنوم العميق ، ولكنه في هذه الحالة محتجب
 فقط . اما كونه يشبه مجرى النهر فليس ادل على ذلك من قواك
 لمن يعكر عليك تفكيرك اذا كنت آخذاً في نظم قصيدة او حل معضلة
 حسابية مثلاً : « اذهب يا فلان فلقد قطعت على مجرى افكاري » . وهذا
 المجرى يظل في توتر مستمر فلا تمر النقطة الواحدة في النهر الجاري مرتين
 لأن التي عبرت قد ذهبت الى البحر . وتتلاحق القطرات وتشابهه ، ولكن
 الواحدة منها ليست الاخرى عينها . وهذا الذي حمل الفيلسوف اليوناني
 هراكليت على القول بأنه لا يستجم الانسان مرتين في النهر الواحد ،
 فزاد عليه فيلسوف آخر بقوله بل لا يستجم في الماء الواحد مرة واحدة ،
 لان الموجة التي تكرر عايه في هذه اللحظة تختلف عن التي تليها في الدقيقة
 الثانية . وفي توجات الوعي هذه توجات ظاهرة يمكنك ان تلحظ عليها
 اسماً فتسميها فرحاً او غضباً او حزناً بحسب حالائك النفسية المتعددة . ولكن منها
 ما لا تستطيع ان تسميه ، فهو همزات وصل بين حالات مختلفة تتبخر
 وتطير في هذا الحضم المضطرب . وهي اشبه شيء بالصعاليك الذين يلتمسون
 بحاشية الملك تكسوفهم أهية الملك . وهما انطويت على نفسك
 وامعنت في الملاءمة ، فانت لا تستطيع تبين هذه الاشباح الوجدانية وتسميتها ،
 بل انك تهجز عن تسمية ما هو اوضح منها . فمن الاشياء ما تحسه
 وبتعذر عليك تبيانه . فكيف تستطيع ان تشرح للذات الفرق بين طعم
 العنب والبطيخ مثلاً ؟ ويجانب حالة الوعي الذي شبهناه بالنهر الجاري تقوم

حالة اخرى هي دون الوعي ويسمونها بالفرنسية (Le subconscient). فقد يكون الينبوع جارياً تحت الارض وبجانبه بقعة مشبعة بالرطوبة ينبت فيها القصب والصفصاف ، فتستدل بذلك على قرب الينبوع ، وتعلم ان هذه الرطوبة هي ما يرتشح منه . كذلك تلمح مسا دون الوعي لمحا غير واضح للبصيرة . فلو كنت مكباً على مكتبك تكتب مقالاً ، وجاءتك في تلك الساعة دعوة من صديق الى حضور حفلة عرسه في تلك الليلة ففرحت لهذا الخبر بدون ان تنقطع عن العمل فتصبح في موجة من الغبطة مع انك تكون قد صرفت همك الى تجميع المقال وتزعت من خاطر ك قضية العرس . اجل ان حالة الغبطة هذه هي دون الوعي

واهم من هذه الحالة حالة اللاوعي

فما هو اللاوعي وهل له في الحقيقة وجود ؟

ياملنا الاختبار انه قد يعرض للانسان مشكلة عقلية يحاول الوصول الى حلها ويجهد نفسه في ذلك فيستعصي عليه الحل في يقظته فينام ويستيقظ في اليوم التالي ، فاذا الصعوبات قد زالت والمشكلة قد انحأت على ايسر ما يكون . فن اين تأتي له ذلك ؟ وهل نزل عليه الوحي في اثناء نومه فانار هذه الدياميس التي استغلقت عليه في حال اليقظة ؟ كلا ليس هناك وحي ولا معجزة ، ولكنه اللاوعي قد فعل فعله في اثناء النوم على غير علم من صاحبه . وهكذا يتبين لنا ان هذه القوة الواعية تختلف درجاتها ، فندعوها في حالة وضوحها التام وعياً . فاذا انحطت عن ذلك ودخلها بعض الابهام سميناها دون الوعي . فاذا تلاشت وانحطت درجة اخرى بحيث لا تشعر بها كوجه البحر الصغيرة لا تسمع لها صوتاً على رقبم

وجودها ، مميّنة هذه الظاهرة اللاوعي . وهي كما قدمنا تكون على هامش الوجدان . والسبب في ذلك ان الانسان عملي . فاذا عرضت له خمسون حادثة في اليوم فلا يتنبه الا لواحدة او اثنتين منها ، ويجعل الحوادث الباقية على الاستيداع . غير ان هذه الاحالة لا تميّتها تماماً بل تطرحها في الظل اي في المستودع لان كل ما يمر بالانسان يسجل في هذه القوة الباطنة . والبرهان على ذلك ما يحدثك عنه بعض العرقى الذين انتشأوا من البحر . فانهم في اللحظة التي يهبطون فيها الى القمر يستعرضون ماضي حياتهم في بضع ثوان كأنهم يشهدون فلماً سينمائياً يعرض بسرعة البرق . وان هذه الافكار المطروحة الى حين تبرز من مكانها اذا اتيت لها الفرصة وتخرج من القبو المظلم الى الدائرة النيرة ، نتناول منها ما شئت . افترض ان مسافراً ركب القطار من بيروت الى صور لشأن هام ، فانه يلح في طريقه البساتين التي يشقها القطار ، وينشق عبر الرياض ، ويرى الشواطىء الساجية . وقد يبقى في معزل عنها جميعاً لانه صرف همه الى الشأن الذي سافر من اجله ، وطرح هذه المشاهد كلها في الزاوية المظلمة . ولكنه لو حاول بعد حين وصف الرياض او شاطىء البحر وايقظ خاطره ، جاءته هذه المناظر مليبة طائفة غير عاتبة عليه من اجل اهماله . اجل ان هذه الحواشي المهملة هي التي تغذي الذاكرة وتحيلها الى مخيلة مولدة ، ولها الفضل الاكبر على الشعراء والمشتغلين بالفن ، اذ انها ينبوع الذي منه يستقون . وقد كانوا الشعراء هذه الحواشي المهملة بان خلعوا عليها امماً جميلاً دعهه الالهام الذي يهبط عليهم من عل ، وليس هناك علو ولا سفلى . وانما الفضل يعود الى هذا الحزآن العميق الذي يدفع كنوزه الخفية غب الطلب وبدون

شكوى
 قال هنري يوانسكاره : « تحاول ان تقوم بعمل عقلي فيستعصي عليك فتستريح
 بعض الوقت ثم تعيد الكرة ففي نصف الساعة الاول لا تجد ما تروح
 اليه . ثم يأتيك الفكر بما تريد . وقد تنسب ذلك الى تجديد القوى
 بالاستراحة التي نلتها . والارجح ان اللاوعي كان يعمل في هذه الاثناء ، فلما
 عدت الى العمل تفجر وعياً ولباًك »
 ولا تنس اهمية اللاوعي في حقل العاطفة ، فهو الذي يحملك على
 حب شخص تراه للمرة الاولى ، او على كرهه بدون ما سبب . وهو الذي
 ينير اتجاهك وسلوكك على اثر كتاب تقرأه ، او منظر تشهده ، او حديث
 تأخذ به مع رفيق . فمن زعم انه لا يتأثر بشي . من هذا فهو في ضلال مبين .
 ان ما يهمله وجدانك الواعي يلتقطه اللاوعي الحريص . فهو احرض من
 النملة واكثر منها ادخاراً ليوم الحاجة . وهو نشيط لا يكسل ولا يتراخي
 فاذا انت ثمت فهو الكفيل ان يعمل لحسابك لا يتقاضاك اجراً ولا شكوراً .

الواجب الأدبي

قال شيشرون : ان في الكون نظاماً سرمدياً شاملاً معقولاً يأمرنا بالمعروف وينهانا عن المنكر ، لا يجوز خرقه او محوه او تبديله . وليس في استطاعة الشعوب والقضاة ان يخلوا شيئاً من روابطه ، وهو واحد في روما واثنين على اختلاف الامم والعصور ، ذلك هو الواجب .

وقالت حكمة الشعوب منذ فجر التاريخ افعل بالغير ما تريد ان يفعله بك الغير .

واذا نظرنا في اعماق وجداننا ادر كنا هذا الواجب ، لان الوجدان ينشر امامنا ما ينطوي عليه الضمير من خير وشر ، ويزن القيم بالميزان العدل ، ويقدر ويقرر ، وان هذا المبدأ الاخلاقي الذي يأمر بالخير ويشجب الشر هو غريزي في النفس . ولنضرب على ذلك مثلاً ايضاً لهذه النظرية :

افترض ان الاقدار جمعتك بصديق قديم في بلاد الغربة ، وقد أوشك الرجل ان يموت فاستودعك مبلغاً من المال لتدفعه الى ابنه الموجود في بلد آخر . ثم توفي هذا الصديق ولم يطلع على سره سواك ، وانت فقير . مدقع والمال في يدك وليس بينك وبين الغنى الا ان تكتم السر وتمتع النفس بالطيبات بدون ان تعرض نفسك لدعوى سوء الائتمان ، فاذا يقول لك العقل وهم يأمرك الضمير ؟

لا ريب ان هذا القاضي العادل يقول لك اعط المال مستحقه ، فاذا لم تفعل فانت سارق . فهو لا ينظر الى نفعك وفقرك رغبتك بل يأمرك امرأ مطلقاً لا قيد فيه ولا شرط ، فتقوم عندئذ في نفسك كراهية للشر وتحبب نفسك من نفسك اذا صرفت سمك عن هذا النداء . فاذا قاومت التجربة وانفذت وصية الميت فانك تعاو في نظر ذاتك ، وتشعر بغبطة حتى لترتفع الى عالم آخر من اللذة الروحانية : تلك هي لذة القيام بالواجب .

فاذا رضخت للتجربة وتملكت المال ، فعلى الرغم من هذا الغنى الذي تنعم به ، ومظاهر الذرف والأبهة التي تحيط بك ، يهتف في داخلك هاتف يقول لك انك شقي ظالم ، وتضطرم في احشائك ثورة ، ويجز في اعماقك الالم المدوي ، وهذا ما يسمونه وخز الضمير . وايس وخز الضمير والندم واحدا ، فان بينهما فرقا ظاهراً ، لان الانسان قد يلذعه وجدانه ولا يندم ، والنادم يحاول التكفير عما جنى لانه يظهر من الاثم ولنيل الغفران ، اما وخز الضمير فهو عقاب اصداره هذا القاضي العادل الذي لا يتأثر برشوة ولا بواسطة . وهو الوجدان الذي يصيح بنا ان هنالك شيئاً فوق ميلنا ونفعنا وهو الواجب .

اذن ينجم عن هذا النظام الادبي موجب يوجه ارادتنا ، ولكنه موجب غير مجبر كالموجبات المدنية التي تنجم من العقود وتقضي بها المحاكم العدلية . اجل ليس من قوة تستطيع اعفاننا من النظام الادبي ، ولكن ليس من قوة تحملنا على انفاذه قسراً .

ان اللذة تعترينا وتستهوينا ، والنفع يجذبنا ، ولكن الواجب وحده

يأمرنا . وزعم بعض الفلاسفة المتهوسين انه طالما ولد الانسان حراً ، فهو طليق من كل نظام . اجل ان الحرية حالت من القسر لا من الواجب الذي يتوجه الى عقله بدون تغيير ارادته . الحرية والواجب صديقان يتآلفان . ولولا وجود النظام الادبي لما كان للحرية معنى ، ولا يبقى حينئذ معنى للاختيار . فاذا تساوت السرقة والحسنة في القيم المعنوية فلم يختار الانسان الاحسان الى الفقراء . بدلاً من السرقة والاحتتيال ؟

كما انه لا معنى للنظام الادبي بدون الحرية ، اذ لو كان الانسان مجبوراً على عمل الخير لما بقي معنى للنظام الادبي الأمر .

ويتفرع عن ذلك ان هذا النظام يجب ان يكون معروفاً ، فاذا كان مبهماً استحال انفاذه ، وان يكون مستطاعاً لان الله لا يكلف نفياً الا وسعها .

والنظام الادبي نظام مطلق غير مقيد بشرط ، فلو انك نصحت للتاجر الفلاني ان يتجنب الغش والكذب لينال ثقة الزبائن ، لانه متى حسن صيته جاءه الكسب والشهرة وما يتصل بهما ، لكانت هذه النصيحة مقيدة بشرط : اصدق تنجح . اما النظام فهو مطلق اذ يأمرك بالصدق لمجرد الصدق بدون اي التفات الى المنافع والمذات . والنظام الادبي شامل لكل زمان ومكان وانسان ، لا استثناء فيه ولا هوادة . وهو ربط علاقة الطبيعة البشرية بغايتها الاخيرة السامية ، وبما ان هذه الغاية واحدة فالطريق المثلى اليها واحدة . ولو كان هذا النظام مبنياً على منافعنا الشخصية وميولنا ، لتغير بتغير الاشخاص والاقاليم لان ميولنا لا تستقر على حال . فان ما زاه اليوم نفعاً محضاً زاه غداً ضرراً محضاً . وان ما فيه نفعك فيه ضرر لبارك .

اما الواجب فلا يتعارض مع مصلحة احد . وانك تستطيع تعميم الخير ،
واكتنك لا تستطيع تعميم الشر بدون ان تقع في الفوضى والتناقض . فان
الذي ييحتال ويسرق لا يريد ان يفعل الآخرون فعله ، بل يبغى احتكار
هذا النوع من الشر على ان يظل الآخرون مقيدون بالنظام العام . وان اللص
لا يرضى ان يطرق للصوص بيته ويسرقوا متاعه . ومن مأثورهم ان الواجب
هو ما نطلب من الغير القيام به .

اما طبيعة الواجب ومادته ، فهي الخير ولكن ما هو الخير ؟ لقد
اجمع الناس قاطبة على وجود شيء يدعونه الخير يقابله في الناحية المعاكسة
شيء آخر يسمونه الشر . وبددبهي ان الاحسان خير والاقدام على القتل
شر . ولكن ما هو السبب في هذا الاعتبار ؟

يزعم بعضهم ان القتل يعكس صفو البشرية ولا يتلامم مع الغبطة التي
ينشدها الانسان في هذه الحياة ، لذلك فهو شر . ويزعم البعض الآخر ان
القتل مناف للعقل ومخالف للشريعة ، وهو يقود المجرم الى منة الاعدام .
وكل من هذه الآراء ينطوي على شيء من الحقيقة ، ولكن طبيعة الخير
فوق كل هذه الاعتبارات . ان الانسان مجموعة قوى وميول يتعذر ارضاها
جميعاً فهي في الغالب متناقضة لان الغريزة تدفع ، والشهوة تستهوي ،
والمطامع تنفخ من كل صوب . فلو استسلم الانسان لطبيعة يتبعها في كل ما
توحى اليه ، لآل امره الى الفوضى والدمار خصوصاً وهو غير مركب من جسم
فقط بل من جسم وروح . والروح هي الجزء الاسمى . وقد شبه افلاطون
الجسم بالجواد الذي يجر العربة والروح بالسائق . فاذا ترك العنان للجواد
السائر قاده الطيش الى المزالق الخطرة وافضى به الى الدمار . ان المرء
ينشد الغبطة وينمو في هذه الحياة ، ولكن هذا النمو يجب ان يسير متزاناً

منسجماً بحيث لا تطغى عليه القوى الحيوانية ، بل تظل خاضعة للجزء الاممي ، لهذا الحودي الذي يسيّر المركبة فيغذي الجواد ويرفق به ويدفع عنه الاذى ولكن لا يتركه يبطر ، ولا يرخي له العنان بل يجربه في طريق قويم . اذن فعلى الانسان ان يعيش وينمو ضمن دائرة النظام الادبي خصوصاً وانه يعيش في المجتمع . فاذا قامت في صدره ميول واطماع ، فان لغيره ايضاً مثل ما له من الحق فلا يكفل المساواة الا النظام الشامل . فكما ان الذئبة تعيش لنفسها وللجماعة فكذلك شأن الانسان . لذلك قالت حكمة الامم من زمن بعيد ان تقدم الجماعة لا يكون بسوى العدل والمحبة والاخاء . وهذه هي العوامل الفاعلة في بناء صرح السعادة ان وجدت السعادة على وجه الارض .

قلنا ان طبيعة الواجب هي الخير لان مميزات الواجب هي نفسها بميزات الخير ، فهو مطلق شامل لا يتبدل . اما مبدأ المنفعة والهاذة ، فلا يصح اتخاذه نظاماً ادبياً . فقد يكون نفعك ضرراً لغيرك على حد قول القائل : مصائب قوم عند قوم فوائد . وقد يكون سرورك كدراً لغيرك فاذا انت تقيدت بالنظام وقت بالواجب فانت كبير امام ضميرك . ولكنك مهما بلغت من الجاه والمال واقبل عليك الناس يمدحونك ويتلذذون اليك وكنت مجرمأ ، فان في قرارة نفسك عقوبة لك . فاذا لم تشعر بشيء من ذلك فان ضميرك قد تحجر ومات لكثرة ما راوده من الاثم وناله من سهام الشر على حد قول المتنبي :

تكسرت النصال على النصال .

ولنتظر الآن هل تقدمت الانسانية في المضمار الادبي ؟ زعم بعضهم

انها تقدمت بتقدم الاختراعات والعلم ، وزعم آخرون ان الفضيلة تقهقرت
وانحطت كثيراً عما كانت عليه في العصور الغابرة .

وفي الحقيقة نرى ان التقدم حصل في بعض نواحي الحياة ، فقد الغيت
العبودية ودواوين التفتيش وما كان يلقاه السجناء . من ضروب التعذيب وقتل
الاسرى الى آخره . ولكن التقدم الفكري لا يعني التقدم الادبي ، فقد
يكون اوفر الناس علماً وفضلاً . وليس تطور الشرائع وتوفير اسباب
الامن والرفاهية دليلاً على فضائلها .

وقد زعم بعضهم ان البشرية هي هي من الجهة الاخلاقية لم تتقدم ولم
تتاخر . فالميل والافكار التي كانت تجول في صدر آدم وحواء تجول
في صدر اولادهما ايضاً وعلى كل حال فان الجزم في حل هذا السؤال صعب
ولكننا نرجو ان يأتي اليوم الذي يشعر فيه الانسان انه ظل من العالم
الأسمى يسير وبصره الى فوق .

المسؤولية

في حديث سابق أماننا بالواجب الادبي وفي حديثنا هذا نبحث في نتيجته التي يتفرع عنها الاستحقاق او المسؤولية . فعن فكرة الخير نجم الواجب ، وعن الواجب تفرعت الحرية ، لانه لو لم يكن الانسان حراً لما استحق ثواباً او عقاباً .

ونظراً لهذه الحرية التي يتمتع بها ، فهو يستطيع خرق النظام ، ولكنه مسؤول عن هذه المخالفة، يتحمل تبعاتها ويؤدي عنها حساباً . والمسؤولية التي نعنيها هي المسؤولية الادبية لا القانونية وهي مقيدة بشرطين : اولاً ان يكون الفاعل حراً ، ثانياً ان يكون العمل واجباً ملزماً . وفي المسؤولية درجات ، لانه قد يطرأ على الارادة ما يضعفها او ما يلاشيها تماماً . فان المجنون غير مسؤول اما السكران فمسؤول عن تعريض نفسه للسكر الذي حمله على الاجرام . فهو اذا قتل او سرق وقد تلاشت ارادته فلا تنس انه اقدم على السكر حراً مختاراً ، وقد يساق المرء الى جنابة تحت تأثير الاكراه المعنوي ، مثال ذلك ان تهددك قوة غاشمة بانزال اشد النكبات فيك ان لم تقدم على الجريمة الفلانية ، فاذا تفعل في مثل هذا الموقف ؟ ان الوجدان يميل عليك الصمود في وجه العاصفة مهما كانت شديدة ولكنه موقف حرج فقد يفقد الانسان من شجاعته ويروضخ .

وهنا لا بد من النظر الى عظم النكبة التي عدد بها الفاعل والى درجة شجاعته وطبيعة مزاجه .

ولكن اذا نجم اخلالنا بالواجب عن عادة سيئة الفناها فاننا مسؤولون عنها لان المرء يحدد ما يزرع . ان الذي يقذف بالحجر الى الهاربة لا يستطيع رده عندما يهوي الى الاعماق مجتاحاً في طريقه ما يصطدم به من نبات وحيوان ، ولكنه مسؤول من دفعه الى المنحدر السحيق . وبدلاً من ان يكون التادي في العادة السيئة سبباً مخففاً يكون سبباً مشدداً . وكذلك هي الحال في القانون الجزائي فان الذي يكرر الجرائم تضاعف له العقوبات . والمسؤولية تزداد وتنقص بالنسبة الى درجة معرفة صاحبها فمن أعطي كثيراً يطلب منه كثيراً .

١٠١ في نظر القانون فلا يعذر الجاهل ، ولا يستطيع احد ان يتذرع بعدم معرفة النظام .

وفي المسؤولية الادبية يكون المرء مسؤولاً عن جهله الناتج عن الازمات . فان الطبيب الذي يسيء الى مريضه ، والصيدلي الذي يخطئ الدواء فيقتل العليل ، يتحملان تبعه جهاهما ، اذا كان سببه الازمات والكسل ، لان الواجب يقضي عليهما بالاستنارة والتعلم . وكذلك القول في جميع ارباب المهن . والانسان يتحمل تبعه اعماله الشخصية مبدئياً ، ولكنه يصبح مسؤولاً عن جريمة يقترفها غيره في بعض الاحيان ، كالتبعة التي تلحق الاب من ولده القاصر ، او التي تلحق السيد من اعمال اجيره ، او ناظر المدرسة من المخالفات التي يأتيها التلامذة المنضويين تحت ادارته . نقول هذا من باب التمثيل لا من باب الحصر لان المسؤولية الناجمة عن اعمال الغير واسعة

النطاق وليس هنا مجال لبحثها فانها داخله في المباحث القانونية المتشعبة
المذاهب والاجتهاد . ونقيض التبعة التي تلحق بنا عند خرق الواجب ،
الاستحقاق الذي نلناه اذ نؤدي رسالتنا الانسانية كاملة فتسير في طريق
الكمال والمثالية . وفي الاستحقاق كما في المسؤولية درجات وفروق فيس من
يجازف بجيانه في سبيل انقاذ الاطفال من الحريق اذا شبت النار في مدرسة
مثلاً ، كالغني الذي يتبرع ببضع ايرات لانشاء ميمم ، خصوصاً اذا كان هذا
التبرع سلباً الى الشهرة الفارغة وهو ما يجري في الغالب . وانما الاعمال بالنيات

شروط الاستحقاق

زعم بعض المفكرين ان الانسان اذا تطوع لعمل خيري غير واجب
كان اكثر استحقاقاً واكتمها نظرية تصدق من وجوه ويعتبرها الخطأ من
وجوه اخرى . فان الذي يحسن الى فقير ويتبرع من ايفاء دين مستحق
عليه لا يأتي عملاً مشكوراً
ويؤم الفيلسوف كنت (Kant) ان الثواب يجب ان يكون على
قدر المشقة ، وهذه نظرية اخرى صحيحة من جهة ، فاسدة من جهة اخرى .
فان العمل الذي يؤدي بمحبة وحسن نية قد يكون اجدر بالمكافأة من عمل
شاق لم تتوفر فيه حسن النية والعاطفة النبيلة .
وفي الحقيقة يجب ان يتعادل الثواب مع مقدار الخير الذي ينطوي عليه
العمل ، ومع مقدار الجهد الذي اقتضاه .
فلو فرضنا ان حريقاً شبت في قرية ، وتطوع الناس لانقاذ المنكوبين
فانبرى من بين الجمهور رجل وامرأة خاضا السنة الالهيب حتى بلغا الطلقة

العليا من البناية المحترقة ، ثم عاد الرجل يحمل على يديه طفلاً انقذه من الجحيم المضطرب ، لما كان اكثر استحقاقاً من المرأة التي تعذر عليها انقاذ طفل آخر لانها لا تملك رباطة جأش الرجل ولا عضلاته الفولاذية ، ولا قلبه الجري . . . ويذكرنا هذا بفلس الأرملة التي قال عنها الانجيل انها جادت بكل ما عندها . ومن كان عصبي المزاج غضوباً وملك نفسه كان اوفر اجراً من اخيه الهادي . الناعم الحواشي .

وهنا يفضي بنا البحث الى تعريف الفضيلة . وأصح تعريف لها انها التمرس بالاعمال الصالحة حتى يكسبنا هذا التمرس عادة القيام بالواجب . اذن فالفضيلة تفترض العادة لتصبح ملكة ، لانها مآثرة واحدة منفردة يأتيها الانسان تحسب عملاً جديراً بالشواب لا فضيلة ، فكما ان المرء لا يعد سكيراً اذا سكر مرة واحدة فانه لا يحسب فاضلاً بعمل واحد منفرد . وكذلك التاجر في نظر القانون فهو لا يحسب تاجراً الى ان تتكرر الاعمال التجارية التي يقوم بها .

ولا بأس ان نلتفت الى العصور الغابرة لتبين رأي الاقدمين في الفضيلة . فقد زعم سقراط ، وتابعه على هذا الرأي تلميذه افلاطون ، انها علم الحير وان الرذيلة هي الجهل لان الانسان يسعى بطبعه الى السعادة . فاذا لم يتخلق بالفضيلة فلغباوته ، اذ لو كان متعلماً مستنبهاً لما اقدم على الشر فالذي يسرق يقدم على السرقة باعتبارها خيراً لا شراً . والفضيلة جميلة جذابة فحسبك ان تدل الانسان عليها ليدرس على ميوله الشريرة ويهرع الى هذه الملكة الرائعة يستظل بظلها . ولم يكن هذا رأي القدماء . فقط بل تابعهم عليه كثيرون من المفكرين والادباء في العصور الاخيرة ومنهم

فكتور هيغو (Victor Hugo) النايل : من فتح مدرسة اقل سجنًا .
ولكن الواقع يثبت ضلال هذه الآراء فقد تعممت المدارس في السرقة
والعرب ، وافضت النتائج الى ازدياد عدد المجرمين بل اصبح الجناة يتفنون
في الاجرام .
واني بصفتي قاضياً متقاعدأ قضى ست عشرة سنة في سلك القضاء اللبناني
استطيع ابداء رأبي الشخصي في الامر . فقد لاحظت ان في النواحي التي
يسود فيها الجهل تكثر حوادث القتل والجرح والسرقة وتقطع الاشجار ،
اما في النواحي التي يكثر فيها المتعلمون فتكثر دعاوى الاحتيال وسؤ
الائتمان والتزوير والنهرب من ايفاء الدين وتهريب اموال المديون بطرق
شتى ومن هذا النوع الاخير الافلاس الاحتياالي .

لانكير ان العلم اذا رافقه وجدان نقي يردع صاحبه عن السيئات .
وقد يعترف الانسان ذنباً لو ادرك فظاعتهما لما اقترفها ، ولكن الضمير
القوميم هو الاساس في الفضيلة واقدم اصاب الشاعر القائل :

لا ترجع الانفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر
فانه لمح بذلك الى قوة الارادة . وفي الحقيقة ان للارادة الشأن الاكبر
في الفضيلة . وان افلاطون الذي ضل في تعريفها من جهة ، قارب الحقيقة
من جهة اخرى ، اذ قال : انها عافية النفس وانسجامها . اما ارسطو فقد
عرفها بقوله : انها تعود الخير والتزام الحد الوسط ، فالافراط في الاكل
مضر كالصوم الطويل . وفضيلة الاقتصاد هي وسط بين البخل والاسراف ،
والشجاعة محودة وهي وسط بين الجبن والتهور . غير ان ارسطو وهو
الحكيم الكبير قيد هذا الوسط بقيود تختلف باختلاف ظروف المكان

لمحات في الفلسفة

والزمان والاشخاص ، فالوسط الذي يعنيه هو ان يسير الانسان نحو الكمال في طريق سوي ، لا يجيد عنه عينة ولا يسرة . اما تفسير بعضهم لقوله ان يبقى الانسان مترجماً بين الخير والشر فهو تفسير مغاوط . اما قوله انها عادة فلا يفيد انه يقصد بذلك التقايد الاعمى والعمل الميكانيكي ، فيجب ان تكون الفضيلة مقرونة بالمعرفة وان تمارسها بل الرضى والارتياح لا يجبراً عليها كما يجبر المريض الدواء الكره ويحتمل مرارته بغية الشفاء . يبدو لنا من كل ما تقدم ان عمل الخير يقتضي ثلاثة امور : ان نعرفه ونحبه ونجتاز العقبات التي تعترضنا في انجازه . هدايا الله جميعاً سواء السبيل انه مصدر الكمال والخير .

والاشخاص ، فالوسط الذي يعنيه هو ان يسير الانسان نحو الكمال في طريق سوي ، لا يجيد عنه عينة ولا يسرة . اما تفسير بعضهم لقوله ان يبقى الانسان مترجماً بين الخير والشر فهو تفسير مغاوط . اما قوله انها عادة فلا يفيد انه يقصد بذلك التقايد الاعمى والعمل الميكانيكي ، فيجب ان تكون الفضيلة مقرونة بالمعرفة وان تمارسها بل الرضى والارتياح لا يجبراً عليها كما يجبر المريض الدواء الكره ويحتمل مرارته بغية الشفاء . يبدو لنا من كل ما تقدم ان عمل الخير يقتضي ثلاثة امور : ان نعرفه ونحبه ونجتاز العقبات التي تعترضنا في انجازه . هدايا الله جميعاً سواء السبيل انه مصدر الكمال والخير .

الوجدان الأدبي

وضعنا عبارة الوجدان الادبي عنواناً لهذا الحديث تمييزاً له من الوجدان البسيكولوجي، لان الوجدان البسيكولوجي هو الوعي المسجل لاعمالنا، اما الادبي فلا يقتصر على التسجيل، ولكنه يقف منا موقف القاضي الذي يقرر ويحكم، فتعتم علينا بعد ذلك ان نبين اساس هذا الوجدان وطبيعته. من البديهي ان يميز الانسان بين الخير والشر، فان اعمالنا ليست سواء في ميزان التقدير، فمنها الصالح الجدير بالثواب ومنها السيء الخليق بالعقاب. والوجدان هو هذه القوة المميزة الكامنة في نفوسنا. وترى المفكرين مجمعين على هذا الرأي، ولكن الجدل العنيف يحدث فيما بينهم عندما يحاولون تحديد منشأ وطبيعة هذا الوجدان.

فلقد زعمت طائفة منهم وهي فئة الفلاسفة التجريبيين (Empiristes) وهم الذين يدينون بالاختبار وحده، ان هذا الوجدان نشأ عن المعادات والتقليد والتربية والشرائع البشرية. ولقد زعم قداماؤهم ان العدل هو ما يرضي القوي. اما المصريون منهم امثال الفيلسوف سبنسر (Spencer) فقد زعموا ان العدل هو حق القوي ركزه العنف ومكنته العادة، وقدسه الزمن. اما مفكرو القرن العشرين من هذه الطائفة التجريبية، فقد زعموا ان الوجدان يتركز على الانظمة الاجتماعية، فليس هنالك خير وشر الا ما قررت النظم والشرائع انه كذلك. فان ارتكاب جرم لا يجرح

الوجدان لان الجرم شنيع بحد نفسه . ولو لم تكن الانظمة والشرائع قد حرمت ذلك لما شعرت بوجود جريمة . وقد نلل هؤلاء الفلاسفة لنظريتهم فقالوا : كانت اعمال الانسان القديم اي المتوحش متساوية في نظره اذ كان يعمل مدفوعاً بعامل الغريزة التوافق الى البقاء واللذة . ثم علم هذا الوحشي بعد اختبار طويل ان اللذة الموقته تكلفه ثمناً غالياً ، فحاول ان يرجئها ويطيل في أمدها ، وهذا ما يسوونه بالمنفعة لانها اجدى واثبت ، فاخذ الآباء ينهون الابناء عن اتيان العمل الفلاني لانهم اختبروه فوجدوه وخيم المنفعة . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فان قادة الشعوب رأوا في اتباع النظام وفرض السنن فلاحاً لهم وللأمة التي يحكمونها ، فملقوا الثواب على بعض الامور والعقاب على افعال اخرى حسبوها مضره .

فلذلك زى اليوم وبعد مرور العصور ان بعض الاعمال موجهة جديدة بالاستحقاق والمكافأة والبعض الآخر قبيحاً . فنجد ميلاً للاولى وكرهية للثانية . وهكذا نمت فكرة الوجدان الادي وتطورت على الزمن بحكم الوراثة والتقاليد مختلفة باختلاف الاقليم والبيئة .

ولكن في هذا ارأي كثيراً من المغالاة ، لان الوجدان الادي موجود في الطبع الانساني . اما النظم والتقاليد الاجتماعية فقد اثبتته واثبتته فينا ولكنها لم تخلقه خالقاً . فكما ان درس العروض والتمرس بقن الرسم لا يصير الانسان شاعراً ولا سيداً من اسياذ الفن اذا لم يكن موهوباً ملهماً بفطرته ، فكذلك التربية والنظم الاجتماعية لا تخلق الوجدان الادي في المرء ، فضلاً عن ان الشرائع المدنية لا تنال الا الافعال الخارجية . ولكنها لا تنال الافكار الخفية ، فهذا الصعيد حرام عليها . ولقد صدق سوفوكل

(Sophocle) حين قال : ان هنالك شريعة إلهية غير مكتوبة وهي ليست منذ اليوم ولا الامس بل منذ الازل . فالوجدان الادبي وليد العقل وهو مطلق شامل محتوم على كل انسان . ورغم جزم الاختصاصيين في المسائل العقلية بأن هذا الوجدان مفقود عند بعض الاشخاص ، فالشواذ لا ينفي وجود القاعدة ، كما ان وجود العميان لا ينفي ان للانسان عينين يبصر بهما .

واكن ما هي قيمة الوجدان الادبي ؟

يزعم بعض المفكرين ان الوجدان معصوم من الخطأ فيعتبرونه بمثابة الوحي الالهي يلي علينا واجبتنا ، وينير امامنا السبيل فلا نقع في الضلال ابداً . واكثر هؤلاء تطرفاً جان جاك روسو القائل : « ايها الوجدان ، ايتها الغريزة الالهية والصوت السماوي والدليل الذي يهدي الانسان الجاهل المحدود ، العاقل الحر معاً ، انت القاضي المعصوم الذي يجعل المرء شبيهاً بالله . » وفي رأي روسو وامثاله كثير من المبالغة لاننا طالما شاهدنا الوجدان عرضة للتغيير والتناقض ، يعميه الضلال وتستهويه الشهوة . وهو يكون في بعض الاحيان صامتاً او حائزاً لا يدري كيف يسير . فلو سلمنا بهذه النظرية المتطرفة لما بقي للتعلم من لزوم طالما ان الوجدان معصوم .

وتقوم مقابل هذه الآراء التي تؤله الوجدان ، آراء معاكسة تساويها في التطرف ، فترجم ان لا وجود له الا بفضل التقاليد . ويقول انصار هذا الرأي لو كان الوجدان في الطبع البشري لوجب ان يكون شاملاً كالطبيعة نفسها . ولو صح انه وليد العقل لوجب ان يكون واحداً في كل الشعوب ، وفي مختلف العصور . والواقع يظهر لنا انه مفقود في الأمم المتوحشة ، فان بعض القبائل مثلاً تشجع السرقة والقتل ، وفي بعضها يقتل الابناء

آباءهم الشيوخ العاجزين عن الكسب والصيد . اما في الشعوب المتمدنة فكان الاستعباد والتعذيب من الامور المشروعة ، واليوم اصبحت جرائم . وقيمة بعض الاشياء في بلد تتغير في بلد آخر ، فابراز كان محلاً في ناحية من نواحي المعمور . وكل ذلك يدل على تغير الوجدان .

اجل ان الوجدان يتبدل بتبدل الزمان والمكان ، ولكن هنالك نقاطاً ثابتة منذ البدء لدى سائر الامم حتى لدى اعرقها في المعجبة وهي نقطة التمييز بين الخير والشر .

اما التغير الذي ذكرناه فسيببه اختلاف درجات الرقي في الامم وتشعب العادات وطبيعة الاقليم ، وعوامل اخرى عديدة توجه المرء في سبيل وتصرفه عن آخر . ففي بعض الاقاليم المجربة مثلاً ، حيث يجثم العقور ويرقع الشقاء ، تنحصر جهود السكان بامر تأمين المعاش سواء كان ذلك بطريق الصيد او الغزو ويكون اذ ذلك افضلهم اشدهم همة في القتال ، وامهرهم في الرماية . فاذا قتلوا آباءهم العاجزين عن حمل السيف وتسديد السهم ، فانما يفعلون ذلك من الإملاق والنقر . ولكن هذا الشذوذ والخطأ في التطبيق لا ينفي القاعدة . فلو ان حاسباً جمع اربعة الى اربعة فقال انها تسعة بدلاً من ثمانية ، لما أثر هذا الخطأ في صحة القاعدة التي تجزم بان الاربعة مجرعة الى اربعة تساوي ثمانية .

وبعد ان عرضنا النظرتين في تقدير الوجدان الادبي ، نقول ان افضل الآراء في هذا الشأن ، رأي القائلين ان الحقيقة في الوسط ، فليس الوجدان معصوماً كما انه ليس وليد العادة والتقليد ، فهو يرشدنا الى الطريق الاضرب ويدلنا الى الخير والشر عندما يتكلم العقل وحده . وهي على كل حال

هداية نسبية تختلف باختلاف الأشخاص والثقافة . واكتننا نعلم ان في داخلنا قوى غير العقل وهي تتكلم . ان السائر في طريق سوي معبد قلماً يضل ، واكتنه يصبح عرضة للضلال عندما يبلغ مفترق الدروب وتتشعب لديه السبل . ان في الانسان ميولاً وشهوات تضعه على مفترق الطرق ، ومن هنا يبدأ الزلل . ويتفرع على ما قدمناه اشياء كثيرة فيكون الوجدان جاهلاً ، وهو ما يكون في الصبيان القاصرين او المختلي العقول ، او مستقيماً وهي استقامة نسبية لان العقل البشري ليس كاملاً فالكمال لله وحده ، او مترجحاً بين الشك واليقين فيما يقول ويفعل . وعلى الانسان ان يعمل بما يشاء يوحى اليه ضميره ، فاذا اخطأ فيشفع به حسن النية واكتنه اذا فعل العكس فاذا يشفع به . ولكن ذلك لا يعفيه من الاستنارة برأي من هو اعلم منه فان العناد والادعاء كلاماً خطأ . والاسترشاد واجب على المرء لانه عرضة للزلل كما قدمنا . فاذا خامر وجدانه ادنى شك تحتم عليه ان يستشير ائمة يزل ويحل بالنظام . فاذا كان في القضية التباس بعد درسا وتخصيها وجب عليه ان يأخذ برأي الارجح . فان تروى بعد ان ألمنا سراً بدرس الوجدان الادبي انه موجود في طبيعة البشر رغم تبدله بتبدل المكان والزمان ، وان الانظمة والتقاليد لا تخلقه خلقاً بل تثبتهم وتوجههم في سبيل ان لم يكن هو السبيل الامثل فهو على الاقل السبيل الاقرب الى المثالية والكمال .

المخير الاسمى

ان نقطة الارتكاز التي يدور عليها بحث الاخلاقيات فتوجه سلوك الانسان في هذه الحياة ، موقوفة على الغاية التي يرمي اليها ويجعلها هدفاً اخيراً . فمن اراد الذهاب الى مدينة حيفا مثلاً اتجه من بيروت الى الجنوب ، اما من كان يبغى الوصول الى دمشق فيسير في طريق الشام ، وكذلك هي الحال في الاخلاقيات . فمن الفلاسفة من يرى الخير المطلق في الغايات العقلية الروحانية السامية ، ومنهم من يراها في الامور الحسية ، اما الفريق الثالث فيرى الخير كله في المنفعة . اما مبدأ اللذة فهو متفرع على مبدأ النفع . وقد توهم الناس ان المفكر ابيقور (Epicure) هو حامل لواء القائلين بوجوب اتباع اللذة ، ولكنها تهمة خاطئة نغندها في مجلدنا . صاحب هذا الرأي هو في الحقيقة ارستيب (Aristippe) الذي وجد في القرن الرابع قبل المسيح ، وتلمذ اسقراط ، ولكن اتى له ان يكون كعلمه الخالد الذي مات في سبيل الحقيقة ، لم يلوث جبيناً ، ولم يأت فرية فقد كان أبا الفلاسفة ولما يزل . ومذهب ارستيب هذا ياتل نظرية جميل صدقي الزماوي حيث يقول :

لا تقف قدام لذاتك مكحوف اليدين . انت لا تأتي الى دنياك هذي مرتين
 زعم هذا الفيلسوف اليوناني ان الخير كل الخير في اللذة ، وان الشر كل الشر في الألم . فالحكمة عنده تقوم بانتهاز الفرصة بدون تأجيل الى الغد ، وبدون النفات الى النتائج التي تنجم عن لذة الحس . ويتفرع على ذلك ان قيمة العمل في نظره تتناسب مع مقدار اللذة الناجمة عنه ، وان الغريزة هي دليلنا

الصادق فعائنا ان نستسلم للطبيعة نميل معها حيث شئت لانها مصدر الحكمة والغبطة وقد لقيت هذه الفكرة كثيراً من المؤيدين في اوربا، سواء في القرون الوسطى او في القرون الحديثة . فزعم فورييه (Fourrier) احد مفكري القرن التاسع عشر: ان الواجب فرضته البشر اما اللذة فصدرها الله . اذن فيحسن بنا ان نطيع الله لا البشر وان نشبع هذه الميول لا ان نخنقها . وفي هذه الآراء من السخف والضلال شيء كثير . فهم يزعمون انهم يلبون ندا الطبيعة ، والطبيعة نفسها تكذبهم لان الانسان ليس فقط مركباً من جسد حيواني بل من نفس سامية لها غاية عليا وغبطة روحية . فاذا نحن تركنا للحيوان عنانه فقد حَكَمْنَا الادنى بالاعلى ، فضلاً عن ان اللذة في الحيوان نفسه ليست غاية بل واسطة للعيش وحفظ النوع . ثم ان بعض الآلام نافعة للانسان ، فان المريض يختار الدواء الشافي ولو مرراً . واذا انطوى الانسان على نفسه وجد في قرارة ضميره ما يغير هذه النظرية الخطرة . فقد يندم المرء على فرصة لذة فاتته ولكنه لا يشعر بوخز الضمير الذي يحس به عندما يأتي عملاً سيئاً . وقد يغتبط اذا كان في وليمة فاخرة ولكنه لا يحس بارتفاع نفساني غب تليذ حواسه بل بالآكل والشرب بل يشعر بهذا الارتفاع عندما يأتي عملاً مشكوراً ، كأن يتحف الانسانية باكتشاف يخفف من آلامها او يحل مشكلة علمية يعمل فيها العقل عملاً مجدياً . وانك لا تجد مبدأ اللذة الصفات التي تجدها للنظام الادبي فلا هو مبدأ موجب ولا هو شامل فضلاً عن تغيره بتغير الاشخاص فان ما يسرك يبيي . الى غيرك . ويشترط في المبدأ والنظام ان يكون مستطاعاً عاماً ، فكيف يستطيع الفقير مثلاً ان ينعم بمثلت الحواس وهو الى الخبر احوج منه الى كل شيء . آخر ؟ وكيف يتجمع

بها المريض المتهدم ، او الشيخ الهرم ؟ اما عن عواقبها الوحشية في امراض النفس والجسد فلا تسأل . هذا فضلاً عن ان الحياة الاجتماعية تصبح مستحيلة اذا كان الانسان يسعى للثمنم بكل الطرق ، لانه يستبيح اذ ذاك القتل والسرقة وسواهما في سبيل غايته حتى ليصبح اضرى من الوحوش واعدى من الكوااسر . اما مذهب ابيقور (Epicure) فهو يختلف عن هذا المذهب انه يقول بوجود الفناعة والفضيلة ولكنها فضيلة ظاهرة مبدؤها المنفعة . فايقور يقدر مبدأ اللذة ولكنه لا يدين بالفريرة العمياء والميل مع الطبيعة ، بل يعلم بوجود اختيار اللذة التي لا يعقبها ندم او بلية فينصحك بتجنب اللذة التي تحرك من اكبر منها ، ولا يرى ضرراً بتحمل بعض الالم الذي يعقبه السرور او المذي يتقدنا في المستقبل . من الم اشد . ويؤزم انه يجب التوفيق بين سرور النفس وسرور الجسد وبأمرك بازوم الفطنة والاعتدال ومعاملة الآخرين بانصاف ورفق ليعاملوك ايضاً بالمثل .

وقام بين مفكري القرن التاسع عشر تلميذ شهير لابيقور هو الفيلسوف الانكليزي بنتام (Bentham) فقد وضع المبدأ الآتي فقال : كل انسان اناني بطبعه فعليتنا ان نعرف كيف ننظم هذه الانانية ، لذلك فهو ينادي باللذة النافعة اي انه يعتنق مبدأ المنفعة ويقوم حسابه على هذا الاساس فيريد ان يسعى الانسان الى اقصى اللذة ببذل اقل العناء . فيصحي بسرور حاضر لينال او فر منه في المستقبل . ولكن هذا الفيلسوف رغم اتخاذه المنفعة الشخصية اساساً فانه يقول بوجود الترفيه عن الآخرين ايضاً ، ويتهم الانسان مخلوقاً اجتماعياً يفلح بفلاح الجماعة التي يعيش فيها كما ان السعادة تسئل لنفسها وجماعة النحل ايضاً . فاذا فرح الانسان بفرح قريبه

وعارونه على دفع النكبات فان اعماله كالشعاع تنعكس على الآخرين ثم تعود اليه كما ينعكس الضوء على المرآة. والتضحية في سبيل الفكر اناية ولكنها اناية نيرة بصيرة . اذن ايكون الانسان كما يصوره بنتام آلة مفكرة تعمل في سبيل آلة اخرى هي آلة اللذة ؟

انا زى في بادى الامر وجوهاً متشابهة بين مبدأ اللذة ومبدأ المنفعة ، فكلاهما اناي يرمي الى السرور . غير ان الاول مبدأ حيواني أعمى ، والثاني يرتكز على المقارنة والتفكير . يقول لك الاول عاقر الحمر ينشرح صدرك ويفتح خيالك ، اما الثاني فيقول لك عاقر الحمر ولا تكثر لئلا تضرب معدتك وتسيء الى كبديك . ولكن مبدأ المنفعة ولو كان معقولاً فهو لا يسمو بالانسان كثيراً لانه يصح ان يكون ارشاداً ونصحاً لا ابراً موجباً . فانت عندما تنصح للتاجر الفلاني ان يكون صادقاً في المعاملة ، وان يرضى بالربح القليل لتنمو بذلك تجارته ويصبح غنياً ، تكون قد اوضحت له سبيل المنفعة ، ولكنه يستطيع نبذ النصيحة والاستغناء عن التجارة كلها والانصراف الى التصوف مثلاً بدون ان يفقد شيئاً من انسانيته التي هو بها انسان . هذا فضلاً عن انه يتعذر تعميم مبدأ المنفعة لاختلافه باختلاف الاشخاص والاذواق . فمنفعة مدير العمل تقوم بانتظام العامل من الاجر ما يمسك الرمتق ، ومنفعة البائع تتناقض مع نفع المشتري . ثم ان في هذا المبدأ من الخطر ما لا يخفى على البصير . فالرجل الصالح الشهيم الذي يأتي به اعمال لا تعود عليه بالنفع ، هو فبي في نظر هذه الطائفة من المفكرين . اما المحتمل المزور الذي يقوم بدور اللصوصية على الوجه الاكمل ويصبح صاحب قصور ومزارع ، فهذا الرجل الالمعي جدير باحترام بنتام واضرايه من المنادين بمبدأ

المنفعة . ان في اعماق وجداننا همساً يدلنا على فساد هذه النظرية . فقد تمد يدك مهتماً الرجل الاناني الذي جازف فربح واحاطه ذروه بمجالي التكريم ، ولكنك اذا خلوت بنفسك واستشرت هذا القاضي العادل الذي هو ضميرك ، فانك لا تشعر بما يملك على احترام هذا الشخص . ولكنك تحترم رجلاً كسقراط كان يمشي حافياً في اسواق اثينا وليس لديه الا ما يسد به الرمق وقد مات في سبيل الحقيقة ولم يشأ ان يهرب من السجن - مع ان طريق الانقاذ تيسرت له - احتراماً للقانون ولئلا يكون هربه سابقة للتخلص من النظام . هذا برغم ان الحكم القاضي باعدامه كان حكماً جائراً . عبثاً حاول ابيقور وبتنام اقناع البشرية انهما يبشران بالفضيلة ، فالفضيلة التي اساسها المنفعة أوهى من خيط العنكبوت . وهي لا ريب زائلة بزوال النفع . وان الانسان الذي لا يرتفع عن مبدأ اللذة الا الى درجة المنفعة ، لا يسير شوطاً بعيداً في السمو . فان الشاب الذي تنصح له بان يعتدل في الشراب لئلا يحرم نفسه منه في الغد بسبب التخممة مثلاً ، يستطيع ان يجيبك بسهولة انه لا يضمن حياته الى الغد . فبدأ المنفعة اذن مبدأ غير ممكن . وليس ادل على ذلك من المصير الذي بلغه تلامذة ابيقور نفسه ، فانهم لم يحفظوا من تعاليم المعلم الا امر بوجوب الاعتدال والقناعة شيئاً بل تفلتوا من هذه القيود الواهنة وتدحرجوا الى حضيض ارستيب ، زاعمين ان لا لذة الا لذة الجسد وخصوصاً لذة البطن لانه اقرب شيء الى فلسفة الطبيعة . وان عمل هؤلاء التلامذة هو الذي خلع على فلسفة ابيقور السمعة السيئة التي عرفت بها عند عامة الناس .

المحبة

في هذا العصر الذي تجبرت فيه قلوب البشر فتدنّت القيم الروحية حتى أصبح الانسان آلة في نظر اصحاب الآلات يقدر بقدر انتاجه ، في هذه الحقبة من التاريخ التي يسأل فيها كم يساوي فلان ؟ فيجاب انه يساوي كذا من النقود ، اي ان لا قيمة له الا بما يدخر من مال ويملك من عقار ، في هذه الايام التي ضلّ فيها المفكرون فاشاروا ببادئة الضمنا . والاحتفاظ بالاقوياء ، بغية تحسين النسل ليدفع بهذا النسل الى ساحات الوغى فيذبوب في غمرات النار ، نرى ان نتكلم عن المحبة . والمحبة لا تقتصر على احترام حق القريب وعدم الاساءة اليه في ماله وشخصه ، بل تقتضي ان نبذل في سبيله المال والوقت ، محولين على ذلك بدافع القلب . فاذا كان في الهيئة الاجتماعية سعدها ينعمون بالاطياب مسرفين ، فان الطبيعة تأبى ان يموت الفقراء جوعاً ، فيكون آخر ما يطبقون عليه الاجفان . منظر هذا الفتات المتساقط عن موائد الاغنيا . وقد كان لهم به كفاف يسك روقهم لو لم يحل بينهم وبينه . ولا يكون المسيحي مسيحياً الا بإقامة احكام الانجيل الطاهر حيث يقول : من سقى احد اخوتي هؤلاء الصغار كأس ماء بارد باسمي ، الحق اقول لكم ان اجره لا يضيع . فعلى الغني مساعدة الفقير ، وعلى العالم تنوير الجاهل ، وعلى الفاضل ان يكون قدوة صلاح للاشرار . وبهذا تتم الالفة بين البشر ، وتكون الهيئة الاجتماعية عائلة كبرى يشد بعضها ازر الآخر . وان واجب المحبة هذا ليس واجباً اختيارياً فان جريمة الانسان الذي يترك قريبه فريسة الجوع وهو قادر على اغائته ، وجريمة المرء الذي يسرق قريبه ، سواء في نظر المحبة وان لم تتساويا في نظر القانون .

وفي المحبة درجات اولها ان تكافي الجميل بالجميل . ومن هذا القبيل ما
 تقوم به من الوفاء لذوي القربى والاصدقاء الذين اسبغوا علينا من فضلهم
 فنعام لهم بالمثل ويسمى هذا النوع من الوفاء عرفان الجميل . وثانيها ان نحسن الى
 الغرباء الذين لا يربطنا بهم سابق معرفة وهذه هي المحبة بمعناها الصحيح .
 وثالثها ان نقابل الشر بالخير عملاً بقول الانجيل : احبوا اعداءكم ،
 وهذا منتهى الكرم والتفاني ولا تبلغه الا النفوس التي تحنفت من ادران
 هذا العالم فجاوزت المنطقة الموبوءة الى دنيا جديدة بقيت وستبقى حراماً على
 غير الفئة المختارة . وبين المحبة والعدل فروق ، فالعدل يوحى باحترام حق
 الغير اذ تعطي ما لتعير ليعصر ، ولكن المحبة تقضي بان تعطي من مالك
 ليعصر . يقول لك العدل لا تفعل بالناس ما لا تريد ان يفعله بك الناس ،
 اما المحبة فتقول افعل بالناس ما تريد ان يفعله بك الناس . يقول العدل
 فلترحم الزانية ، وتقول المحبة من كان منكم بلا خطيئة فليرحمها بجبر ،
 اذهبي ايتها المرأة ولا تعودي الى الخطيئة . يقول العدل من اعتدى
 عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وتقول المحبة وان تعفوا فهو
 اقرب للتقوى .

ان المساراة اساسها العدل ، اما المحبة فاساسها الاخوة . فانما الانسان
 اخو الانسان شاء او اجي ، ولكنه الشر زين لقايين قتل هابيل .
 ولكن لكل شيء حداً والمحبة ايضاً حدوداً . فان العدل مجبر ، والمدائن
 اكراه مديونه على دفع حقه . ولكن مستحق الاحسان لا يستطيع اكراه
 المحسن على التصديق ولولا ذلك لاستجلب السارق المسروق اذ يرى في ذلك
 استيفاء لحق منسوب .

ولا ريب ان العدل والمحبة لا يتنافيان ، بل يشيان جنباً الى جنب ،
ويكمل احدهما الآخر . والمحبة تنطوي على العدل لكنها ارحم منه واكثر شمولاً .
قال ارسطو ابو الفلاسفة : ان المتحابين في غنى عن العدل لانهم
يتنافسون في عمل الخير ، ولا مجال للشر بينهم . وهذا كلام لا يحتاج الى
برهان . فلو عمت المحبة الناس ، لما كان للمحاكم من وجود على الارض ،
لان سبب وجودها هو ما ينشأ بين الناس من الخصومات . ولو أنك
تحررت السبب في النزاع الذي يقوم بين الافراد ، بل بين الامم ، لرأيت
سببه ضياع شريعة المحبة تحت اقدام الانانية والمطامع والشهوات .
قلنا ان العدل . مكمل للمحبة وهو قيد لها اذا حاول صاحبها الخروج
عن الحد المقبول . فلو فرضنا ان مديوناً بذّر امواله في سبيل انشاء ميمم
او مأوى للعجزة ، ورفض اداء ما عليه لدائته لارتكب خطأ جسيماً ،
وان العدل ليحول دون هذه المحبة الناقصة . وكذلك القول في رجل لا
يملك من المال الا ما يقيم به اورد عائلته فيتصدق بهذا المبلغ على الفقراء وية ك
اولاده عرضة للبهوس والارزاء ، وان العدل ليحول بينه وبين هذا الضرب
من الجنون ، فقد جاء : ابدأ بنفسك اولاً ثم بمن تعول .
وبديهى ان ينطوي العدل على المحبة . اما اذا انكمش في دائرة
ضيقة ، كان جافاً بل اصبح عدلاً بربرياً . فان المالك الغني الذي يخرج
مستأجراً فقيراً من عقاره لتعذر دفع البدل انما يمارس حقاً ولكنه لو اخرجه
في يوم مطير من حوله اطفال يرتدون اسماً يدفعون بها الزمهرير ، لما كان في
هذا العدل الاقسوة . وانك لو مررت بجريح ألقته سيارة جائحة في طريق
مقفر ، وهو يئن من جراحه ولا معين له سواك ، وفي وسعك ان تنقله في

سيارتك الى مستشفى قريب ، فانك لا تستطيع التذرع بالقول ، انه ليس لهذا الجربح عليك حق مفروض فتتركه وشأنه .

قال الاقدمون : التطرف في العدل أشد انواع الظلم . وان الدائن الذي اتفق مع مديونه على اقتطاع بضعة من لحمه في رواية تاجر البندقية اذا تأخر عن وفاة الدين في الاجل المضروب ، انما حاول تنفيذ عقد ناجم عن تراضي الفريقين . ولكن بنس عدل القوي يجز في جسم الضعيف . وما اشبه الحياة الاجتماعية بمجالات تكرر على الطريق فيسمع لها أزيز ودوي يمزق الأذان لولا المحبة التي تنسكب انسكاب الزيت على هذه العجلات فتلطف من هذا الصرير الذي يصم الامعاء . ولقد قامت في العصور الاخيرة على الاخص فلسفة تحارب المحبة ، زاعمة ان الاحسان ضار بالهيئة الاجتماعية وانه بدلاً من ان يزيل النكبات والارزاء البشرية يدها ويطيل في اجلها اذ يبقي في عداد الاحياء ضعفاً . ومرضى يقفون عثرة في سبيل تقدم الانسانية ، لذلك كان القضاء على البقية اصوب وليس يجهل احد ان حامل لواء هذا التعالم في العصور الحديثة هو الفيلسوف الالماني فريدريك نيتشه الذي مات مجنوناً . ولكن فلسفته هذه لم تدخل القبر معه بل تركت صداها السيء في المائيا ، وتمدتها الى مناطق اخرى من المعمور ، فاصبحت لا تدن بسوى القوة ومذهب تحسين النسل ، كما يجري في تحسين نسل الخيل التي تعد حلبات الرهان .

ويرى القائلون بمذهب التطور والارتقاء ان عامل التقدم الاوحد هو سنة تنازع البقاء وبقا الانسب ، اي الحياة للاقوياء والموت للضعفاء . فقد زعم اشهر هؤلاء وهو هربرت سبنسر ان الذي لا يستطيع ان يعيش لا

حق له بالعيش . وترى ان انصار هذا المذهب بدلاً من المناداة بتخفيف آلام البشر واقالتهم من عثراتهم واصلاح حالتهم بمداواة اجسامهم ونفوسهم يطبقون عليهم النظريات التي تطبق على الحيوان لا على الانسان العاقل .

ويزعم بعض المفكرين ان شرعة المحبة والاحسان تعود المره على الكسل وتشجع التسول ، وانما التسول جريمة يعاقب عليها القانون . وفي هذا الرأي كثير من الصحة ، لانك تجد كثيراً من المحتالين الذين يستترون بالضعف ، ولكن هذا لا ينفي وجود من يستحق الرحمة، فعلى البشرية ان تضع الامور في مواضعها، وعلى الزارع ان يبذر الحب في الارض التي تستحقه فلا يورثه على الصخر والاشراك .

ويزعم بعضهم ان الشقي جلب الشقاء لنفسه فهو غير جدير بالرحمة لانه يحدد ما زرع . ولكن اذا صح هذا القول في فئة من الناس فلا يصح تعميمه ، لان الآلام لا تكون دائماً عقوبة للمتألم، وكثيراً ما تكون امتحاناً لفضيلته . ثم ايها اللاثم الفقير بفقره، أغثه اولاً ثم عثفه بعد ذلك ان شئت ، والا كان مثلك كمن يوبخ المشرف على الفرق باستحائه في البحر وهو يجهل الصياحة ، قبل ان ينقذه من الهوة الفاعرة . وقد اختلف المفكرون في تطبيق شرعة المحبة فمنهم القائلون بوجود اسنادها الى الدولة او الجماعات وذلك ما زاه في المستشفيات والميامم وماوي العجز وجمعية الصليب الاحمر ، ومنهم من قال بل تترك للاشخاص . وفي كل من الطريقتين حسنات ومساوي لا مجال لسردها . وقليلة هي النظريات البشرية التي لا ترى فيها وجهين احدهما اسود والآخر ابيض ، ولكن الذي لا ريب فيه هو ان شرعة المحبة هي شرعة سماوية وبها يكون الانسان اخاً للانسان .

السياسة الاجتماعية السياسية من السلطة

لا ريب انه قد مر على الانسان حين من الدهر كان يعيش فيه
 عيش الحيوان ، يقاتل بما تطاله يده من النبات والشجر ، وبتأ يصيده
 من الوحش والطيور ، ويأوي الى كهف او مغارة يتقي فيها الحر او المطر .
 ثم اخذ الانسان بالتدرج في سلم المدنية حتى اصبحت اجتماعياً ، يخضع للسياسة
 ويذعن للسلطان . ولكن كيف تم له ذلك ؟ هذا ما سنعرض له
 بإيجاز في كلامنا الآن عن الاجتماع السياسي .

زعم الفيلسوف القديم ابيقور (Epicure) وتابعه على رآيه طائفة
 من فلاسفة العصور الاخيرة امثال هبس واسبينوزا وروسو ، ان الاجتماع
 كان نتيجة تعاقد تم بين البشر . واننا نجد هنا بايراد مذهب هبس
 وروسو ، وكلاهما يزعمان ان الهيئة الاجتماعية هي اتفاساق مصطنع عقب
 الدور المظالم الذي عاش فيه الانسان وحشياً منذولاً ، ولكن هذين
 الفيلسوفين يختلفان في نقاط عديدة :

يقول هبس : بما ان غاية الانسان الوحيدة هي ان ينعم بالعيش الرغيد
 في هذه الحياة ، فمن حقه ان يسعى الى ذلك بكل ما اعطي من قوة .
 ومن هنا نشأ النزاع المستمر بين البشر ، وقامت الحروب فاصبح الانسان
 عدواً لدوداً لآخيه الانسان . هكذا كان الامر في الطور الطبيعي فاجبر

الانسان على نفسه القمة والعيش المرير بدلاً من الدعة والطمأنينة واحسن
 عندئذ يوجب الخاود الى الراحة والاستقرار ، فراراً من ويلات الحرب ،
 وسنم العزلة والانفراد . فمهر من هذه الضفة الشقية الى الضفة الاخرى
 الاجتماعية ، وقد يكون فعل ذلك بالقوة والعنف ، كأن يقوم بين الافراد
 جبار يمتاز عن الاخرين بقوة الجسد او قوة العقل ، فيخضعهم لسلطانه بواسطة
 عقد ابي اتفاق اذ يرى الافراد سوء مغبة الخصام الذي ينشب بينهم ، فيولون
 الحكم شخصاً او فئة تفصل في امورهم وتفرض عليهم السلام . وسواء
 نجم السلطان عن القوة ، او عن الاتفاق ، فان وجود الحكومة ضروري
 وهي جديرة بالاحترام والطاعة . ويشتط هبس في الرأي فيقول : ان هذا
 السلطان يجب ان يسيطر على حياة الانسان الحادة والعامية على الاجساد
 والنفوس ، على الاعمال الخارجية وعلى الخواج الوجدانية ، وهذا هو منتهى
 الاستبداد والظلمانية . وقد بسط المؤلف نظريته هذه في كتابه لوفياتان
 (Leviathan) وقد وردت هذه اللفظة في سفر ايوب في التوراة وهي
 لفظة يرمز بها الى وحش وهمي هائل المنظر والقوة ، ومعنى الكلمة شبيه
 بما يرمز اليه اسم الغول في اللغة العربية .
 اما جان جاك روسو فقد بسط نظريته في مؤلفه (العقد الاجتماعي)
 فقال : ان الانسان كان في البدء يعيش حراً مستقلاً متمتعاً بالسلام والغبطة ،
 ولكنه لسوء حفظه لم يستطع التمتع طويلاً بهذه الغبطة اذ لم يقو وعده
 على مقاومة العناصر التي تهدد كيانه ، فاضطرت له الاخطار المحدقة به
 للاجتماع . وان المجتمع شر لانه يجرد الانسان من حريته وامكته شر الا
 بد منه وقد تألف البشر وتخالوا عن استقلالهم الفردي الطبيعي في سبيل

الامة التي تولت السلطان واستأثرت بالحقوق جميعاً ، فهي اذ تأمر وتنهى ،
انما تعمل بمشيئة الافراد الذين تنزلوا سلفاً عن حقوقهم الشخصية . غير ان
هذا الاتفاق لم يحصل باجماع الآراء بل برأي الاكثرية . وان القوانين
التي تسنها هذه الاكثرية هي تعبير عن ارادة الشعب بمجموعة ، وانما الشعب
يرضخ لاوامر نفسه اذ يخضع للحكومة . فتكون الطاعة اذ ذاك مشروعة
لا بغبي فيها ولا عدوان . وطالما ان الجامعة تألفت بعقد ففي وسعها
ابطاله . وللانسان ان يفسخ العقد بل . اختياره طالما انه عقده مختاراً .
والفرق بين نظرية هبس وروسو ظاهرة : فالاول ينظر الى البشرية نظراته
الى قطيع من الحيوانات جمع شمله بالقوة ، ويرى ان للحكومة ممارسة
هذه القوة بكل ما لديها من قسوة وعدوان وطفيان . اما الثاني . فيزعم
ان الانسان ولد حراً صالحاً مستقيماً فيجب ان يعامل بالحسنى واللين ،
وهذا هو منتهى الديمقراطية . ولا تتجلى نظارة روسو واعتقاده بصلاح
الانسان في كتابه (العقد الاجتماعي) فقط بل في كتابه (اميل) ايضاً
ومداره تربية الولد . فيقول المؤلف في كتابه هذا ان الولد صادق
صالح كريم بطبيعته ، فعلى المرابي ان ينمي هذه السجايا فيه بدون ان
يلجأ الى العنف والاكراه . وان زعمه هذا يخالف لتعليم فلاسفة التطور
القائلين بأن الفرد يمر في ادواره المتعاقبة ، في الادوار نفسها التي مرت بها
البشرية ، اي طور القسوة ثم طور المدنية وهم يرون رأي هبس في ان
الانسان يولد بربرياً وانانياً كذباً ، وعلى المرابي ان يلاشي فيه بقايا
الحيوانية هذه ويروضه كما يروض السباع . ولتلق الآن نظرة على رأي
القائلين بالعقد الاجتماعي فنذكر ما فيه من مهاب لانها متناقض تناقضاً

اساسياً في افتراضه ، خاطئ في الوجهة التاريخية ، فضلاً عن انه وهمي باطل قانوناً .
 ان ما زعمه هبس مخالف اولاً للطبيعة والغاية الانسانية . فان الانسان لم يكن في اي عصر من العصور ، في حل من الواجب . اما قوله بان لكل فرد الحق بكل ما في الكون فيفضي الى النتيجة الاتية : وهي ان لا حق لاحد بشي . فالحق الذي لا يكون محترماً مصوناً ليس بحق ولا يستطيع الفرد ان يتزل عنه في سبيل الامة ، اذ كيف يضحى بشي . لا يملكه .
 اما افتراض وجود العقد الاجتماعي فهو افتراض وهمي مجرد لم تدعمه وثيقة خطية او تقليد يصح الركون اليه . واذا كان قد وضع ففي اي زمان او مكان حصل ذلك ؟ ومن الذي اقروه وامضاه ؟ هذا من الجهة التاريخية . اما من الجهة القانونية فهو على فرض حصوله ، باطل . لان القانون يوجب على المتعاقدين ان يكونوا على علم وبيئة فيتمسك لهم ادراك نتائج ما ابرموا . ومعلوم ان اولئك الاقوام كانوا على جانب عظيم من الغباوة والجهل فهم قاصرون ، وعقد القاصر لا يصح . هذا فضلاً عن ان العقد الموهوم واجب التجديد بتجدد الاجيال فان الاجداد لا يستطيعون تأييد حداثتهم الى الابد .
 وكيف يصح الافتراض بان هؤلاء الناس المنغزلين المتنازعين يجتمعون في مكان معلوم ، وبأية لغة تراهم تكلموا اذ ذلك واذا كان الضعفاء بينهم قد اقروا هذا العقد وتزلوا عن حقوقهم الفردية في سبيل السلطة التي تحميهم فن اجبر المقتدرين بينهم على التزل عن حقوقهم ودخول هذا

السجن الاختياري بالنفلي عن الحرية . واذا صح كل ذلك وكان اساس
السلطة تعاقد اصطناعي فانه في وسع الاكثرية التي ابرمت العقد نقضه
وهناك الفوضى والبلاء . اذ لا يبقى للعدل معنى . وعبثاً يقول هبّس اذ ذاك
اطع القانون لانه سن لمنفعتك ، فان الخطاب يستطيع الرد عليه بقوله اني ادرى
با ينفعني وما يضرني ، وانا حر في نقض عهدي والتحلل من هذا العدل الذي لم
يكن موجوداً قبل التعاقد وانما ابتدع بدعة بعد تنفيذ هذه النظريات .
نقول ان الاجتماع السياسي هو حالة طبيعية يجورها فان الانسان اجتماعي
بطبعه وقد يستطيع العيش منعزلاً ، ولكنه لا يرتفع اذ ذاك عن الحيوان .
ألا ان في المرء قيمة روحية وهي لا تستطيع النور وادراك الغاية والمثل
التي أعد لها الانسان الا بالاجتماع .
وانما الشرط الاول لكل ما تقدم هو تمتع الانسان ببعض الحرية تكيناً
له من ممارسة حقوقه الشرعية . وذلك لا يتم في حالة العزلة ، اذ
يكون الضيف تحت رحمة القوي ، مهدداً ابدأ في حياته وماله وعرضه .
اما الاجتماع فيقي الفرد من هذه الاخطار . ولو فرض ان في استطاعة
بعض عائلات قرية ان تدفع القوة باقوى منها ، فمن اين تيسر للعائلة
المنفصلة عن المجموع اسباب الرخاء والراحة اذا انفصلت ؟ وكيف تصطنع
لنفسها ما يعوزها من المآكل والملبس والدواء ؟ وكيف تتدبر في سائر
نواحي العيش وكيف يزدهر العمران وترقى الصناعات بالتخصص ؟
قال احد العلماء لا يكون الانسان انساناً الا بين الناس هذا فضلاً
عن الجاذبية الطبيعية التي تقرب البشر بعضهم من بعض فيتمسكون
عائلات فقبائل فشعوباً .

قال ارسطو : « ان الانسان حيوان اجتماعي وهو لا يستطيع النمو والعيش الا في الجماعة » اما ان تتساءل : متى دخل الانسان في المجتمع فهو سؤال أجوف يوازي قولنا متى دخل السمك في الماء . ولقد ضل روسو ضلالاً مبيناً بقوله ان الانسان ولد حراً والاجتماع قيده ، وولد طاهراً والاجتماع افسده . وأتى لروسو ان يبلغ من بُعد النظر ما بلغه ارسطو القائل : ان من يعيش في عزلة تامة يجب ان يكون اما الها واما حيواناً . اما الاله فيستغني عن الاجتماع لانه في ذروة الكمال ، واما الحيوان فانه مجرد من العقل . وان الانسان وحده قابل للنمو ، سائر في سلم التقدم .

يزعم بعضهم ان العزلة تشجذ القرائح اذ يتكلم الانسان على نفسه لأن الحاجة تفتق الحيلة ، ولكن هذا الزعم باطل . فكيف يتقدم في فن الجراحة مثلاً طبيب يضطر ان يكون خياطاً ونجاراً واسكافاً وزارعاً في وقت واحد ؟

ان الانسان اخو الانسان شاء او ابى ، والاجتماع طبيعي لا يحتاج الى قوة او عقد ، وهو يجري كما يتنشق الانسان الهواء . وكما يغوص السمك في الماء .

حديث العافية ٦

ماهية مهمة الدولة

للدولة كما للفرد حقوق وعليها فروض ووجائب ، فما هو شأن الدولة
اذن في المجتمع ؟

لقد اختلفت الآراء في هذا الصدد ، اختلفوا في اي موضوع آخر
ينخرج عن الرياضيات ويحتل المد والجزر . ولتلق نظرة عابرة على اهم هذه
الآراء قبل ان نحدد ماهية الدولة وشأنها .

زعم افلاطون - ومن يجهل آراءه السياسية - وعلى الاخص في كتابه
الموسوم (بالجمهورية) . ان واجب الدولة الاديبي يختلف عن واجبهما
المدني : فعليها ان تربي الانسان على الفضيلة . ووجبة على الفرد التقييد بالادب
والخلق القويم . ولا يخفى شطط هذا الرأي ، فان الحكومة تستطيع
تقدير الافعال الخارجية ، ولكن انى لها ان تسهر غور الضائر وتتغلغل في
صدور الافراد تكبح فيهم جماع الهوى . الا ان باع الانسان لأقصر من
ان يتغلغل في خفايا النفوس بل كثيراً ما تخفى عليه الافعال الخارجية
والاهداف التي ترمي اليها . فاذا تولت الدولة مهمة الوحي لتسير رعاياها كما يسير
الراشد القاصرين ، فقد قضت على طموحهم واقدامهم . وتولت مهمة تزرع تحت
اعبانها ، وجعلت من الشعب قتيلاً تسوقه بعصا الاستبداد . وهذا أمر
يؤول الى الفوضى ويحمل الناس على كره الفضيلة والتهرب منها . اذن
فمهمة الدولة بدنية لا اخلاقية لاهوتية . وهي مجبرة على الاغضاب عن بعض

هفوات لا ينالها القانون الوضعي ، فاذا تخرجت كثيراً وابتدأت أن تعاقب على كل شاردة وواردة افضى الامر الى ضده .

وبقابل هذه النظرية المتطرفة نظرية اخرى في الطرف المعاكس ، هي نظرية مكيافيلي احد مفكري القرن السادس عشر ، الذي زعم في كتابه (الامير) ان على الدولة التحرر التام من الاخلاقيات ، لان هدف المجتمع هو فقط النفع الاجتماعي . فكل قانون يبلغ هذا الهدف هو كسريع صالح ، لان الغاية تبرر الوساطة . كما كانت الوسائل ، ومهما كان الطريق الذي يسلك . ولا يخفى ما في هذه النظرية من الفساد والخطر الاخلاقي ، لان للانسان والحرية والمعاهدات قيم مطلقة . وعلى الدولة ان تتقيد بها ، كما يتقيد الافراد بالعقود التي يبرمونها . ويظهر ان المانيا تمت كثيراً على نظرية مكيافيلي الذي اصبح اسمه مرادفاً لنقض العهد واللعب على الحلين ، بل على حبال متعددة في وقت واحد . ولو لم يكن القانون مرتكزاً على المبادئ الاخلاقية لما وجب على الناس احترامه والتقيد به فما قولك في قانون يجبر الناس جميعاً على السير عراة في الشوارع مثلاً أفيكون اذ ذك قانوناً واجب الاحترام ؟

اذن فما هي في الحقيقة مهمة الدولة ؟

اول واجبات الدولة السهر على حفظ النظام وتأييد الامن ، اذ تكفل للافراد حياتهم وحريتهم ضمن دائرة القانون . وثانيها القيام بالمنافع العامة كاعمال الري وتحسين طرق المواصلات وعقد المعاهدات التجارية والسهر على الصحة العامة ومسا يتصل بهذه الشؤون من الامور العمومية . وقد اشتط بعض المفكرين الغلاة فاجبوا على الدولة ان تتولى الانتاج الزراعي

والصناعي ، وان تقوم بالمهات التجارية وتعمل على تربية الرعية كما يقوم الاب على تربية اولاده ، تمشياً على نظرية افلاطون . ولا يخفى ان ذلك يجعل من الافراد آلات حية تتنازل وتعيش مجردة من الطموح والامل . وقد ينعم هؤلاء الاولاد القاصرون بعطف الاب وحنانه في بادئ الامر ، ولكن هذا الاب لا يلبث بتأدي الزمان ان يستحيل الى طاغية مستبد ، لا قانون يسكه سوى ارادته المتقلبة بتقلب الظروف . اما ان تقتصر مهمة الدولة على حفظ الامن وان تكون ولايتها ضرورة عارضة تلتاشي رويداً رويداً كلما تطور البشر صعداً في سلم الرقي بحسب زعم هيرت سبنسر (Spencer) فذلك ايضاً من قبيل الغلو في تعزيز الفرد ، وترى الصواب هنا ، كما تراه غالباً بين نظريتين متطرفتين ، التمام الوسط وهو المبدأ الذي قال به ارسطو العظيم يوم قال :

(La vertu se trouve dans un juste milieu)

مثال ذلك ان بين البخل والاسراف حداً وسطاً وهو الاقتصاد ، والاقتصاد فضيلة . فمهمة الدولة اذن تقوم بالعمل على النجاح الرعية ، ساهرة معاونة ، فعلية ان لا تستأثر بكل شيء ، ولا تترك الجبل على الغارب من جهة اخرى ، بل تعاون على الفلاح والعمران . وسيادتها تقوم بممارسة ما لها من حقوق ، واهمها ثلاثة : التشريع ، والقضاء ، والتنفيذ . وتكون هذه السلطات الثلاث منفصلة بعضها عن بعض ، فلا يكون المشترع قاضياً ومنفذاً معاً ، تفادياً من وقوع المظالم . اما الشروط التي يجب توفرها في القوانين الموضوعة فهي ان تكون عادلة اي مستمدة من القانون الادبي ، وان تستهدف النفع العام موافقة

للزمان والمكان ، استطاعة التنفيذ . لان الله لا يكلف نفساً الا
 وسعها . وان قشر وتعمم على قدر المستطاع . وتقوم مهمة الساطة
 القضائية بتطبيق القوانين وتفسيرها بما يوافق روح المشترع . لذلك نرى
 الحكومات تختار لمنصب القضاة اختصاصيين عالين بهذه الشؤون . فان
 القانون في يدهم كالمبضع في يد الجراح يستخدمه للنفع والخير لا للبت انتقاماً
 او جهلاً . وقد تضاربت الآراء في الاساس الذي يرتكز عليه قانون
 العقوبات ، فزعم بعضهم انه وضع لتعويض الضرر الناجم عن عمل المجرم .
 ولكن كيف يصح هذا القول في من يعاقب من اجل محاولة جريمة ، كأن
 يدس السم في المأكول او المشروب بغية قتل شخص فيفتضح امره قبل
 وقوع الجريمة ؟ فاذا كانت العقوبة تعويضاً عن ضرر واقع فان الضرر لم
 يقع بعد . ولو صحت هذه النظرية لوجب الاقتصار من سائق السيارة
 الذي يسبب قتل احد المارة خطأ كما يقتض من المجرم الذي يودي شخصاً
 باطلاق الرصاص عليه بدون فارق بين العقوبتين .
 وقد اخطأ القائلون بان العقوبة انما شرعت انتقاماً من الجاني ،
 فالانتقام انما يكون غبطة العدو بمراى عدوه معذباً مهاناً . وآية لذة
 تستشعرها الهيئة الاجتماعية بمنظر المجرم مشوقاً او مفصول الرأس عن الجسد
 تحت سكين المقصلة . اذن فما هو الاساس الصحيح الذي ترتكز
 عليه العقوبة ؟
 يجب ان تكون العقوبة عادلة اذ تتناسب مع اهمية الجريمة ، وان
 تكون ذات مفعول صحيح رادعة عن الشر بما فيها من تأديب وعظة ،
 رامية الى الاصلاح الاجتماعي . اما الحكم بالموت ففي مشروعيته آراء

متضاربة لا مجال لتفنيدها هنا ، وهو ملغى في كثير من دول العالم اذ يستبدلونه بالحبس المؤبد . وارى ان الشرع الاسلامي القائل بان القتل انفى للقتل هو اقرب الى العدل والحكمة ، ويذكرنا حق الدولة في القتل بجحما في الحرب . وقد تشعبت الآراء ايضاً في هذا الشأن فقد زعم الفيلسوف الالماني نيتشه ان الحروب طبيعية ضرورية لان الحياة كلها معركة موصولة ، والحرب احداها . وانها العامل الاكبر في الرقي الاجتماعي . وزعم بعض المفكرين الآخرين ان الحرب محرمة في كل حال ، وانها اكبر ما تمنى به البشرية من النكبات والشورور . ومن هؤلاء المفكرين هبغو وتولستوي . (Tolostoi) ولكن طالما ان الانسان اليوم هو انسان الامل والغد ، له طموحه وميوله ، وفضائله ورضائله ، فالسلم المستمر حلم جميل ولكنه حلم على كل حال . وقد رأينا في مطاوي التاريخ بل في الحروب الاخيرة ما حل من الازاء بالدول التي جنحت الى السلم ، وغفلت عن التأهب للحرب . اجل ان الحرب لمن اكبر ويلات البشرية ، ولكنه يتعذر عليها الفاؤها . فكما ان الاشرار ويل على الخيوس ولكن لا مفر من وجودهم على وجه الارض ، فكذلك هي الحرب . وللدولة حق مباشرة الحرب اما دفاعاً عن نفسها وتكون اذ ذاك في الموقف نفسه الذي يكون فيه الفرد عندما يداهم معتد ، واما مطالبة بحق مهضوم عجزت عن الوصول اليه بالطرق السلمية . ولكن الدول كثيراً ما تتذرع بانها مهضومة الحق حيث لا حق ، ويكون مثلها حينئذ مثل الذئب مع الخروف . واذا كان للدولة حق الحرب فليس لها ان تلجأ الى الاساليب الوحشية التي تتنافى مع المبادئ الانسانية كاستعمال الغازات السامة والقنابل الذرية والفتك بالاسرى

وما شابه ذلك .

اما في حقل التعليم والتربية الوطنية فللدولة ، ان تعاون في تربية النشء ولها حق المراقبة صوناً للاخلاق ، وتوطيداً للنظام والامن العام . ويجب عليها تشجيع العلوم والفنون وتعميم التعليم الابتدائي ، بدون ان تستأثر كل الاستثناء بهذه النواحي . لانها مهما بلغت من العطف على اولاد رعاياها فهي لا تبلغ درجة الحنان التي تنطوي عليها صدور الاهلين نحو اولادهم فانهم

اولى منها باعداد مستقبلهم وفقاً لظروفهم الخاصة . هذا قليل من كثير مما تقوم به مهمة الدولة وهي لا تستطيع القيام به على الوجه الاكمل الا اذا وضعت نصب عينها هذه الآية : العدل اساس الملك .

والمعنى الذي ينبغي ان يفهم من هذه الآية هو ان العدل هو اساس الملك والعدل هو ان يعطى كل واحد ما يستحقه من الحقوق والواجبات ولا يظلم احد . والعدل هو ان يعطى كل واحد ما يستحقه من الحقوق والواجبات ولا يظلم احد . والعدل هو ان يعطى كل واحد ما يستحقه من الحقوق والواجبات ولا يظلم احد .

واجب الأفراد نحو الدولة

المعنا في مقال سابق بواجب الدولة نحو الرعية ، واننا نوجز في هذا المقال واجب الافراد نحو الدولة . واهم هذه الواجبات الخضوع للقوانين ، لانها سنت للخير العام ، وهي ليست قيوداً للأفراد على ما يزعم بعض مرضى العقول الذين يبنون التفات من كل قيد ويرون في نظام الأمن سلاسل لقيد شهواتهم ، انما القانون رابط وضع لنفع البشر كما وضع القيد للسيارة الجارحة ، يقيها من التعلق الى الهاوية ، ما لم يكن قانوناً جائزاً يبيع دماء الناس واعراضهم وهذا شيء بعيد الاحتمال ، فان قوانين البلاد المتقدمة يرتكز معظمها على المبادئ الاخلاقية العامة . وهناك واجب آخر له مكانته العظمى في الامم ، الا وهو حب الوطن . وسنقف على شرح هذه النقطة في مقالنا هذا فلا نتمدها .

يروى ان شاباً صينياً انخرط في سلك احدى الرهبانيات الافرنجية ، وتلقن العلوم العالية حتى بلغ بها مقاماً مرموقاً ، وطوف في اوربا ثلاثين سنة ونيفاً . ثم عاد بعد هذه المدة الطويلة الى الصين واستأذن رئيسه في زيارة والديه الشيخين . فذهب الى وطنه مصحوباً باحد رفاقه الرهبان . ولم يكن وطنه هذا سوى بضعة اكواخ مبنية بجذوع الاشجار والطين . فاستقبله اهله بما استطاعوا من الحفاوة . واعدوا له ولرفيقه طعاماً خشناً بما

يتيسر لمثل هذه القبائل الصينية المتوحشة . فاقبل الراهب الصيني العالم على هذا الطعام يتناوله بقابلية عظيمة وسايه رفيقه تأدباً ، وبعد الفراغ من الاكل استلقى صاحبنا في ظل الكوخ للقيامولة ، وكان اليوم شديد الحر . ولما استفاق من رقاده التفت الى صاحبه وقال . انه شهد اكبر الولايم والذها في اوربا . ونزل ضيفاً على الامراء ، وتوسد الوسائد المحشوة بريش النعام ، ولكن ذلك كله لا يساوي في نظره هذه الاكلة وهذه القيامولة في ظل كوخه الحقير . يدلك هذا الحادث على تأصل حب الوطن في صدور بنيه .

كيف لا وأول ما يتفتح بصر الطفل يتفتح على وطنه حيث يقضي ايام صبوته ، فان نفسه متعلقة بهذا الصميد الحبيب وما يتصل به من تاريخ وتقاليد وعادات . وجاء في الكلام المأثور ان حب الوطن من الايمان . وهذا الشعور بحب الوطن ينمو مع الانسان ، ففي ايام الطفولة الاولى يكون هذا المقر مسرحاً للعبه ، ثم يفقد مسرحاً للهوه متى اطل على الشباب . وترافق هذه الفترة ذكريات عزيزة على الانسان ، فان ابن المزرعة الصغيرة لا ينسى هذه الحقبه من العمر ولو غدا ملكاً متوجاً في اكبر بلدان العالم وارقاها . ومتى بلغ الشاب اشده احس في نفسه دافعاً غريزياً يحمله على الدفاع عن هذه البقعة من الارض مهما بلغ عظم التضحية . ومشكلة الوطن لعبت دوراً خطيراً في التاريخ وقد ذهب المفكرون فيها مذاهب شتى . فمنهم من انكر وجوب التعصب لوطن باعتبار ان الكون كله وطن للانسانية كلها فلا فوارق ولا حدود . ومنهم من تعصب لوطنه تعصباً شديداً حتى بلغ هذا الميل مبلغ القسوة والبربرية ،

وهذا ما فعله اليونان والرومان في العهد القديم . وفي هذين الرأيين المتطرفين خطأ كبير لاننا اذا قلنا بوجود حب الوطن والتعلق به ، فذلك لا يعني ان نكون اعداء الانسانية اذ نرى في كل غريب خصماً لنا .

وسبب ضلال الاقدمين في هذه النظرية ، توهمهم بانه يتعذر التوفيق بين مصلحة العائلة ومصلحة الانسانية ، وان احداها بطبيعة الحال عدوة للآخرى . ومن المؤسف ان يكون الفيلسوف العظيم افلاطون حامل لواء هذه الضلالة التي نشرها في كتابه « الجمهورية » ، وتمشى عليها اليونان في سبرطة وسواها من المدن الكبرى . وقد وقع الرومان وهم ورثة اليونان في الضلالة نفسها ، بل اوغلوا فيها اكثر من اسلافهم معتبرين ان التمتع بالحرية والغبطة هو وقف على الرومان ، وانما سواهم من الناس عبيد وحوك يستبيحون دماءهم كما يستبيحون دماء الحيوانات ، ويحرقونهم ويسخرونهم لاغراضهم كما تسخر البهائم . فتأمل ما افضى اليه تشدد الوثنيين في الوطنية . وقد اثرت هذه المظالم وامثالها في نفوس الناس حتى جاءت النتيجة معكوسة . وهبَّ الفلاسفة الرواقيون هبة واحدة ينادون باللاوطنية . ومن الغريب ان يكون في عداد هؤلاء الفلاسفة الذين يزعمون الكون كله وطناً لكل انسان ، الامبراطور الروماني الفيلسوف مارك اوريل . (Marc-Aurèle) ولا ريب انه كان يعمل عن اقتناع بصحة عقيدته لا بتأويله مصلحة الامبراطورية الرومانية .

ولقد تجدد صدى هذه التعاليم في اوربا في القرن الثامن عشر ، وعلى رأس هذه الطائفة جان جاك روسو فاعتبر هر وازداده ان العمل لمصلحة الامة انانية ، وان الشجاعة العسكرية ليست في الواقع سوى قسوة

وحشية ، يجب ان تزول بتطور الزمن وتقدم المدنية . وأيد الشاعر الموهوب لامارتين هذه النظرية في قصيدته المشهورة « نشيد السلام » ويبدو هذا الرأي للوهلة الاولى نظرية جميلة لانها تدغدغ الخيال الشعري ، وتستميل القلوب ، ولكن فيها من الغلو ما فيها . فمن انعم النظر في الامر رأى انه لا تناقض بين حب الوطن وحب الانسانية . ومن الطبيعي ان يبدأ الانسان بحب نفسه واهله وقبيلته ثم ينسج هذا الافق رويداً رويداً فيصبح حب الدولة اي الوطن ، ثم يتعداه الى الانسانية جميعاً . وهذا هو النظام التدريجي المعقول الذي يبدأ بالاصغر ثم ينتهي الى الاكبر اما ان نحذف العائلة في سبيل الوطن ، او نطفر طفرة واحدة الى حب الانسانية بدون ان نمر بالوطن فكلتا النظريتين فاسدة مخالفة لنظام الطبيعة . ومثل من يحاول ذلك كمثل الذي يحاول زيادة ماء النهر فيقطع عنه ينبوع . وما خفيت ضلالة افلاطون على تلميذه ارسطو الذي يصح فيه قول من قال : « رب تلميذ تفوق على استاذه » . فقد قال لعله ليس الحب في هذه الدرجة من السعة لتعمر به هذا المقدار من الناس ، ومثلك مثل الذي يملك قليلاً من العسل ، فيرميه في البحر ليذبل عن البحر ملوحته ويجوله الى حلاوة سائفة .

اما الفيلسوف باكون والخطيب الروماني شيشرون ، فقد ذمها مذهباً صحيحاً بزعمهما ان حب الوطن يبدأ في العائلة . اما حب الانسانية الذي لا يرتكز على الوطنية فهو وهم لا يتعدى الخيال والروايات المسرحية . وما رأيتك برجل يهمل اعانة الفقراء المرضى من عشيرته ليتبرع بمبلغ من المال لجرحي الحرب ، ألا ان « ذوي القربى اولى بالمعروف »

ان جان جاك روسو نفسه قال، واضنه يعني ذاته: « احذروا هؤلاء الذين يتظاهرون بحب الانسانية ويهملون عائلاتهم ». ولا ريب ان هذا النوع من التضحية هو اناية مستترة، فان الذي يدعي حب الانسانية جميعها لا يجب احداً . ومن يزعم انه صديق الجميع ليس في الحقيقة صديقاً لاحد . ونستنتج من هذا البحث الموجز ان الصواب يكون في هذا الامر وغيره في الطريقة الوسطى فان حب الوطن عاطفة طبيعية مشروعة تتأصل في الانسان، بل هي واجب مقدس ولكن ذلك لا يعني وجوب التعصب واحتقار الغير، وبذر البغضاء والكيد للآخرين انما البشر اخوة وعليهم ان يتعابوا ولكن ذلك لا يمنع اقامة الحدود بينهم، فيلزم كل انسان حده

ويقف عنده . فليس هذا هو الغرض من هذا البحث بل الغرض من هذا البحث ان يبين ان حب الوطن عاطفة طبيعية مشروعة تتأصل في الانسان، بل هي واجب مقدس ولكن ذلك لا يعني وجوب التعصب واحتقار الغير، وبذر البغضاء والكيد للآخرين انما البشر اخوة وعليهم ان يتعابوا ولكن ذلك لا يمنع اقامة الحدود بينهم، فيلزم كل انسان حده .

واجب الانسان نحو جسده

زعم بعض المفكرين ان الانسان مطلق الحرية فيما يتعلق بذاته ، فهو اذا لم ينسحب الى سواء بشي . فله السلطان على نفسه ، وله ان يتنزل عن واجباته وحقوقه الشخصية كيفما شاء . ، وفي هذا الرأي ما فيه من شطط وخطا جسيم . فان للانسان قيمته الذاتية ومرتبته العليا في المخاوف . قال الاقدون : ايها الانسان احترم ذاتك . وقال الفيلاف الكبير كنت (Kant) تصرف نحو نفسك ونحو القريب باعتبارك غاية لا واسطة . وليس من سداد الرأي ان نحترم القريب ولا نحترم انفسنا ، فقد جاء في الكلام العالي احبب قريبك كنفسك لا اكثر من نفسك ، وجاء في الحديث ابدأ بنفسك اولاً ثم بن تعول . فمن احترم حق غيره وداس حق ذاته كان ملكياً اكثر من الملك . وان خصوم هذا الرأي يدعمون حججهم الواهنة باقوال تبدو سديدة للوهلة الاولى يؤيدونها بالمثل الآتي فيقولون : لو ممح لك جارك ان تقطع افراس بستانه ، او ان تدوس النبات والزهر الطالع في حديقته لما اقترفت ذنباً لو فعلته ، على الرغم من الضرر الذي الحقته به ، فكيف ترتكب جرماً اذا لم تجن الا على نفسك ؟ ولكن هذه النظرية لا تصدق حتى في المثل الآنف الذكر . فان الانسان لا يملك حتى التصرف المطلق في اءاله اذا قضت ضرورة اجتماعية بالحد من حريته ، فعندما تكون ازمة السكن ضاربة اطنابها ، يمتنع على المالك الغني ان يهدم بيوته ليجعل منها حديقة للزهرة . وعندما يعم الجوع

البلاد ويهدد الناس بالموت لا يستطيع المزارع احراق بيادره ، او اتلاف
 محصوله بل ان دائرة التموين تأخذ منه حاصلاته قسراً لتوزعها على الطالبين ،
 فاذا صحَّ ذلك في الاموال التي تشرى وقباع فبجبة اولى يصح في الجسد
 الانساني ، لان المرء لا يستطيع ان يسمح لغيره بان يقتله واذا اقدم هذا
 الغير على القتل عوقب بعقوبة القاتل ولا يجديه نفعاً ان يحتج برضى القليل .
 ويتبين مما تقدم ان هنالك حقراً لا يصح التزل عنها . هذا فضلاً عن
 القول بان الاساءة الى انفسنا لا نتعدانا هو قول خاطىء . لان الفرد عضو
 في الهيئة الاجتماعية . وهو حلقة في السلسلة فلا يمكن ان تضرب احدى
 حلقاتها بدون ان تؤثر على السلسلة ، ومثل الانسان في الجماعة مثل النحلة
 فاذا مرضت جنت على نفسها واساءت الى الخليا جميعاً . وان العمل الشائن
 يعدي كما تعدي المروآت والمثل الصالح . وقد نجر على ذويتنا واولادنا من
 الخبل والفضائح شيئاً كثيراً اذا نحن اسأنا الى انفسنا . وفي واجباتنا نحو
 جسدنا نجد ناحيتين احدهما ايجابية والثانية سلبية . فالاولى تقوم بتغذية
 الجسم واثامته والمحافظة على النظافة ، واخذ الخيطة لدرء الامراض والعاهات
 فقد جاء في الكلام العالي : ان لجسدك عليك حقاً ولكن هذا القول لا
 يعني الافراط والمبالغة في العناية بالجسد حتى العبادة ، فقد يفضي ذلك
 بالانسان الى التخنث وقد جاء في الحديث : اخشوشنوا ان النعم لا تدوم .
 وقد يتطرف بعضهم في قهر الجسد بالصوم والتقشف حتى يؤول الى حالة
 من الضعف والخرول تؤثر في العقل . ومن هذا القبيل ما يجري في بعض
 نواحي الشرق الاقصى بين البراهمة والبوذيين وبعض المتصوفين الذين اساءوا
 فهم التصوف فاصيروا بالخل وما يتصل به من الامراض فجنوا على الجسد

والنفس في وقت واحد . والصواب الصواب هو التزام الحالة الوسطى فان الافراط في الامر كالتفريط فيه . اما الواجبات السلبية فهي على نوعين . اولاً - ان لا يضع الانسان حداً لحياته بالانتحار . ثانياً - ان لا يسيء اليها بالاستسلام للشهوات . وقد تضاربت آراء الفلاسفة في الانتحار ، واننا نجترى بايراد بعضها . فقد قال سقراط قبل ان ينفذ فيه حكم الموت بساعات معدودة : « موقف الانسان في هذه الدنيا موقف الحفير ، وعار على الجندي ان يتهرب من الواجب فعليه ان ينتظر الامر الالهي بالخروج من الدنيا فيغادرها حينئذ كما اغادرها انا اليوم » .

اما افلاطون فقال : يجب ان يدفن المنتحر في مكان مجهول ، فلا تشيع جثته بابهة واحتفال ، ولا ينقش على قبره شيء . بل يسوى رسمه بالارض ، ويكون في عداد القبور الدوارس . ولا يستثنى افلاطون من ذلك الا الذين انتحروا تخلصاً من وصمة عار لحقت بهم لشكبة لا تعوض . اما الفلاسفة الرواقيون فلا يرون شراً في الانتحار ، وقد تابعهم على هذا الرأي الخطيب الروماني الشهير شيشرون زاعماً ان الانتحار يكون في بعض الظروف واجباً .

اما الابيقوريون الذين يستهدفون اللذة في هذه الدنيا فانهم يرون فيه وسيلة للتخلص من الالم والمرض والشينوخة ، فينصحون للشقي الذي تقطعت به اسباب المذات ان يجمع الكأس المرّة اي الموت جرعة واحدة ، لانه قد حيل بينه وبين الطيبات . وقد انتشر هذا الرأي الفاسد في الاسكندرية في العهد القديم حتى قامت جمعية تدعى جمعية المشتركين في الموت (comourants) وكان من اعضائها انطونيرو وكليوباترا . وليس من يجهل كيفية مصرع كليوباترا التي عندما اظلمت في عينيها الدنيا اخذت

ثعباناً وادنته من ثديها فسلمها فماتت . وقد اخذ بهذا المذهب في العصور
الحديثة الشاعر الالماني الكبير غوته (Goeth) في كتابه ورقير . وكذلك
جان جاك روسو ولكنه رجع عن هذا الرأي الضال فقال : ان المنتحر
اصح محتلس نفسه من الحياة الاجتماعية اختلاساً .
أما « كنت » (Kant) فإنه شجب الانتحار وانحى باللائمة على الآخذين
بهذا الرأي ولا ريب انه على صواب في نظريته لان الانتحار جريمة اجتماعية
فلا صحت نظرية القائلين بالانتحار لاستطاع المرء ان يتخلص من واجباته
الاجتماعية كلها بتخلصه من الحياة . وليست الغاية من وجود الانسان في
هذه الدنيا التمتع بالمذات والثروة والشهرة كما يبناه في احاديث سابقة ،
بل السعي في سبيل الكمال والمثل العليا التي ارادها له الله . لاسيما وان
الالم يكون في الغالب لتطهير النفس كما يصهر الذهب بالنار ، لا عقوبة
للانسان ولا انتقاماً منه . فإي ذنب جناه ايوب الصديق لينتلي بما نكب
به من الارزاء ، وان كانها ارادة عليا يعجزنا تأويلها . فليس من حقنا
ان نضع حداً للحياة ساعة نشاء هذا فضلاً عن المثل السبي وعن
الاضرار بالجماعة التي لا حق للفرد ان يستبد بحقها فيقطع هذه العروة التي
تضيه اليه . وقد يرى بعضهم في المنتحر رجلاً شجاعاً يتمرد على غريزة
حب البقاء ، وهذا ضلال مبين لان الجندي الشجاع يثبت في المعركة صابراً
على الشدائد وعلى السهام تتنابه من كل جانب ولا يلقي السلاح ويلجأ الى
الفرار الا الجبان الرعديد . ورب معترض يرى مسوغاً للانتحار في بعض
الاحوال محواً لوصمة عار قلوبها المنتحر ، كأن يكون مؤتمناً على مال
فيختلسه لينفقه في سبيل المذات ، او يكون قائداً محارباً فيرتكب جرم

الحياة وما شابه ذلك من الآثام . ولكن ذلك كله لا يكون مهراً للموت الاختياري فملي الاثام ان يتقي الفضيحة ويبتعد عن الاثم قبل الاقدام على الجريمة فاذا جنى فعلية ان يتحمل النتائج والمغبة الوخيمة تكفيراً عن سيئاته فاذا انتهر ، فقد اضاف جرماً الى جرم . وكما انه لا يجوز للمرء ان ينتهر فلا يجوز له ان يعرض حياته للخطر الشديد على حد قولهم :

ليس المخاطر محموداً ولو سلمها .
 ولكنه يسوغ للانسان ان يجابه الموت في بعض الاحوال مثال ذلك ان يتعرض شرف امرأة عفيفة للخطر . فاذا لم تستطع دفع المعتدي ولو بالقتل حق لها ان تنتهر ، وهذا أعلى ما تبغفه البطولة من التضحية في سبيل الشرف ، او كما لو وقعت كارثة حريق او طوفان وعرض المرء ذاته للخطر في سبيل قريبه ولكنها حالات معدودة كما ترى .

قلنا انه يمتنع على المرء ان يسيء الى جسده بالافراط ونهك القوى بتعاطي المسكر وما الى ذلك من العادات الهدامة . وما من احد يجمل مضار الادمان على المسكرات وتأثيرها السيء في العقل والنسل وما يحدث بسببها من الجرائم . وقد اثبتت الاحصاءات في مختلف بلدان العالم ان السكر كان اما سبباً مباشراً او سبباً بعيداً في اغلبية الجنايات التي تقع سنوياً .
 واذا انت بحثت في مستشفيات الامراض العقلية وجدت فيها كثيراً من السكيرين واولاد السكيرين ، هؤلاء الابرياء المساكين الذين ينطق عليهم قول الكتاب المقدس : الآباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون . هذه هي كلمة مختصرة عن واجبات الانسان نحو نفسه وانما مردّها جميعاً الى العقل الذي هو قبس من النور الالهي وهو الزاجر النهائي .

البرد . وعندما يمتنعون عن الجزم بشيء يناقضون انفسهم لانهم يجزمون بانهم في شك .

وهذا المذهب قديم في التاريخ ، وقد عمل به ودعمه فريق من فلاسفة اليونان القدماء المعروفين بالسوفسطائيين ، وقام منهم اساتذة خطباء زعموا انهم يستطيعون تعليم تلاميذهم الفصاحة ، فيتمكن واحد منهم مثلاً من الدفاع من نقطة معلومة مهاجماً او محامياً ، فبامكانه ان يشجب الانتحار او ان يجله وان يشجب السرقة او يجيزها فالآراء المتضاربة تتساوى في نظرهم .
ويذكرنا ذلك بقول القائل :

انا ابو قلمون في كل لون اكون

واشهر الاقدمين في الشك هو الفيلسوف «بيرون» (Pyrron) المولود في القرن الثالث قبل المسيح . ونقطة الذهاب التي ينطلق منها الرجل هي تعذر معرفة الاشياء بجوهرها وطبيعتها معرفة تامة ، فهو يحس ان العسل مثلاً حلو المذاق ولكن المريض لا يشعر بهذه الحلاوة . ثم ان البشر يعترفون في التقاليد والمعتقدات فما تراه تلك القبيلة جريئة تحسبه قبيلة اخرى مكرومة وفضيلة . اذن فعلى العاقل ان يترك حكمه معلقاً وتلك افضل الطرق لبلاوغ السعادة والطمأنينة . فن يرى ان لا حقيقة ولا ضلال ، ولا خير ولا شر ، فقد انقذ نفسه من كد الحاطر وصعوبة البحث ، وتخلص من الوسوس والمخاوف .

أما شك بيسكال (Pascal) ومن جرى مجراه ، فهو طراز آخر لانه في الحقيقة جدل ونقاش يفضي الى الايمان ، كما وقع للفيلسوف ابي حامد الغزالي المعروف بحجة الاسلام ، اذ بدأ بالشك ليبلغ اليقين وقد بسط ذلك

في كتابه الموسوم بـ « المنقذ من الضلال » اما الحجج التي يدي بها المشككون تأييداً لرأيهم فأممها :

(١) - الجهل لانهم يزعمون ان الانسان لا يستطيع الوصول الى حقيقة الأ اذا بحث النظريات جميعاً وذلك يتمذر على المرء ، فالموضوع يتجاوز كل نطاق ، والحياة لا تستوعب هذا الفيض العميم ولاسيا وان العقل البشري محدود .

(٢) - كل البشر مجمعون على وجود الضلال وكثيراً ما يخطنون ، والذي يخطئ كثيراً . مرض للاخطأ دائماً ، او اسنا زى في الحلم اشياء كثيرة نحسبها حقائق ثم نستفيق فنراها تبددت هباء . منشوراً .

(٣) - تناقض الفكر البشري وتغيره لاسباب عديدة : منها تغير الزمان ، فما كان محموداً بالامس اصبح شائناً اليوم . لقد كان طارح صبيحة عذراء في النيل كل سنة واجباً مقدساً استرضاء للنهر الجاري رباً وخصباً ، اما اليوم فينظر المعاصرون الى تلك العادة نظرتهم الى جرعة تقشع منها الابدان . ومنها تغير البلدان فقد كان لحم الآدميين في نظر متوحشي افريقيا وليمة من اطيب الولاثم .

واعجب من هذا كله ، التناقض الذي يقوم في الشخص نفسه ، فشهواته تشن عليه حرباً لا يرضى عنها العقل فضلاً عن الحرب التي يشنها العقل على نفسه ، فيكون تارة في جهة ، وطوراً في الجهة الماكسة ، فلو كان ثمة حقيقة واضحة اكانت نظرة البشر اليها واحدة لا تتبدل . واقوى حجج المشككين هي الآتية :

قبل ان نحزم جزم اليقين في امر يجب ان نشبت مقدرة العقل على

الحكم .
 وتوصلاً لذلك نعمد الى العقل نفسه ، فالعقل هو الشاهد والمشهود عليه
 والقاضي في آن واحد . وهذا ما يفضي بنا الى الحلقة المفرغة او الدور .
 مثال ذلك قول بعضهم : ان المعدة تتولى توزيع الغذاء على الجسم ،
 والأعضاء لا تقوم الا بذلك ، ولكن بما ان الأعضاء ضعيفة فالمعدة ضعيفة
 لا تستطيع الهضم لتوزيع الغذاء على الأعضاء ، وهكذا يستتج المشككون
 ان اليقين لا يستند الى العلم ولا يمكن اسناده الى العقل لانهم لا يؤمنون
 بسطان العقل اما خصوم الشك فيردون على هذه الحجج بردود بعضها
 واهن ، وبعضها الآخر في منتهى القوة . فيقول احد طرفائهم : بما ان
 المشككين لا يقرون ولا ينكرون ويستوي لديهم كل شيء فاضربوهم
 ضرباً يماً حتى يقروا ان بين الضرب المبرح وراحة الجسم فرقاً . وبعض
 الفلاسفة ينصح لهم بالسكوت التام اذ خاطب احدهم هكذا : يا فلان
 انك تتكلم ، فان كنت تعني ما تقول فهذا دليل على استطاعة العقل ان
 يعرف ، وان كنت لا تدري ما تقول ، فالافضل ان تسكت لنلا تتهم
 بالجنون .

وهناك حجة اقوى هي هذه :

لا يشك إلا الانسان الحي المفكر الذي يدري انه لا يدري ، وهو
 يعني التوثق والوصول الى الحقيقة ، اذن فالعقل يستطيع معرفة شيء . معرفة
 يقينية ، هي ان المشكك يعرف نفسه مشككاً .
 ولا ريب ان أقوى البراهين على اليقين ، حجة الفيلسوف ديكارت
 (Descarte) الذي ولج باب الشك ليبلغ قمة اليقين ، كما فعل أبو حامد

التطور

شغلت نظرية التطور عقول الناس في العصور الحديثة ، بعد أن سارت الحضارة شوطاً وتقدم العلم بتقدمها وعلى الاخص العلوم الطبيعية وما يتصل بها ، وقبل ان نبحث بمبدأ التطور نقول كلمة في نظرية الاستقرار . زعمت فئة من العلماء والمفكرين ان الاحياء خلقت كما نراها اليوم ، فالحصان الاول مثلاً كان شبيهاً بالحصان الذي نراه اليوم في ميدان السباق ، زاعمين ان الخالق سبحانه ، ابتدع النافع وبث فيها روح الحياة ، واقد اندثر بعضها وطورته العصور ، ونكاد لا نعرف هذه الحيوانات المندثرة إلا عرضاً كأن يحدث انهيار في ناحية ما ، أو يحفر البعاثون قصد الاكتشاف فيعثرون على هياكل عظمية لا نرى لها مثيلاً في الحيوانات الاليفة او الوحشية التي نعرفها اليوم . وهم لا ينكرون بعض التطور الذي يطرأ على الانواع فتختلف اختلافاً ظاهرياً تبعاً للمناخ ونوع الغذاء . وبعض الظروف الاخرى . وقد يصبح هذا الاختلاف وراثياً ، فان الزنجي لم يكن زنجياً في الاصل ولكن الاقليم اثر في لونه تدريجياً ثم استمر التغير بحكم الوراثة . وقد تتراوح بعض الانواع المجاورة ، ومن هذا النوع الكلب الذئب (Chien loup) مثلاً فتبدو الفروق الظاهرية ، ولكن الاستقرارين لا يتعدون هذه الحدود ، فلا هم شهدوا تغيراً بديهيّاً جوهرياً طرأ على الاجناس ، ولا التاريخ انبأهم بذلك ، فلم يتحول الكلب الى حمار او الارنب الى

نسر . والزنجي برغم سواد لونه ، وتجمد شعره ، وتهدل شفثيه لا يختلف طبيعياً عن الانسان الابيض ، وهم يعدون نظرية التطور بين افتراضاً مجرداً لا يؤيده دليل .

أما نظرية التطور فقد استهوت الجماهير لما فيها من الغرابة ، والجماعات مطبوعة على الميل الى الغرائب والحوارق ، اذن فما هي نظرية التطور ؟ زعم أصحاب هذا المذهب أن الاحياء التي نشاهدها اليوم لم تكن على هيئتها الحاضرة ، فلم تكن في البدء هذه الالوف من النماذج التي نراها اليوم ، بل كانت في البدء نماذج قليلة تطورت على الزمن وتعددت وهذا التبدل لا يشمل الحيوان فقط بل يتناول النبات ايضاً .

وعندما يذكر الناس التطور يتبادر الى اذهانهم اسم العالم دروين لان اسمه أصبح مقروناً بهذه النظرية . ولكن هناك عالماً تقدمه فكان استاذاً له ولو فصل بينهما نصف جيل ، ألا وهو العلامة لامارك (Lamarck) . وقد أوحى اليه هذه الفكرة وجود الانواع المتبسة ، وهي التي يتداخل بعضها في بعض ، مثال ذلك الاسفنج فهو في طائفة الحيوان وان شابه النبات . ثم نظر لامارك الى الفروق بين اجناس الحيوانات الاليفة كالدجاج والارانب فزعم ان كل يوم يأتي ببرهان جديد على وجود حلقات هي همزات وصل بين الانواع ، فليست الانواع منفصلة انفصلاً تاماً كما توهمه العلماء الطبيعيون ، وان تقسيم الحيوان والنبات الى طوائف على الطريقة المعروفة ، ليس سوى تقسيم اصطناعي غير مرتكز على أساس علمي . وهو يرجح تداخل الانواع في بعضها فتنقلب من جنس الى آخر ، ويمتد بها جميعاً وليدة بعض الانواع التي كانت في الاصل بسيطة التركيب قليلة الاعضاء . ثم

تطورت على الزمن مسيرة بأسباب ثلاثة : البيئة والعادة والحاجة . وان هذه الاسباب وحواشيتها تحدث في الحيوان اضطراباً داخلياً يجذوه على تبني هذه الطوارى والخضوع لها مستجماً قواه لهذا التبدل ، فان لم يفعل كان نصيبه الفناء . وان هذه القوة الحيوية الداخلية هي التي تخلق وتبدل مدفوعة بعاملين عامل الحاجة وعامل العادة . فالحاجة تخلق العضو ، والعادة تقويه ، والوراثة تقره وتجعله مستمراً . ولكن الدليل يعوز لامارك (Lamarck) في هذا الموقف فيعمد الى التشبيه فيقول : نرى في كل يوم ان التمرين يقوي الاعضاء . والتمرد يضعفها فاذا استمر التمرد زال العضو ، واستنتج ان الحاجة اساس الخلق . وضرب مثلاً على ذلك (البزاق) العاري الزاحف على الصعيد ، فانه في زحفه هذا ، يضطر الى تلمس الاشياء التي تمترضه فيخلق بدافع الحاجة أعضاء لم تكن له من قبل . ولكن خصوم هذا المذهب يردون عليه رداً مكيناً فيقولون ان الحاجة والعادة تقويان الاعضاء . ولكنها لا تخلقان خلقاً جديداً فالخلق عمل المبدع وحده . والاعضاء موجودة حتماً قبل الاستعمال والتمرين ، خذ مثلاً على ذلك الفرخ الحليس في البيضة ، فاعضائه التي تتكون حينئذ لا تكون وليدة الحاجة ، فهو غني عن العينين لينظر وهو في سجنه المظلم ، ويستغني عن الجناح ليطير ، وعن المنقار لينقر الحب ولا حب هناك ولا بذور . إذن فالمبدع الحكيم هياً هذه الاعضاء وسواها حياة الجنين المقبلة . ومهما اشتط لامارك في نظريته هذه فانه يمتاز على دروين بقوله : ان التطور يجري بتأثير غاية داخلية ، يسميها الشعور الداخلي .

وفي اواخر القرن التاسع عشر اتخذ دروين نظرية (Lamarck)

هكازاً يتوكل على دعم مذهبه الذي يدور حول نقطتين : الاختيار النوعي ، وتنازع البقاء . ويبني استنتاجه هذا على ما شاهدته المحرجون في التزاوج ، في مملكتي الحيوان والنبات . وهو تزاوج قام به الحراث والمزارعون فاخترتوا من الاجناس ما يكفل تحسنها على الزمن بعامل الوراثة ، فنجم عن ذلك انواع جديدة من الخيول والابقار والكلاب وما سواها . وقد جاءت هذه النتائج ثمرة لعمل الانسان ، وهذا النوع من الارتقاء سمي الاختيار الاصطناعي . وزاد دروين : ان ما يبلغه الانسان باعمال الفكر ، واجهاد الجسم في اختيار وتزاوج الحيوانات الايفة ، تعمله الطبيعة في الاشياء البرية بحكم الاختيار الطبيعي على نطاق واسع ، في وقت مديد . فاذا ضاق الانسان ذرعاً واستعجل الاختيار المصطنع نظراً لقصر الحياة وقيمة الوقت فالطبيعة تعمل على مهل ، ولديها ملايين السنين . وفي هذه المدات الطويلة يتم الاختيار الطبيعي ، وتتشعب الانواع في تحول دائم . ويؤمن ان هذا التبديل يتحقق بسببين . اولهما الكفاح من أجل العيش ، وثانيهما تأثير الوسط .

اما الكفاح من أجل العيش فسيبه ان الطبيعة توجد في الاحياء عدداً وافراً لا تستطيع تغذيته ، فيقوم النزاع على الغذاء بين هذه الجيوش اللجبة ، وفي هذه المعركة يسقط الضعفاء ويبقى الاقوياء المزودون بسلاح أمضى من سلاح سواهم فيورثون نسلهم ما لديهم من قوة . فالاسد يورث الشجاعة ، والثعلب الحيلة ، والغزال الخفة وهلم جرا . أما السبب الثاني فهو تأثير المناخ .

فلو فرضنا ان منطقة من الارض دب فيها الصقيع فتجمدت . فلا

يستطيع العيش فيها من الحيوان الا ما طال صوفه فتمكن من مقاومة
 البرد كالدب الذي يعيش في المناطق القطبية ، اما الضيف فيموت . اما
 الاقويا . فيخلفون ذرية تتبدل على الزمن ، فتختلف اختلافاً عظيماً عن
 أسلافها ، فان هذه الطيور التي نشق الجوا بأجنحتها ، لم تكن في العصور
 الغابرة سوى زحافات تسمى ثم دبّت ، ثم نبتت أجنحتها فطارت .
 ويلاحظ دروين تبدل الحيوان وهو بعد جنين ، والادوار التي يمر فيها
 ليبلغ كمال نموه ، ويدلك على المشابهة العظيمة التي يراها بينه وبين الاحياء
 السفلى حينما يكون في الادوار الاولى ، يريد بذلك اقامة البرهان على ان
 الانسان - وهو ارقى الاحياء ، يمر في اثناء تكوينه بالادوار التي مرّ فيها
 على التعاقب يوم كان هو ايضاً في الاحياء السفلية ، وهو متشكل في
 الرحم باشكال عديدة توضح لنا هذا « الفلم السينائي » الذي مثله في ثنايا
 العصور ، بادئاً من اسفل درجات سلم النشوء حتى المرتبة العليا وهي التي
 بلغها اليوم .
 ولكن نظرية دروين تنطوي على كثير من الوهن .
 اولاً لان التزاوج المقتعل الذي يفضي الى تبدل الانواع انما هو نتيجة
 اختبار طويل قام به الانسان العاقل المفكر ، فلم يكن من عمل الصدفة
 او ابتكار الحيوان البهيم الذي يلبي فقط نداء الغريزة العمياء . واذا افعل
 الانسان هذه الانواع الجديدة التي اوجدها بالزواج والتلقيح ، فلا تمر عليها
 مدة من الزمن حتى تعود سيرتها الاولى .
 وابسط فلاح في لبنان مثلاً ، يعرف ان بذرة الزيتون الجوي ، الذي
 تعب الفلاح في جعله مشعراً تزرع في الارض فتعطي نبذة برية لا ثم فيها .

ثانياً ان الحفريات تدلنا على انقراض بعض السلالات الحيوانية ،
والكن السلالات الموجودة اليوم وجدت ايضاً قبل التاريخ ، والهياكل
العظمية لم تتبدل ، فكما كان هيكل القرد والفيل في تلك الايام
فكذلك هو اليوم . اما قوله بان الانسان يمر في دور تكونه في الرحم ،
بالمراحل التي رافقته يوم كان في المرتبة السفلى ، فافتراض محض لا يؤيده
برهان ، وتراه ينسب الى الطبيعة العمياء نتائج لا تصدر الا عن ذكاء
وتفكير فنظريته تنطوي على خيال طريف ولا تستند الى علم ممكن .
هذا من جهة تطور الاحياء ولكن هناك تطورا آخر اوسع مدى ،
وابعد صدى ، لان القائلين به نظروا الى المسئلة من كورة الفلسفة لا من
كورة العلم كما فعل دروين ، وادخلوها في باب « ما وراء الطبيعة » يرون
بذلك الى اخضاع المظاهر الطبيعية وأحداث الكون لنظام وحيد يكفل
شرح كل شي . وايست هذه المحاولة بجديدة ، واكبتها بدأت منذ فجر
التاريخ ، وشغلت التسم الاكبر من فلسفة اليونان وعلى الاخص فلسفة
ارسطو وقد تصدى لها في العصور الاخيرة الفيلسوف الالماني ليبنز (Leibnitz)
واعتمدها الفلاسفة الوضعيون في اوربا ، واكن هربرت سبنسر (Spincer)
يعتبر حامل لوائها لانه وضع مذهباً كاملاً ، فلم ينظر الى القضية من جهة
واحدة بل من جهاتها جميعاً ، ولم يبين غرفة واحدة بل شاد صرحاً ضم
مظاهر الكون ، وما عسانا ان نبسط من هذا المذهب في كلمات لذلك
ترانا نكتفي من البحر بقطرات .
يقول سبنسر ان الكون سار من البسيط الى المركب ، فلقد كان
في البدء شيئاً واحداً مختلطاً ، ثم تفرق فتعدد ، وتركز فاستقر .

ويؤمن ان هذا التمريف يشمل الكائنات بما فيها الاجرام الجوية
 والارضية ، واصل الاحياء ، والفكر البشري ، وتأريخ الجماعات ، وصعيد
 العلوم والفنون .
 وفي رأيه ان العالم كان في البدء شبيهاً بككتلة من ضباب يتداخل
 بعضها في بعض ثم تفرقت فنجم عنها النظام الشمسي اي الكواكب
 والنجوم ، زاعماً ان هذه الاجرام وان تفرقت بدداً فقد استمرت بينها
 رابطة النعاون والتجاذب وثيقة الاواصر . اما الكرة الارضية فكانت
 شعلة لاهبة فيها مختلف العناصر ، ثم اخذت تبرد فولدت الطبقات الارضية
 وتجمدت المعادن ، وسالت البحار ، وكانت المظاهر الطبيعية والكياوية التي
 تألفت فخلقت نسمة الحياة على وجه الارض في شكل خلايا بسيطة ثم
 فتشبت ، فكانت الأنسجة والاعضاء ، ثم الجهاز العصبي وهو اول عهد
 الكائن الحي بالاحساس . ثم جاءت الغريزة فتطورت فكانت الذاكرة
 والقوى العقلية ، ثم الشعور والارادة حينئذ صار الانسان انساناً .
 ثم تطور هذا المخلوق الحي فراقه ان يكون ابناً جنسه في غبطة
 وراحة ، فاصبح اجتماعياً أليفاً ، يرى لذة في النعاون مع أضرابه ، وهذه الخطوة
 كانت أساس الاخلاقيات ، ثم تطورت الجماعة ونشأ الاختصاص ، فبدلاً
 من ان يكون الانسان صياداً وراعياً وبنياً معاً ، انصرف كل واحد من
 الجماعة الى ناحية ، وجرى تبادل العمل والمنافع ، ونظمت الجماعات سياسياً
 واقتصادياً وهلم جراً .
 وشمل التطور النواحي الاجتماعية حتى العلوم والفنون ، فكان العالم -
 قبل دور الاختصاص - يرى لزماً عليه ان يعرف كل انواع العلوم ، ثم أخذ

الشعب يتسع تدريجياً، فمن ألقى نظرة على المؤلفات الأولى التي أنتجتها أدمغة القدامى يجدها خليطاً من علم الفلك واللاهوت والطب والتشريع والشعر . وكان الشعر خليطاً بالموسيقى والرقص . ومن نظر الى الياذة هوميروس وجد فيها انواع الشعر جميعاً من غنائي وقصصي وما اليها متداخلة . وبجمل القول ان كل شيء أخذ في التطور والتفرع سائراً في سلم الرقي ، وان العالم يسير من حسن الى أحسن ، فالهيئة الاجتماعية أعضاء متفرقة يعمل كل في ناحية ، ولكنها متعاونة مترابطة ، وافرادها عمال يساهمون في تقدم الحضارة ويؤازرون هذا المبدأ او القرة المجهولة التي تقدسها الاديان، ولكنها قوة لا نعرفها .

هذا موجز نظرية سبنسر القائلة بوحدة الكون وهو كما ترى مذهب يغري الناس - خصوصاً عندما يدخل في التفاصيل المسلم بها - بشكل خلاب ولكن الاساس يظل واهناً يعوزه الدليل ، وقد بقي سبنسر كما بقي التطوريون قبله في عالم الافتراض والخيال . فلم يشرح مصدر الهيولي والضباب الذي تبدد وكان أصلاً للاكون فكان موقفه اذ ذاك شديهاً بموقف الذي تسأله من أين تكوّن النهر فيجبك انه تألف من الينابيع وماء المطر، وان الماء وليد البخار المنكاثف ثم يقف عن الجواب بمد ان تطارحه بعض الاسئلة اذ يصطدم عقله بالمحرك الاول ، بالله أجل جلاله ويسميه سبنسر ونظراؤه : القرة المجهولة .

ثم يزعم هذا المذهب ان التطور هو التقدم وهذا زعم باطل ، فالتطور هو انتقال من حال الى حال ، فقد يكون تقدماً وقد يكون انحطاطاً، فآين مكانة اليونان اليوم من مكانتها العليا بالامس اذ كانت نبياً لحضارات

الدنيا ، واين عظمة الرومان ، بل أين عظمة الدول الإسلامية والحضارة التي طلعت من الصحراء وعبرت البحر الى الاندلس ؟
 إذن فزعم سبنسر واهن من هذه الجهة ايضاً ، ومن جهات أخرى متعددة أهمها انه يعكس الآية فيخرج الاكثر من الاقل زاعماً ان تلك الذرة التي لا حياة فيها ولا عقل تطورت من تلقاء نفسها وبدون ان تديرها قوة عاقلة فخلقت الحياة والانسان العاقل . حقاً لقد جاء صاحبنا بمشكلة يتعذر ، بل يستحيل فهمها قاصداً بذلك انقاذنا من الجهل والنقيض بهذه القوة المجهولة وهي الله عز وجل . فما قولك بصاب بحمى التيفوئيد يأمره طبيبه الحكيم بالاعتصام على عصير البرتقال فيأتي طبيب آخر ويعتبر هذا السائل مرهقاً للمعدة والمصارين فينصحه بأكل اللحم المشوي باعتباره أخف من العصير ؟

لقد بالغ الاستقرايون اي الذين قالوا ان الكون وجد على هيئته الحاضرة وكذلك بالغ سبنسر واصحابه ، والامر الثابت الذي أقره العلم هو وجود التبدل منذ فجر العالم . ولا ريب ان العلم سيفتح في المستقبل آفاقاً جديدة يطل منها على التبدل الذي رافق الانسانية ، وهذا الرأي الوجيه لا يخالف النظرية الدينية بشي . شرط أن نعتبره صادراً عن القوة الالهية ، التي وضعت منذ الازل نظاماً للعالم ، اذ ان التطور هو من ضمن هذا النظام ولقد أصاب الفيلسوف الالماني ليبنتز حين قال ان الطبيعة لا تستطيع وحدها خلق شي . ولكنها تقدر على إنماء البذور الموجودة فيها فتسر هذه البذور من درجة القوة الى درجة الفعل . ان الارض تنبت شجرة اللوز وتجري في جذعها وأفصانها الحياة ولكنها لا تخلقها فان هذه الشجرة الكبيرة الظلال الوارفة

التشاؤم ومشكلة البشر

المتشاؤون في الدنيا أكثر من المتفائلين ، ذلك ان مرارة الحياة تطفو على حلاوتها ، والمعذبون في الدنيا اوفر عدداً من الناعمين بطبيعتها ، ولقد أصاب من مباحا وادي الدموع . وفي الدنيا متفائلون يحاولون عبثاً اقتناع البانسرين بأن يروا رأيهم في العيش ، مثل الصبيح المعاني يحاول اقتناع المريض بأن الاكل الذي يتناوله طيب المذاق ، ولكن في المريض أهدق واكثر اقتناعاً لصاحبه .

وليس التشاؤم مذهباً جديداً فهو قديم بقدم الحضارة ، وكان مهده الاول المنند ، واي المذاهب لم يتأثر بالفكر الهندي ، فان البلد الذي أطلع المهاتما غاندي ، اطلع الوف الغانديين منذ آلاف السنين ، وبجبهه ان يكون مهده بوذا العظيم .

والتشاؤم متشعب الانواع ، فنه ما يكون في مزاج الانسان الذي تلازمه الكآبة ، وقد ينجم ذلك عن هزائم مني بها في حياته الشخصية ، او عن اخفاق في حياته الاجتماعية ، فلا يرى الا الناحية الفاقمة من الحياة ، ويأس من الناس جميعاً وينفر منهم او يلبسهم على دآخل .

ومنه ما يُدعى التشاؤم الشعري ، واصحاب هذه الطريقة ساخطون ، ينظرون الى العالم نظرة المرز . والاشفاق معاً ، فلا يتورعون عن السب .

وحامل لواء هذه الفئة من شعراء الغرب، المتهمك الفاجر، الشاعر العبقري،
لورد بيرون.

أما النشأوم الهندية فتتناول الناحية الدينية لأن بوذا ما أم ان العالم حلم
ثقيل، وان الحياة كلها ألم لما يعتري الانسان من مرض وشيخوخة، ولما يناله
من مساوي. ابناء جنسه، ولما يضطرم في صدره من الميول والشهوات،
فضير للانسان ان لا يعود الى الحياة بطريق انتقص، لان التقص نفسه
ألم. لذلك يجبر بالمرء ان يفظم نفسه عن كل ميل، ويخنق في صدره حب
الحياة فلا يجهد ولا يعمل لشيء، بل تنحل شخصيته تدريجياً ويتلاشى،
تلك هي الترفانا أو نعيم المنورد البوذيين.

وأهم انواع النشأوم هو المذهب الفلسفي القائل بأن العالم شر في طبعه
وجوهره، وانه لا يتقدم بل يسير كراً الى الورا، وينحط من سيء الى
اسوأ. وعلى رأس هذه الطريقة فيلوفان ألمانيان هما شوبنهاور وهرتغن. اما
الاول فيزعم ان الشر يغمر العالم فليس في هذه الدنيا من الخير الا قبس
ضئيل لا يكاد يكفي الانسان عوناً على تحمل الألم. ويستنتج من ذلك
ان القوة التي تسيّر العالم هي قوة عمياء. تبث الغريزة في النبات والحيوان
للتناسل وتغمر المرء بالميل والشهوات لينمو ويتكاثر، وهنا النكبة الكبرى
لان الحياة ليست سوى الألم ويرى ان افضل علاج لهذا الداء، ما رآه بوذا
اي كبت الشهوات فلا يكون نسل ولا ولادة في ما بعد، بل اضمحلال
وتلاشي في احضان الترفانا اي العدم.

أما هرتغن فيقول بوجود الخير نسبياً ولكن نسبته الى الشر جد ضئيلة
فمكان من الأفضل للعالم الا يوجد.

ويذكرنا هذا الرأي بابي العلاء المعري ، بل يذكرني بقصيدي «النسر»
وقد نظمتها في غمرة من غمرات الالم ، ولكنني استغفرت الله في اواخر
القصيدة استغفاراً طويلاً ، ومن مقاطع التشاؤم فيها هذه الابيات :
ما اطيب العدم الهني . وليته لاختق الحياة بناطق وجماد
واجل من سل السيوف بقاؤها مدفونة الشفرات في الاغداد
ما الكون الا البحر يقذف شره متلهب الامواج والازباد
في كل عصف منه فجة أرقم ونواش زرقاء غير بوادي
جيف على الآذي تنشر نبتها وتبث وهن اليأس في الصياد
يا طالب المرجان حفظك عاثر فالبحر مقبرة وجوف فساد
تأكل الحيتان في أغواره مأخوذة بالحلب والابسلاد
كالناس فجار وصرعى لذة أبدية السزوات والابتعاد
ويقول هرتن ان الانسان توهم في بادي . الامر انه مخلوق للسعادة في
الدنيا ، ثم تلاشى وهمه هذا لما شهد المصير الذي تؤول اليه مظاهر العظمة
والترف والمذات ، فتى نفسه بالخلود والسعادة الابدية بعد الموت . ولكن
الانسان بدل رأيه هذا في ما بعد وتوهم السعادة في تقدم البشرية الدائم على
صعيد الحضارة علماً واختراعاً وهذا ايضاً ضلال في ضلال ، فاعسى العلم ان
يخفف من آلام البشرية وشرورها . ويعجب هرتن من الذين يحبون الحياة ،
فيقول بعد المعري :
تعب كلها الحياة فما أعجب الامم لراغب في ازدياد
والحياة معركة لا يخرج منها الانسان ظافراً بل مغلوباً حتماً . ومنتهى
آمال هرتن ان يبلغ الاختراع أوجهه في المستقبل ، فيكتشف آلة ما ، تبدي

العالم بأسره فلا تبقى نسيجة حياة على وجه الارض . وقد توفي الرجل في
 اوائل القرن العشرين ، فلو قدر له ان يبقى حياً الى اليوم ، لابتهج ابتهاجاً
 شديداً بالقنابل الذرية ، لانها كفيلة بتحقيق حلمه .
 وكما ان التشاؤم اقمي رسلاً له في ألمانيا ، فقد اقمي التفاؤل في ألمانيا نفسها
 سندا في شخص الفيلسوف ليبنتز (Leibnitz) القائل : ان هذا الكون
 هو اجمل ما خلق الله من الاكوان المستطاعة ، لانه تعالى منبع كل خير .
 وكذلك يقول الجوليون وعلى رأسهم الفيلسوف سبينوزا (Spinoza) وقد
 زعم الوثنيون القدامى ان : ليس شيء قبيحاً في بيت جوبيتر .
 ولكن المتطرفين في التشاؤم كالمغالين في التفاؤل . يرى غلاة المتغائلين
 كل شيء حسناً ، فلا يهتدون بنهضة ، ولا يجتهدون لتطور . وتماضي افلاطون
 في الابتهاج بالكون كتماذي بوذا في النظرة السوداء . اذ يقول : القاعد
 افضل من الواقف ، والناثم افضل من القاعد ، والموت افضل من كل ذلك
 واذا القينا نظرة شاملة على آراء المفكرين في كل العصور نجد ان
 نشأ الضلال هو التطرف ، وان الحقيقة - وقد كررنا كثيراً هذه العبارة -
 هي بين الطرفين . أجل ان في الكون شراً عظيماً ولكنه نقص في الخير
 كما ان العمى نقص في البصر . وفي نظرية المتشاؤمين كثير من الضلال ، اذ
 يرون التقدم البشري رجوعاً الى الوراء ، ويرون في رقي الكائنات ازدياداً
 اندابه ، وان النبات اقل تعرضاً للوجع من الحيوان ، وان الالم الذي يجتري
 بالانسان يربو على كليهما . وقد فاتهم ان اللمة والالم لا يكونان دائماً في الجسم .
 فقد يشعر الانسان الراقى - ولو مريضاً مثلاً - بغبطة نفسانية ، ونشرة
 روحية لا يبلتها الجاهل المتوحش ، ولو طغى وجهه عافية ونضارة . ان

هذه القوة التي تدير العالم ويذمونها شريرة عمياء ، هي قوة حكيمة تركز في الكائن الحي طبيعة البقاء ، بما تفوز به فيه من ميل الى النمو والتناسل ، فاذا كان في الناس فئة تحب الموت ، فالأكثرية تحب العيش . أو ليس شوبنهاور نفسه - وهو الذي نصح للناس بالامتناع عن الزواج لتلايخونوا على سواهم - أقدم على معايشة خلية واستولدها سقافاً ؟

وأصدق برهان على شذوذ نظرية المتشاؤمين هو تكذيب الواقع لأرائهم ، لانك ترى الناس في كل عصر ومصر يغالبون الموت ، يناضلون في سبيل الحياة ، يدفعون الموت بكل ما لديهم من وسائل . ولو كان الألم هو المسيطر لانتحر أكثر الناس بل الجنس البشري برونه . وان المنتصرين أنفسهم ، لا يتخلصون من الحياة كرهاً لها ، ولكنهم أرادوها وردة بدون أشواك فخانهم الحظ ومسوها شوكة بلا ورد . والصحيح أن الحياة ليست جنة والناس فيها « على سرر متقابلين » وليست جهنماً يشرب فيها الخمر . ولكنها مسرح الامتحان ومضمار للجهاد يختلط فيه الشر بالخير ، ومهمة الانسان ان يخنق الشر ويوسع للخير .

وهنا يفضي بنا البحث الى عرض مشكلة الشر أو الإلزام بها للإلزام تحفظاً لأنها أوسع من ان تنحصر في مقال . وقد حاول المفكرون منذ فجر التاريخ شرح هذه النقطة ، ولكن الشر وح لم تزل ناقصة حتى يومنا هذا . آمن الانسان بجالت حكيم مديبر لهذا الكون يعمره بعنايته ، ويفيض عليه من جوده وبهائه . ثم تطلع الفكر الى ما حوله فرأى الشر في العالم . فهناك الجرائم الاجتماعية والأمراض الفتاكة والحروب والطوفان والزلازل وما شابه ذلك ، وكلها شرور ونكبات ، فكيف يستطيع التوفيق بين

حكمة الباري وجودته ، ووجود هذه النكبات على وجه الارض ؟ ولقد كان في وسع الخالق ألا تقع هذه الامور ، فلماذا سمح بوقوعها ؟ الله نور والشر ظلام والنور والظلام لا يتفقان !

ولا ريب ان هذا التناقض الظاهري كان السبب في تفكير المزدكيين بوجود إلهين : احدهما « أهيرمزدا » مبعث كل خير ، وثانيهما « أهريمن » مصدر كل شر ، وانهما في صراع مستمر ، ولكن الغلبة ستكون في آخر الزمان لأهيرمزدا . وقد وقع في هذه الضلالة أغوسطينوس الكبير نفسه قبل ان يصبح علماً من أعلام المسيحية . وانت ترى ان هذه النظرية عقيمة ، فمثل القائلين بها مثل من يعلل لوجود الظلام والبرد القارس بأن يفترض وجود شمس سوداء باردة غير الشمس التي نراها وهي مبعث القوة والحرارة والحياة . قالوا كيف يسمح الله الرحيم بأن يتألم بنو البشر في هذه الحياة ولا يكون لعذابهم نهاية الا بالموت وهو شر أيضاً . ولكن آتى للانسان وهو ذو العقل المحدود بجانب اللانهاية أن يدرك حكمة الله ، ويحيط بغاية الخالق وهو المخلوق الضعيف ، ونسبة ما يعلمه الى ما يجمله كنسبة نقطة من ماء البحر الى البحر . وما أوتينا من العلم الا قليلاً .

قلنا ان النقطة التي تسترعي انتباه الانسان في مشكلة الشر هي - على الاخص - الألم الذي يعتره . ويرى أعلام المفكرين ان الانسان مسؤول جزئياً - على الاقل - عن المصائب التي يلقاها . فهو لو تجرد من الانانية والكبرياء والميول والشهوات ، وعن هذه المضيئة التي ينظر من خلالها الى أتفه الارزاء فيراه جسيماً لخفف كثيراً من آلامه . ثم ان الله اذ ركب الحس في طبيعة الانسان زوده بصفة تكون سبباً لفرحه ايضاً ، لان في الحياة

افراحاً واطراحاً .

وللألم منافعه من وجوه عديدة . فالولاء لما اهتدى الطبيب الى معرفة الداء . فاستأصله ، وأبرز الامثلة على ذلك الزائدة المعوية . ولولا الشعور بالبرد لما ابتدع الانسان الكساء ، ولولا التعب لما اخترع الآلات والمراكب التي تحمله على الارض والماء ومناكب الهواء . لذلك كان الألم مهمازاً للانسان يدفعه في سبيل الرقي صاعداً أبداً . هذا فضلاً عن كونه مطهراً للنفوس ، فالألم هو اللجام الذي يكبح جماح الحيوان العاقل ، اذا بطر واشتط في طغيانه ، ويسقط عن عينه هذا الحجاب الخادع ويعلمه ان دون الورد أشواكاً . أما الموت فأمر شر فيه وهو النتيجة الطبيعية لكل مركب فضلاً عن كونه طريق الخلود . ولكن المتذمرين اذا أقنعتهم هذا الرد على مشكلة الشر الطبيعي الجسدي البحت فانهم يمدون الكرة من جهة أخرى ، متسلحين بوجود الشر المعنوي فيقولون ان المظالم والآثام التي يرتكبها الانسان هي مخالفة صريحة للأمر الالهي واعتداء على العدل السماوي ، فكيف يسمح الله بوقوعها ؟ ولماذا خلق الانسان شريراً فاسد الطبيعة ؟

أجل كان في استطاعة الله أن يخلق الانسان طاهراً ، ولكن الذين يقولون بذلك يتجاهلون مسألة الحرية ، وبدونها لا يكون الانسان إنساناً وهي حرية مقيدة بالواجب والنظام . فلو كانت مطلقة لتساوى المرء والحيوان ، ولو حرم منها الانسان وأجبر على عمل الخير لكان مسيراً فلا ثواب ولا عقاب ، وعندما يعمل الشر يكون الله قد فعله بواسطة الانسان ، وحاشا أن يكون ذلك . ولو خلق الانسان طاهراً بريئاً من كل عيب لكان إلهاً أو ملاكاً على الاقل . ان حكمة الله أجل مما نرى . تبارك الله

الكون ، وان هذه القوة آخذة في النمر المستمر الذي يجمع الحياة على الأحياء . وقد كان هذا الرأي مذهب الرواقين اليونان وعلى رأسهم الفيلسوف زنون (Zénon) . وحمل لواء هذه الضلالة في الشرق الأقصى المفكر الصيني تشووي (Tchoui) ، الذي زعم انه متم للاصلاح الذي بدأه كنفوشيوس وهو في الحقيقة جد بعيد عن كنفوشيوس الحكيم المعتدل . أما في العصور الاخيرة فقد نادى بهذه الفكرة الفيلسوف شلنغ (Shelling) القائل ان في الكون قوة حيوية لا تزال في تطور صاعد ، كانت كلجنة في النبات ثم تحركت في الحيوان ثم استيقظت تلم اليقظة في الانسان ، ثم ترقى به ورتقي بها ساعياً دائماً نحو مثالية ان يدركها أبداً . وهذه الفكرة أوحى كثيراً الى دروين ونظرائه في مذهب التطور . وتوعم فئة أخرى من الحلوليين وهي أقل إلحاداً من الاولى ان الجوهر الثابت هو الله ، وان العالم مظاهر فرارة متبدلة . بهذا علم الايليون اليونان (Les Eléates) وبهذا قات الافلاطونية الجديدة في مدرسة الاسكندرية ، وكذلك الفيلسوف سبينوزا (Spinoza) زاعماً انه لا يمكن فصل العالم عن الله ولا فصل الله عن العالم . وخلفه هيجل في القرن الثامن عشر ولكن هؤلاء الفلاسفة ، برغم ما يتمتعون به من الشهرة المريضة ، خبطوا خبطاً عظيماً ، فدغموا الله بالعالم والعالم بالله فوقعوا في تناقض لا توفيق بعمده ، لانهم مزجوا المتناهي باللامتناهي ، والثابت بالمتبدل ، والعاور الغافي باللازلي الدائم ، وهذا مزيج يرده العقل الذي لا يستطيع تصور الشتاء والصيف على سطح واحد . اما القائلون منهم بان الله في تطور مستمر فانهم يخرجون الاعلى من الادنى ، والروح من المادة . والحقيقة هي عكس ذلك فان القليل يكون

في الكثير فالمشرة تنطوي على الحمسة ولا يعكس .
ولم يزل الحق بجانب الفيلسوف الوثني ارسطو القائل بان العقل موجود
قبل القوة والسبب قبل المسبب والله تعالى موجود قبل كل شي . . ويبدو
ضلال الخالوليين أكثر وضوحاً عندما تضعه على المحك النسائي . فعندما تعتبر
مثلاً ان زيدا مظهر من مظاهر الكون لا سوى ذلك ، فقد نفيت عنه
شخصيته المستقلة وأصبح آلة مسيرة بقوة عيا . فلا يمكنك اذن ان تعاقبه
لجريرة ارتكبها لانك محوت شخصيته ولاشيت حرية ، فأعماله وحر كاته في
هذه الحالة أشبه شي . بجبات السبحة يجمعها خيط واحد هو هذا الانسان ،
ولكنها حبات متفرقة ، غير متداخلة ، يمكنك تحريك واحدة منها بدون
ان تتحرك الاخرى .
وان وجداني يملني اني شخص كامل مستقل لا قطعة من هذا الذي
يدهونه الكل (Le Tout) ، واني فرد من افراد المجتمع ، له حقوقه
وعليه واجباته مستقلة (ولا تزر وازرة وزر اخرى) .
يقول الخالوليون بوجود الخلود ولكنهم خاود أدنى من العدم لانه في
نظرهم بقاء الجوهر ، اي هذا الكل اللامتناهي . مثال ذلك ان امرؤ
القيس يموت فلا يشعر بشي . بعد الموت فينسى (قفا نبيك من ذكرى حبيب
ومتزل) ولا يسأل عن الخمر ومواقف الزبية مع عتيقة بل يندمج في هذا
الكل ويتلاشى كما تتلاشى قطرة الماء في البحر ، غير عالمة من اين أتت
والى اين تعود إن تبخرت واستحالت مطراً . وكذلك امرؤ القيس فقد
يعود ثانية الى الحياة لابساً هذه المرة جسد نابليون الاول فيكون قائداً
هظلياً ويخطب بالفرنسية ناسياً البلاد العربية ومواقفه على الغدران وذبح

نافته لامذاري والتاجن عليهن .
 وأقطع أخطار الحلوية هي ما نجره على الاخلاقيات من تكبات
 وارزاء . انها مذهب يؤله كل شيء . ومشي أمت كل شيء . فقد بررت كل
 شيء . الجهل والخطيئة والمعاصي الخ .

قال المؤرخ في معرض الكلام على ديانة المضربين القدماء : لقد ألهوا
 في مصر كل مظاهر الطبيعة ، الكواكب والنجوم والنيل والشجر والحيات
 والسنائير والبقر ، أجل لقد ألهوا كل شيء . ما عدا الله . ملخص القول ان
 الحلوية إلحاد واكثه إلحاد علمي ، فيه تناقض غريب فالله هو كل شيء . والله
 ليس بشيء . كل ذلك في وقت واحد .

فالخالوي الذي يزعم اني انا وانت وهو آله يزعمنا معصومين عن الخطأ ،
 ويؤزم الخطأ نفسه . مظهراً من مظاهر الالوهة ، فأني فرق عملي بين من يرى
 هذا الرأي ومن يكفر ككفر صريحاً فينكر وجود الله ، وبالنتيجة وجود
 الدين والاخلاقيات والنظام وما يتصل بها إنها صنوان وكفتا ميزان .

قال صاحبي وهو رفيق جبران انه سأله يوماً عن معنى قوله : يا رب
 انا أمسك وانت غدي وكلانا نشور معاً في التراب أمام وجه الشمس ، فوعده
 جبران بالجواب بعد حين ولم يجب .

والسائل والمسؤول كلاهما يعلم المراد بذلك . الا رحم الله المسؤول فقد
 كان من أنبغ توابغ الشرق معها كان مذهبه ، وحفظ لنا السائل فهو في
 الذنابات العلى علماً وخيراً وخلقاً .

الرواقية

الرواقية مذهب فاسفي عرفه العالم القديم في اثناء القرن الثالث قبل
المسيح . ويعتبر هذا المذهب رداً عنيفاً على أتباع ابيقور (Epicure) فوجب ان
علينا ان نعرف المذهب الابيقوري اولاً ليعتد لنا بعد ذلك ايضاح
مذهب الرواقيين .

بلغت الفلسفة اليونانية أوجها في عهد افلاطون وارسطو العظيم ، التلميذ
الذي فاق معلمه . وقد شغلت افكار المفكرين في تلك العصور قضية (ما
وراء الطبيعة) . وانها لمشكلة خطيرة دار حولها العقل الانساني منذ بدء
الفكر ، لان المرء لا يقتصر على التفكير في ما يعرض له كل يوم من
مشاكل الحياة ومظاهرها بل يحاول ان يخترق الحجب ليرى ما سيؤول اليه
امره بعد هذه الحياة الدنيا . ومن هنا بدأ البحث في ما وراء الطبيعة فأبلغه
الفيلسوفان افلاطون وارسطو الذروة التي لم نستطع ان نتجاوزها في القرن
العشرين ، واننا لا نبلغها الا بشق النفس فتشرف منها على آفاق شتى .
غير ان الفكر اليوناني تعب من التصيد في الآفاق العلى ، فرأى بعد
عهد الفيلسوفين العظيمين ان يتزل الى الارض ويستريح قليلاً ، فيصرف
همه الى النظر في الاخلاقيات واحياة العملية فيتخير افضل الطرق مستنبطاً
بآراء الاساتذة السابقين لانهم جالوا في هذا الصعيد ايضاً جولات بعيدة
المدى .

وما الابيقورية الا احد هذه المذاهب العملية ، وقد سميت بهذا الاسم نسبة الى مؤسسها ابيقور المولود سنة ٣٤١ ، المتوفي سنة ٢٧٠ قبل المسيح في بلدة من ضواحي اثينا . وقد كان ابيه اختصاصياً في اصول اللغة وقواعدها ، اما امه فكانت تتعاطى العرافة والتنجيم . ولما بلغ ابيقور السادسة والثلاثين من العمر استقر في اثينا حيث اشترى حديقة اسس فيها مدرسة للفلسفة ، زاول التدريس فيها طول حياته . وكان الرجل ابن العريكة لطيف المشرقي قوي العزيمة ، وليس ادل على ارادته الحديدية من صبره الطويل على الالم الذي قاساه في مرضه الويل الذي اودى بحياته .

وقد أثر ابيقور في أتباعه تأثيراً عظيماً حتى كادوا يؤلفونه . وفي عداد تلاميذه اعظم رجال ذلك العهد ، ومنهم لوكريس (Lucrece) وقيصير وهوراس .

اما مذهب ابيقور فطويل نخبزي ، منه كلمات تدل على نظراته الاخلاقية . فالرجل لا يؤمن بالحياة بعد الموت . وذهاباً من هذه النقطة يرى ان ينشد الغبطة في الحياة الدنيا ويعتبر قوام السرور طمأنينة النفس والراحة وتجنب الالم والحلود الى السكون ، زاعماً ان الطموح الى الشهرة والمجد ، والسعي لكسب المال ، والحب العائلي وما يتصل بذلك ، هي من اسباب الالم والقلق الدائم ، فعلى المرء ان يتحاشاها ، وينصح بالتجرد من الحب والحرف والميول ، ويقول بوجود ممارسة الفضائل والاعتدال في العيش .

اما الرواقية فقد سميت كذلك لان اربابها كانوا يجلسون في رواق معتطيل ، وهي هنا ترجمة للفظلة Stoicisme الفرنسية . ومؤسسها هو الفيلسوف زنون (Zénon) المولود في جزيرة قبرص وكان معاصراً لابيقوروس .

وفلسفة زينون تدور ايضاً على طلب السعادة ولكن عن طريق يختلف تماماً عن طريقة الابيقوريين ، لانه طريق الكد والعمل ، فاعجب لهذا الفيلسوف الذي يرى السرور في النذاب لا في الراحة التي يحسبها شراً . وفي رأيه ان هركيل (Hercule) هو المثال الاعلى للبشرية ، لانه قام باعمال عظيمة تدنيه من الالهة .

والرواقية تدعى بالحلوية معتقدة ان العالم مسيرٌ بأسباب جبرية خفية ، وان الانسان مركب من عنصرين كلامهما مادي ، ولكن النفس الطيف من الجسد ، وهي نسمة مضطربة . ففكرة تبعث الحياة في كل شيء . وان العالم مجموعة اجزاء بينها ارتباط وثيق . فالكون في نظرهم شبيه بجيوان هزل اعضاءه الكائنات ، وان روح العالم هو الله او القوة العاقلة التي تسيره ، وان روح الانسان قبس من النار الالهية رافقته يوم مولده وستعود الى مكانها بعد الموت ، وتسمى هذه الشملة في الانسان روحاً وعقلاً وفي العالم الهماً . ولنضرب لك مثلاً على ذلك :

تطلع قطرة الماء من البحر بخاراً ، ثم تتراكم غيباً ، وتندهل مطراً ، فتتفجر الارض عن نبع غزير . ولنفرض ان هذا النبع انبجس في سهل البقاع فكون نهرأ فدعي هذا النهر باسم الليطاني فان هذا الاسم يتبدل عند باوغه شاطي . البحر فيدعي نهر القاسمية ، ولكن الليطاني والقاسمية سيل واحد ينصب في البحر ، عائداً الى مصدره الاول .

اذن فالكلمات الثلاث : الله ، العقل ، الطبيعة ، تعني شيئاً واحداً . وانك لتسمع بعض الذين يميلون الى الاحاد في ايماننا هذه يقولون . ما يقارب هذا القول ، فيزعمون ان الله والطبيعة شيء واحد ، وهم فئة من السطحيين

الذين يرهقهم التفكير العميق . مسأله ربه انما هي ان يبين نفسنا
 ويزيد الرواقيون على ذلك ان كل شي . مسير بقضاء وقدر ، فكل
 ما نعتبره وليد الاتفاق او الحرية هو جبرية محضة ولكننا نجعل الاسباب
 فنسبى الاشياء بغير امكانها .
 وكنت اود - لو اتسع المجال - تفنيد نظرية الجبرية ، ولكنني احيل
 السامع على نظرية الفيلسوف برغسون في الحرية وقد بسطها مفصلاً في
 كتابه الموسوم : « بمطيات الوعي البديهية »
 (Essais sur les données immédiates de la Conscience)

فاني لم اجد في المتقدمين ولا في المتأخرين من حل المشكلة كما حلها
 برغسون العظيم .

ومن الغريب ان تجد الرواقين انفسهم يلجأون الى الله ويعتبرون
 الانسان مسؤولاً عن أعماله وهذا تناقض واضح بين قولهم وعمالهم .
 ولكنهم لا يهتمون كثيراً للتوفيق بين الظاربية والتطبيقي فيكتفون بالتسليم
 والاذعان للواقع ، فان الحكم والحرية تقومان عندهم بالصدر على ما يكون
 اذ يعتبرون الواقع صادراً عن العقل اي عن الله ، فلا يكون الاحتجاج اذ
 ذلك الا اعتراضاً على الله . ومن طالع سفر ايوب رأى ان اصحابه الثلاثة
 الذين عادوه إبان محنته ، عنفوه على شكواه وتذمره معتبرين ان كل
 اعتراض يشبه ايوب الصديق ، هو ثورة على العناية الالهية ، ولكن هناك
 فرقاً شامخاً بين إله التوراة وإله الرواقين .

ويرى الرواقيون ان اصل المعرفة الحس ، لاننا عندما ندرك الاشياء
 بواسطة الحواس الحس يبقى منها في نفوسنا اثر يلتقطه العقل ثم يتفهمه

فيصبح هذا التفهم فكرة عامة ومنها يكون العلم . فان العين مثلاً ترى
 حيواناً يسير على اربع فيلتقط العقل هذه الصورة ثم يتفهّمها فيدرك ان هذا
 الحيوان الطويل الذنب ، الرهيف القوائم ، البارز الصدر ، السريع الجري ، وكل
 ما شابه من الحيوان هو من فصيلة الخيل . ولا ننسى اهمية هذه الفكرة
 يومئذ وهي اساس التجريد في الفلسفة . فالرواقية لا تتفق مع الفلاسفة
 ويشبه زينون الحس بالكف المبسوطة ، والاتقاط بالكف المنقبضة نصفياً ،
 والادراك بالكف المقبوضة تماماً ، والعلم بالكف المنقبضة انقباضاً شديداً
 تشدها اختها القبضة الثانية . فالرواقية لا تتفق مع الفلاسفة الذين
 فالرواقية اذن ترتب درجات المعرفة بحسب مراتب القوة والجهد ، وعلى
 قدر جهاد المرء وتشده ترتفع مكانته في الفضيلة . ومن هنا ندرك قوة
 الرواقين وصبرهم على الشدائد حتى انهم يواجهون الموت باسمين . وقد بسط
 الشاعر الفرنسي الفرد دي فيني (Alfred de Vigny) صورة رائعة للرواقية
 في قصيدته التي عنوانها : موت الذئب . فصور لنا ذلك الحيوان الذي ارداه
 الصيادون فوق يتخبط في دمه ، واخذ يلحسه بلسانه وظلّ راسخاً كالطود
 لا يستثير شفقة ولا حناناً ولا شماتة ، بل يغمض عينيه كما يغمضها
 للنوم . فالرواقية لا تتفق مع الفلاسفة الذين
 اما في الاخلاقيات فالرواقيون يعتبرون ان الخير الاوحد هو الفضيلة لا
 سواها . وان العمل الفلاني لا يكون شراً او خيراً بحد ذاته ، بل
 بالارادة التي نصرّفها اليه ، وبعبارة اوضح ان الاعمال بالنيات . فالرواقية
 وقد تفرعت على هذا المبدأ نتائج عديدة : اولها ان كل شي ما عدا
 الفضيلة لا شأن له ولا اهمية ، فاللذة والالم ، والغنى والفقر ، والصحة

والمرض ، والحياة والموت ، ليست خيراً ولا شراً بنفسها ، فالشر الوحيد هو الرذيلة . وثانيها ان الفضيلة لا تكون الا مطلقاً ، فالاعمال الحسنة تتساوى ، وكذلك السيئات لا درجات فيها ، فمن اخطأ في واحدة اخطأ في الكل ، ومن حاز فضيلة واحدة نال الفضائل كلها . فترى بما تقدم ان اصحاب هذا المذهب يقفزون من الطرف الى الطرف المقابل . فمن لم يكن حكيماً عاقلاً كان مجنوناً ، ومن لم يكن مسرفاً فهو بخيل ، وقد قال الشاعر :

بين تبذير وبخل رتبة وكلا هذين ان زاد قتل لهما لمسته
 اما هم فقد دللوا على نظريتهم بالمثل الآتي :
 ان الغريق غريق سواء غرق على مقربة من شاطئ البحر او في
 الاجرة ، وثالثها ان ثواب الفضيلة في الفضيلة نفسها وهي اعلى مراتب
 العظمة ، وهما طراً على الحكيم يظل سعيداً ، فهو سعيد نفسه ، وثروته
 عقله ، وانها الثروة لا تنالها ايدي اللصوص . اجل ولكن ما هي الفضيلة
 في نظرهم ؟
 قال زينون : يجب ان يعيش الانسان وفقاً لاحكام الطبيعة ، وبما ان
 العقل هو الذي يميز الانسان عما سواه فقد تحتم عليه ان يتصرف بموجب
 احكام العقل الذي لا ينحصر فينا فقط بل يتعدانا الى الكون بأكمله ،
 لذلك وجب علينا السعي في طريق الكمال ، والعيش في وفاق واتحاد مع
 سائر الناس لانهم اخواننا في الانسانية التي تولد عائلة كبرى عديدة
 الافراد ، فلا تقوم الفواصل بين هؤلاء الاخوة ، فيكون العالم كله وطناً
 واحداً للجميع . ويجب ان نخلق فينا كل الميول لانها مضادة للعقل ، وعن

ذلك نجم مبدؤهم المشهور : تحل واحرم نفسك . . .
 ولقد طرأ على مذهبهم بعض التعديل باختلاف الزمان . فلقد اجمع
 اتباعه على السير في هذه الحياة وفقاً للنهج الذي تلميه علينا الطبيعة ولكنهم
 اختلفوا في تفسير هذا النهج ، فزعم بعضهم ومنهم شيشرون الخطيب
 الروماني الاشهر ان ذلك يعني تلبية نداء الميول التي تحملنا على الغذاء
 والرقاد والتناسل ، ثم السعي وراء المعرفة والشهرة ، وان نقوم بواجباتنا
 الاجتماعية وكل ما يتصل بها من رقي في سلم المعرفة . فيكون الناس فئتين
 الفئة العادية وهي التي تبلغ ما يتيسر لها ، والفئة الممتازة التي تعمل لا
 للنفع الشخصي العادي بل للفضيلة في سبيل الانسجام الكوني . وانت ترى
 ان في هذا التفسير خروجاً على الاصل الذي ينظر الى الخير المطلق او الشر
 المطلق ، ويرى الاعمال بالنيات ويتساوى لديه الغريق على الشاطئ والغريق
 في اللجة .
 ويرى بعضهم ان الخضوع لحكم الطبيعة هو طاعة للعقل الذي
 يلي علينا مسلكنا الخاص ووجوب اتحادنا مع سائر البشر . وان العقل هو
 كد وجهاد اي قوة ايجابية . وبنا ان الميول والشهوات هي قوة سلبية
 فعلى العاقل ان يخنقها فيه فلا يبالي بالخوف والالم والرحمة لانها مضادة للحرية ،
 وعليه ان ينقطع عن اللذة ويتحمل العذاب فيجب ان يبدأ بتقوية الارادة
 والتمرن على الاحتمال بدون تدمر أو شكوى . وهذه النظرية بلغها الرواقيون
 في دررهم التطوري الثالث ، وفيها ايضاً خروج عن الاصل ورجوع عن
 التثبت الجبرية واعتراف بوجود العناية الالهية وخلود النفس . ولقد اوجبت
 هذه الفئة من الرواقيين ، ومنها ابيكتت (Epictète) العظيم - وسنتكلم

عنه - على أتباعها ان يتصلبوا ويتعمدوا الألم كما يستقبلون اللذة ، فلا يتأثرون بالغضب والحب والحقد حتى ولا بالشفقة لانها ضعف ، ولا يتمنون الاماني التي لا يد لهم في تحقيقها . وليس في مقدور الانسان سوى ارادته يتصرف بها كيف شاء ، اما الخارجة عن مقدورنا فهي الصحة والمرض ، والثروة والفقر ، والرفعة والهوان ، وهي اشياء لا اهمية لها ، فليس الموت شراً ولا الصحة خيراً . وانما نظرنا اليها بهذا المنظار يجعلها كذلك . قال ابيكتت : لا تعلق سعادتك الا على ما في يدك .

ومن نظر بدين الانصاف الى مذهب الرواقين وآهم محققين في زعمهم ان الفضيلة خير وان الرذيلة شر ، واكتنهم يغالون في كلا القولين . ومن الخير الا يستسلم الانسان للحس فيكون ضعيفاً ، اذ لو كان ليس من الخير ان يعمل على ازالة الحس فينقطع قلبه عن الشفقة ، وابن الخير في الفسوة . وجدير بالانسان ان يخلق الميول الفاسدة لا ان يلاشي كل ميل فيه . وما الفنون الجميلة الا وليدة الميول ، ولولاها لما كانت موسيقى بتهودن وباخ ولا روائع رافائيل وليوناردي قشي (Léonard de Vinci) ولا شعر شكسبير ودانت ، ولا صوفية ابن الفارض ومحيي الدين ابن عربي وسواهم من اعلام البشرية في الفن والتصوف والقداسة .

ومما يؤخذ على هذا المذهب عدم ترتيب الدرجات في الخير والشر ، وسكوته عن واجباتنا تجاه القربى واقضاره على بحث واجباتنا السلبية نحو انفسنا ، وإهمال الايجابية منها وهي الالهم . فهو يقول : لا تفعل كذا ، ولا يقول قبل ذلك افعل كذا . وانت ترى ان القوة هي الركن الاساسي في هذه النظرية رامية الى تحميل الانسان فوق طاقته والصواب في

مرفس اوريليس

أو الأمبراطور الفيلاسوف

MARC - AURÉLE

لا يعظ الناس مثل رجل عظيم يكون هو نفسه مثلاً حياً للأخلاق
الكبيرة فيعمل بما يقول ، او يعمل بدين ان يقول . ولا فضل للزاهد اذا
كان مملقاً فقيراً بل الفضل للمثري الكبير اذا كان زاهداً . كما انه لا فضل
للسبع اذا كف عن تمزيق ضحاياه لانه متزوع الانياب والاظافر . والرجل
الذي نتحدث عنه الآن كان امبراطوراً وحسبه ان يشأ التناقد اليه الرغبات
ولكنه لم يرغب الا في الخير .

ولد الرجل في الربع الاول من القرن الثاني للميلاد وكان اندلسي
الاصل ، شهد النصر في روما ، وكان ابوه رمزاً للقوة والخلق القويم وقد
توفي وابنه لم يخرج عن الصبر بعد . اما والدته ليسيلى فكانت من اتقى
النساء وافضلهن فهي لم تنصرف على الارتداع عن الشر بل لم يقف خاطرها
على فكرة شريرة مطلقاً - على ما يزعم المؤرخون - وكلا الابوين وثني من تبالا.
ذلك الزمان . وكانت الام مضطربة بأداب عصرها ؛ وحرصاً على صحة ولدها
الضعيف البنية ، وتلافياً لما قد يجره عليه الاختلاط بالتلامذة من عدوى اخلاقية
فقد اختارت له الاساتذة يعلمونه في البيت . وبرزت في الولد اعظم صفاته
منذ صغره ، فبدت عليه الرصانة والصدق والميل الى الفلسفة وظل هذا

الميل بنمو بنمو اجتهاده ، ومنذ بلوغه الثانية عشرة من سنه اظهر ميوله الى الرواقية
ورغب في التقشف ، فحاول ان ينام على الارض ، واكثرت نزولاً على رغبة
امه رضي ان ينام على جلود الحيوانات . ولم يثنه اطلاعه الواسع على
اللغة والتمرس بالفنون الجميلة عن ميله الفطري الى الفلسفة . ومن دواعي
الفخر ان يكون احد اساتذته لبنانياً الا وهو مكسيموس الصوري ، غير
ان ابرز اساتذته الذين لقنوه علم الخطابة هو كورنيليوس فرونتون
(Fronton) . واننا نجترى . بمقطع من كتاب بعث به الى استاذه ، وهو
ينم عن قدره لمعلمه ، وعن تواضعه وميله الى الفلسفة الرواقية والخير .
قال الامبراطور : « ان في رجوعك يا استاذي عذابي ونعيمي معاً ، اما
نعيمي فلا تسليني عن سببه ، واما عذابي فلائك مهديت الي بموضوع اعالجه
ولم امسه حتى الآن ، ولم يكن ضيق الوقت سبباً في ذلك ، بل ثنائي
منه انعكاسي على مؤلف اريستون (وهو فيلسوف رواقى) . وهذا
الكتاب يهديني الى طريق الخير والفضيلة ، ورائي بعيداً جداً عن انطاب
الفضيلة الخيرين فتأمل كيف يحمر وجه تلميذك خجلاً لانه بلغ الخامسة
والعشرين من سنه ، ولم يزدن بعد بهذه الحلى النفيسة القيمة ، لذلك تراني
اعاقب نفسي فأثور وانقطع عن الطعام » .
وقد تزوج بزوجة صالحة هي فوستين بنت الامبراطورة . ورزق اولاداً
مات اكثرهم في الطفولة . وعندما تسلم العرش الروماني لم يبدل الرجل
شيئاً من تواضعه واخلاقه الملائكية بل اضطلع بهام الامبراطورية الواسعة
الاطراف لا يميل ولا يهمل برغم النكبات التي امت بها من طوفان واوبنة
وحروب متواصلة لم يكن فيها الا مدافعاً . وكانت هذه الحروب تقتضي

نفقات ابى ان يرهق بها كاهل الرعية فعمد الى فرش قصره والمجوهرات الخاصة به وبالامبراطورة فباعها بالمراد العلي واستغرق البيع مدة شهرين بالنظر لكثرتها . ثم ارتدى الثوب العسكري وراح يقاسي مع جنوده ما يقاسيه آخر جندي من البرد والتعب والحربان . ويذكر المؤرخون معجزة وقعت في احدى المعارك ملخصها : ان جنوده اجهدهم المطش وكادوا يهلكون ، فجادتهم السماء بمطر منفض فاستقروا . اما اعداؤه فقد امطرتهم السماء برداً وصواعق مزقتهم فانهمزوا بشر هزيمة . وقد نسب بعضهم هذه المعجزة الى رقى السحرة وهذا طبعاً من قبيل الخرافة ، وعزاها بعضهم الى وجود بعض اتقياء المسيحيين في جيشه ، ولكنني اجرؤ على القول بانه اذا كانت ثمة اعجوبة فقد وقعت من اجل الامبراطور الصالح ، لان الفضيلة لا تتقيد بدين او مذهب ، وقد يكون غاندي على وثنيته قديماً عظيماً .

وقد خانه أحد قواده كاليوس وكان حاكماً على سوريا فأشاع موت الامبراطور اذ علم انه مريض ، ونادى بنفسه امبراطوراً . فعزم مرقس على الهجى الى سوريا ليفاوض القائد الحائن قائلاً : اني ساتنازل عن العرش بدون اراقة دم جندي واحد اذا رأى مجلس الشيوخ أن خصمي أفضل مني لمصلحة الامبراطورية . وعلم الجنود بكذب القائد فرثبوا عليه فقتلوه . واحتر أحد الضباط رأسه وجاء به الامبراطور فبكى ، وصرف وجهه عن هذا المشهد قائلاً : لماذا حرمتوني من لذة الفران لعقوق كنت أبني اكتساب صداقته من جديد .

أما وقد حرم هذه اللذة فهو يصفح من جميع الحونة الذي تواطؤوا عليه مع القائد القليل . وكان الامبراطور يستقبل بالهتاف والفرح ، ولم يستطع

اليهود فهم الجليل ، فظلوا عصاة مارقين ، فاكتفى الامبراطور ان هتف :
 آه يا مرقس اوريلس ستألم كثيراً لان بعض الناس لا يفهم جودتك .
 وقد ماتت الامبراطورة التي كانت ترافق زوجها في حروبه فتكون بمثابة
 أم للجنود المرضى حتى لقيت بأم المعسكر . فحزن عليها زوجها ودفنها
 دفناً لائقاً بمثلتها . وكانت وفاتها في خريف سنة ١٧٦ بينما كانت عائدة
 مع الامبراطور الى مقر الملك . وقد ولدت هذه الزوجة الصالحة ثلاثة عشر
 ولداً وظلت طول حياتها مثلاً اعلى للتواضع والخير ، وقد أقام الزوج هيكلًا
 بجانب قبرها عهد بجراسته الى الكهنة . وبلغ الامبراطور في طريقه أثينا
 مدينة النور ، وكعبة الفكر في العالم القديم ، فلم يغفل عن تشجيع العلم ،
 وكيف يغفل وهو العالم الفيلسوف والمحسن الحير . فأعطى الهبات السخية
 لعلما . أثينا ، وأجرى على اساتذة الفصاحة والفلسفة مرتبات سنوية يقبضونها
 من بيت المال ، بقطع النظر عن المذاهب والآراء ، فقد أعطى سائر المدارس
 مثلما وهب مدرسة الرواقين التي تمذهب بذهبها ، وشملت هباته أيضاً مدرسة
 الابيقوريين خصوم الرواقين الالدا . ذلك ان النفوس الكبيرة لا تميز في
 الحير بين ملة واخرى ، عاملة بالحكمة القائلة : « اخلق كلهم عيال الله ،
 واحبهم اليه أنفعهم لعياله » .
 ان مرور الامبراطور بأثينا ايقظ في نفسه رغبة جديدة في الانعكاف
 على مناهل الحكمة . ولكن هذا النقشف العميق لم يصرفه عن ادارة
 الامبراطورية الكبرى كما يدير الاب الشفوق عائلته معتبراً كل فرد من
 رعيته ابناً ، واكل انسان على وجه البسيطة اخاً . وقد رأى تخليداً لذكرى
 الامبراطورة الفقيده ان يقوم بعمل يائل الاعمال التي كانت تمارسها في حياتها .

فانثأ في روما مؤسسة خيرية تقوم على تربية وتهذيب خمسة آلاف من بنات
 الفقراء . ثم اسقط عن كاهل الطبقة الوسطى من الشعب جميع البواقي من
 الضرائب العائدة لبيت المال ، واحرق في الساحة العامة كل السجلات
 المدونة فيها تلك الديون . وكان يعامل الناس على اساس الكفاة
 والجدارة الشخصية ، لا على اساس النسب والمركز الاجتماعي . ومن
 سجاياه ايضاً ميله الى السلام ، فلم يعمد الى حرب الا بعد استنفاد كل
 وسائل السلم فاذا لم يجده اللين شيئاً قام الى الحرب اشجع ما يكون البطل
 الجري . مضحياً بنفسه في سبيل الوطن ، وقد مات في ساحة الحرب غير
 قتيل . وملخص ذلك ان البرابرة الجرمانيين هاجموه هجوماً عنيفاً فاضطر
 للعجى . بنفسه الى ساحة القتال مصطحباً ابنه ولي عهده . وجعل مقره العام
 على شاطئ نهر الساف (Save) حيث تقوم مدينة فيينا اليوم وكان ذلك
 في اواخر شتاء سنة ١٨٠٠ للميلاد . واصيب الامبراطور بداء الطاعون الذي
 كان يجرف المئات من معسكره كل يوم . فايقن بدنو اجله فجمع اركان
 حربه وارصاهم بابنه قائلاً : « فليكن بمثابة اولادكم فيلقى بعد فقدي ابا
 في كل منكم » فارتت كلماته تأثيراً عظيماً في اولئك الجفرد الذين لا يعرفون
 الدمع الا في عيون غيرهم من الناس ، فانحوت عيونهم بالدمع . فقال لهم :
 « لماذا تبكون ، اني اسبقكم جميعاً الى حيث نلتقي » . وقبيل وفاته استدعى
 ولي عهده وارصاه بالجهاد في سبيل روما وكان الوداع مختصراً ، لان
 المختصر اختصره خوفاً من تسرب العدوى الى ولده . ومعه المحيطون به
 في الساعة الاخيرة يقول : تبا للحرب واهوالها فالويل لمثيرها . وجاءه في
 المساء امين سره يتلقى اوامره فاجابه : اذهب الى الامبراطور - يريد

بذلك ولي هذه - فانه الشمس الطالعة اما انا فقد اصبحت على الغروب .
ثم غطى رأسه كما ينظيه النائم واسلم الروح في ايل ٩ نيسان ، وشهد ذلك
الليل موت الامبراطور الفيلسوف الذي عاش قديماً ومات بطلاً في قلب
معسكره وترك للفكر ثروة رائعة هي مجموعة خواتمه التي يسمونها
الفكر (Mes pensées à moi-même) . وهي صفحات مشرقة تتجلى
فيها تلك النفس التي وان هبطت من العالم السماوي الى الارض ، فقد ظل
معظمها في الاجواء العلى ، يسطع عدلاً ومحبة .
كان الامبراطور يجلس للقضاء محوطاً بالمستشارين الحكماء ، ينزل على
رأيهم السديد ، ويدافع عن حقوق الفقراء والعيبد . وقد لامه بعض
المؤرخين اذ لم يرفع الحيف عن المسيحيين المضطهدين في ذلك العهد ، ولكن
المصنفين منهم ينسبون هذه المظالم الى عماله المنتشرين في أقطار الارض ،
حين كان الرجل مشغولاً بالحروب الدفاعية . ويعترف مؤرخو المسيحيين
أنفسهم بأنه كان قريب عصره ، وفي الاطلاع على خواتمه اصدق دليل .
واقدم دونت هذه الخواتم في أوقات مختلفة كان يخلتها اختلاصاً .
خلال الاعمال المرهقة اذ لم يهادنه الزمن لان الحروب التي نامت زمناً طويلاً
في عهد أسلافه استيقظت في عهده وئمت بذورها قبل أن يتولى العرش ،
فشغلت الثورات معظم أيام حكمه . والمذكرات نتيجة الاختبار والتأمل
العميق . وهو لم يدونها ليذيعها على الناس ، بل كتبها لذاته ، اذ كان
ينطوي على نفسه كل يوم فيحاسبها حساباً دقيقاً فيقوم بمهمة المدعي والمدعى
عليه والقاضي في آن واحد ، ولا رقيب عليه الا الله . والوجدان النقي
يجاسب صاحبه على أصغر المفورات ، ذلك ان النفوس الطاهرة ترى الهفوة

حيث لا تراها النفوس العادية ، كما ان نقطة الحجر الاسود تظهر في الثوب الابيض ولو صغيرة . وتراه يسرد خواطره بكل بساطة فتعكس عليها نفسه كالمرآة لا كدر فيها ولا شوائب .

كان مرقس اوريلس رواقياً ، والرواقية تدين بالحلولية فتعتبر العالم كله ومظاهر عديدة للنفس الكلية العاقلة التي تسيّر الكون ، وتنظر الى المرء كقبس من هذا الكوكب العظيم فتضن بهذا القبس أن يتلوث بالادران اذ تريده نقياً كمصدره . ولم يصف الرجل الى مذهب الرواقيين مذهباً جديداً ولكنه خلع عليه رداً بهياً بما أضفى من شعوره الخاص . ولنا في ذلك الدليل الاكبر على أهمية تطبيق النظريات وتأثيرها على العمليات ، فقد يكون القانون أرفع ما يكون حكمة وسداداً ، ويتولى تطبيقه فظ غليظ فيسيء الى المجموع والى القانون نفسه . ألا ترى ان الزنبور (الدبور) والنحلة يبران كلامهما بالزهرة فتستحيل ممأ في ابرته وعسلأ في فمها ؟

ومما لا ريب فيه ان مارك اوربل الامبراطور الفيلسوف من ألمع الشخصيات التاريخية العالمية أخلاقاً وعلماً وصلاًحاً ، فاذا جاز اطلاق لقب قديس على الذين بلغوا الذروة في سلم الكمال الانساني فانه حري بهذا النعت ولو كره المتعصبون .

بقي ان نختم كلامنا في الرواقية بالتحدث عن ابيكتت (Epictète) الفيلسوف العبد الفقير .

ولد الرجل في منتصف القرن الاول الميلاد في فريجيا (Phrygia) من ايوين عريقين في العبودية ، فورث ذلها مدى سنوات طوال قضاها ذليلاً في خدمة سيده ايفروديت (Epaphrodite) .

وقد كان سيد هذا عبداً لنبيرون الامبراطور الظالم ، فأعتقه الامبراطور
من العبودية ولكنه لم يمتق اخلاقه مما اعتلق بها من القدر ، ومما انطبع
فيها من صور المظالم . وبدلاً من ان يتعظ الرجل فيعامل ابيكنت بالحنى
وهو لم ينس بعد مرارة الهوان ازداد تشدداً وقسوة . ولا يسعنا المرور
بهذه الظاهرة الخلقية ، قبل ان نعلق عليها ملاحظة تراها تتكرر في كل
زمان وقد اختصرها الامام الاعظم علي ابن ابي طالب (ع) بقوله : « اخذروا
صولة الكريم اذا جاع والليم اذا شبع » . ومن اسطع الادلة على صحة هذه
النظرية ، مظالم احمد باشا الجزائر والي مكا وحاكم هذه البلاد ايضاً في
اواسط القرن التاسع عشر ، فلقد كان عبداً . وكذلك القول في كافور
الاخشيدي والكوافير من حديثي النعمة المترفين . ولكن اشبه الحالات
بجالة ابيكنت مع سيده ، ما تراه بين الرؤساء والمرؤوسين في صفوف
القوات التنفيذية ، فانك تجد جندياً متذمراً مما يلقي من جور رؤسائه ، ثم
لا يلبث ان يتدرج في المراتب فيصبح رئيساً ، ويصير آية في الظلم
والاستبداد فكانه يحاول ان يستوفي من مرؤوسيه ما لحق به من الجور ،
ولكنه لا يستوفي فقط رأس المال بل الفائدة المركبة ايضاً . وهذا ما
فعله ايفروديت (Epaphrodite) بعبداه .

قسا القدر على ابيكنت فني بالعرج منذ الطفولة وكان هذه العاهة
مضافة الى خشونة معلمه لم تكن بالكافية لابتلانه فحاول المعلم الوحش ان
ياهو بتعذيب عبده فلف ساقه بألة ضاعطة وشدد الشكير ليرى ما يكون
من امر الضحية فنظر اليه المسكين باسماء يقول : « سترى انها تنكسر » .
وقد انكسرت الساق فعلاً فنظر الفيلسوف اليه وقال بكل بساطة : « ألم

أقل لك انها تنكسر ، ولم يزد . هذه الحادثة وامثالها تدلك على مقدرة
الرواقيين على الاحتمال ، وعلى الدرجة الرفيعة التي بلغوها في عالم الصبر .
ان شهداء الاديان المقتلة تحمّلوا مثل هذه المشقات واكثر منها ولكنهم
فعلوا ذلك تلبية لنداء الايمان او طمعاً بنعيم الآخرة ، اما الرواقيون فقد
فعلوا عملاً بذهب فلسفي لا يرتكز على الوحي بل على رأي العقل .
وقد فعلت صلابة ابيكت ونفسه الكبيرة المتجلدة فعلهما في نفس معلمه ،
فان نقطة الماء على رخاوتها تفعل في الحجر الصلد فتفتح فيه الاخاديد . فقد
سمح لعبدته ان يحضر مجالس الطلبة الرواقيين فتلقن الدروس ينهلها نهلاً حتى
اذا اعتق من ربة العبودية أصبح أستاذاً للفلسفة الرواقية .
وكان يعيش في كوخ حقير لم يضطر الى اعلاق بابه خرقاً عليه من
اللصوص . وتقاطرت اليه التلاميذ من كل صوب مأخوذون بخلقه العالي
وفصاحته البسيطة الخالية من النكاف والتعقيد يشيع فيها التواضع العميق .
وقد بلغت الحماسة من بعض أتباعه ان اشترى السراج الفخاري الذي كان
يستضيء به الفيلسوف ببلغ يوازي في عملتنا الرائجة اليوم ثلاثة آلاف ليرة
لبنانية أو خمسمائة دينار أو ألف دولار تقريباً .
وقد جرى الاستاذ في تعليمه على طريقة سقراط في الاستجواب
وتضييق الحلقة على الخصم أثناء الجدل ، ولم يكن يتورع عن استعمال
التعابير العامية أحياناً ولكنها تعابير تلفت النظر فتخرج حامية كما حبل بها
في دماغ الفيلسوف ، فلا تضيع نظارتها في التعاريج والتصنع الذي يلجأ
اليه المفتنون ، فصرف همه الى بث الفكرة الرواقية ودعم مذهبها عملياً .
ولم يدون شيئاً من تعاليمه ولكن أحد تلاميذه فلافيوس (Flavius) دون

بعض خاطرات استاذہ ، كما سجل أفلاطون آراء سقراط ، ولم يبق الى عصرنا الحاضر من هذه المفكرات سوى بعضها . وقد جمعت في مؤلف صغير اسمه كتاب ابيكنت .

ولم يكن هذا الكتاب مهوى افئدة الوثنيين وحدهم ، بل افئدة المسيحيين أيضاً حتى أصبح دستور الزهاد الناسكين منهم ، وقد ترجم الى لغات عديدة وأكثر من تأثر به في العصور الاخيرة المفكر الكبير باسكال . وان هذا التراث لمن أقوى وأنفس ما وصل الينا من الفكر اليوناني . ومن اطلع على خاطراته رأى نفساً جبارة في جسم هزيل ، في حصن رفيع لا تنال منه يد الزمان ، لانه يستقبل الازوا. هازناً ، وانها لتزل عن قننه كما يتحلق الثلج عن الرعان الشوامخ . فالرجل يرى حسناً كل ما يقع في هذا الكون من خير وشر ، لان هناك حكمة عليا توجه الامور في سبيل نجلها ، ويتعذر علينا ادراك الغاية التي تستهدفها . لذلك تراه يعيش في جور يستشعر فيه السعادة ، مها تفاقمت الخطوب ، من فقر الى مرض وعاهات جسمية . وهو يريد ان تسري هذه العدوى الخلقية النبيلة الى سواه من الناس ، ولكن الاشخاص الذين من هذه الجيلة اندر ما يكون ، لان الطربق وعر والمجال يشق بل يستحيل على غير الجبارة الذين اعدتهم العناية للشؤون الكبيرة ، فانهم يجوزون الالهيب ولا يحترقون .

بساطة الجواهر

يروى عن احد وجوه اللبنانيين انه كان مائداً من فرنسا فمرَّ بدائرة جوازات السفر في مرسيليا فابرز اوراق هويته . وكان في المكتب موظفان فاحفظ احدهما ان صاحبنا اللبناني من طائفة الروم الكاثوليك (Grec-Catholique) فاظهر الموظف عجبه من ذلك وقال للمسافر: كيف تنتمي للروم والكاثوليك في وقت واحد، فاما ان تكون (Grec) واما ان تكون (Catholique) . وبعثاً حاول صاحبنا اللبناني افهامه ان لا تناقض في الامر فلم يفلح . واخذ الموظف جواز السفر ودفعه الى رفيقه قائلاً: اعتبره مارونياً فهذا اسهل . وتلك نفسية هذا الموظف على عقلية الجواهر وبساطتها فهي لا تستطيع احتضان فكرتين في وقت واحد، بل هي تفهم فكرة واحدة على الاكثر . فاذا هي تصورت بطلاً مثلاً فانها تخلم عليه كل الصفات المتعلقة بالبطولة . وبعثاً تحاول افهامها ان الانسان مجموعة متناقضات وقد يعتره خور في العزيمة لسبب ما . ذلك لانها تنفر من الصعوبة وتصرف فكرها الى هدف واحد لا تنظر الى سواه . وهي من هذه الجهة تشابه الانسان الفرد ، ينبغي من ذاكرته كل النوافل التي لا علاقة لها بنفعه . فقد قر به ، في اليوم الواحد ، عشرون حادثة لا يابه الا لواحدة منها وهي التي يحسبها مفيدة له عملياً .

ولا تستطيع الجماهير ان تفهم ان الشاعر يستطيع ان يكون فيلسوفاً او رياضياً . فهي تريد ان تنعته نعتاً واحداً فهو اما الشاعر واما الرياضي وهذه نظرة خاطئة . فان طاغور الشاعر الهندي الاكبر جادل العالم الرياضي انشتين في الرياضيات ويقال انه جدله . وان افلاطون هو فيلسوف واديب معاً . وكذلك الفول في برغسون فهو فيلسوف واديب ايضاً . وقد ورد في قصة حرب البسوس ان بطلاً اسمه الفند - وهو في الحقيقة ابو بجير الذي قتل المهلهل ابنه بجراً - أسر المهلهل وجزأ ناصيته واطلقه ولكن احد سامعي القصة غضب غضباً شديداً واتهم المؤان بالتزوير زاعماً انه لا يستطيع احد ان يأسر المهلهل .

ويقع حادث في بلد ما ويكون لهذا الحادث عشرات الاسباب ولكن العامة لا تنسبه الا الى سبب واحد . فلو حدثت احد اللبنانيين العاديين عن الازمة الاقتصادية وغلاء المعيشة - ومعلوم ان لذلك عشرات الاسباب التي لا يحيط بها الا العارفون بالاقتصاد السياسي - لأجابك فوراً ان الذنب ذنب الحكومة . فقد وحد الاسباب جميعاً وصهرها في عامل واحد . ويذكرنا هذا بالنادرة التي ملخصها ان مواطنين اجتمعا في دار غربة وكان احدهما يتأهب للعودة الى موطنه فسأل الآخر عما يوصي به الى اهله فقال له : ابلغهم اني مصاب بارتخاء في المفاصل وبطء في الكبد وضعف في المعدة ورمد في العينين . فقاطعه الآخر وقال له : حسبك سأقول لهم انه مات والسلام . ولو حاول خطيب ان يقف في جماعة مثلاً ويذكر لهم حسنات مرشح سياسي وسيئاته وهو يبغى في نتيجة كلاهما معارضة هذا الشخص ولكنه ينصفه فيذكر له بعض الصفات ، لقاطمه حزبه بالصفير وربما بالشتائم لان

والجماعة لا تستطيع ان ترى في خصمها سوى سيئاته ولا ترى له حسنة واحدة .
 وذلك اسهل عليها واقرب تناولاً فهي لا تقوى على التحليل والدقة ،
 وبعميها الغرض فلا ترى الا ما تريد ان تراه ، وتختصر الطريق ، وتكره
 البحث المجدي والاطلاع العميق ، لذلك يلاقي المجددون صعوبات كثيرة
 في طريقهم اذ يخرجون على المألوف الذي جرت عليه العادة بحكم العادة
 والنقليد . وعندما اكتشف الفونوغراف تعوذ منه الكثيرون ظناً منهم بان
 الشيطان هو الذي يتكلم فيه ، اذ استحال عليهم التصديق بان العلم
 يستطيع التقاط صوت الانسان وحفظه في صندوق . وانما تختلف درجة
 البساطة باختلاف الشعوب والاقليم والثقافة ، ولكن ما قدمناه يصح
 في الاكثرية .

وعندما تشعب الآراء في جماعة وتضطرب اضطراباً قوياً ينقسم الجمهور
 الى جبهتين كل واحدة منهما في طريق ، فيصح اذ ذاك القول المأثور : من لم
 يكن معنا فهو علينا . اما المعتدلون في الجماعات او الحياديون المترددون فقلما
 يفاعون لان الجمهور تحدوه الحماسة ويجب المتطرفين الذين يختصرون الفكرة
 ويحملونها الى الشعب موجزة واضحة حامية ، اما التردد والهروءة فلا تجديان
 نفماً خصوصاً في هذا العصر وهو عصر السرعة .

والشعب يجب تمثيل الاشياء وتصورها . فكل ما هو في عالم الغيب
 والبهات لا يوزر فيه ، لذلك تراه يقيم التماثيل ويرسم الصور فترسخ الاشياء
 في ذهنه كما ترسخ في الرخام . وهذا هو اساس المسرح والتماثيل . والفرق
 عظيم بين رواية تقرأها في كتاب او تشهد تمثيلها اذ تشاطر المشلين عواطفهم .
 ومع علمك بانها رواية مختلقة فانها تسيل مدامك او تثير فيك الحماسة وما

شابه ذلك من المشاعر . وقد يحدثك بحديث عن العماليات الجراحية فلا تضطرب ولا تتأثر ولكنك لو شهدت بعينك عملية جراحية كبرى لتأثرت وربما سقطت في انحاء طويل . واذكر اننا كنا تلامذة احدانا في احدى المدارس فدخلنا الكنيسة يوم العيد وكان بين الصور صورة تمثل جهنم والشياطين ، فبات اكثرنا يرتعد فرقا تلك الليلة . فان اعترض معترض ان ذلك يؤثر في عقول الصغار ، رددنا عليه بجاذبة وقعت في جنوبي لبنان منذ خمسين سنة تقريباً وموجزها ان اهل قرية اعترموا ببناء كنيسة في مزرعتهم وكانوا يستجدون اكف المحسنين للقيام بهذا البناء الضخم . فقصدوا احد كبار الوجاه الملاكين وهو من غير ملتهم فبسطوا له القضية فدألهم : على اسم اي قديس تقيمون الكنيسة ؟ فأجابوه انها ستقام على اسم القديس انطونيوس الناسك . وأروه الصورة فنظر اليها فرجدها تمثل زاهداً كثيراً مقوس الظهر فصرفهم غير راضين . ففكر احدهم ان يأتيه بصورة القديس جرجس فنادوا اليه في الاسبوع التالي واعلموه بانهم سيقومون الكنيسة على اسم القديس جرجس . وكان الرجل فارساً مقداماً تستهويه البطولة والشجاعة فما ان رأى رسم القديس جرجس وتحت الجواد منتصباً على رجليه وقد طعن الفارس النين فأرداه يتشجط في دمه ، حتى خلبه هذا المنظر فصاح : آه يا خضر ، يا راعي الادمم ، لا شلت عينك . وتبرع للكنيسة بعشرين ليرة ذهباً .

وقد يبلغ حب تجسيد الفكرة والرمز عنها بالمظاهر الخارجية مبلغاً يفوق الحد . لذلك كان يقدم الوثنيون على التضحية بالذبايح متوهمين ان آلهتهم تسر برائحة الشحم واللحم وترتاح اليها كما يرتاحون اليها هم انفسهم . وقد يزول الايمان من النفوس وتظل الرموز والعادات . وأعرف بين

المسيحيين عدداً من الملحدين ولكن اكثرهم يرسمون اشارة الصليب عندما يرون بجانب كنيسة . فاذا كان الفرد يحب الخوارق فالجرائم تقدر الحرافات تقديماً ، وهي الى القصص اميل منها الى التاريخ ، واقبال الناس على الروايات شاهد على ذلك . ولا ريب ان كتاب الف ليلة وليلة لقي من النجاح ما لم يلقه ديوان المتنبي والبحتري . وقراء القصص البوليسية اليوم يزيدون عشرات الاضعاف عن قراء « سلامبو » لفلوبير (Flaubert) او « الاخوان كارامازوف » لدوستويفسكي او « الانسان ذاك المجهول » للدكتور كاريل .

واذكر اني كنت مصطافاً في احدى القرى الكسروانية سنة ١٩٤٠ فجا . للسلام على وجوه القرية فشكرت لهم هذه المكرمة . فسألني احدهم وهو عضو الاختيارية في قومه عما اذا كنت اعتقد بوجود الجن في بلادنا . أجبته بالنفي ، فأكد لي ان شاباً من قريته كاف بامرأة من الجن حتى مهي « لحد الجنية » . وكأنه اراد امتحاني في التاريخ فسألني عن سبب تسمية نهر ابراهيم بهذا الاسم فوضحت له النقطة التاريخية وعلاقة المقدم ابراهيم بالتسمية ، فهز رأسه استنكاراً وتابعه الحاضرون على ذلك . فسألته رأيه فقال : ان ابراهيم الخليل عليه السلام كان يعبد الله ، اما اهله فكانوا من عبدة الاصنام وقد اعترموا قتله لمروقه من دينهم وضرخوا لذلك موعداً ، فهرب منهم فاتبعوه فاجأوه الى صخر عظيم فاحدقوا به ولم يبق له مهرب ، فاسند ظهره الى الصخر واستغاث بربه فانشقت الصخرة وتكشفت عن مغارة هائلة جأ اليها سليماً ، وانبعس الماء سيلاً جارفاً فعمل اعداه الى البحر . والمغارة هي مغارة « افقا » وسمي النهر من اجل ذلك « نهر ابراهيم » .

كيفية استهواء الجماهير

ان عقلية الجماهير تكون على الغالب بسيطة وثابتة ، بعيدة عن روح النقد والتحليل ، لا عمق فيها ولا روية . فاذا لاح للجماعات ما يوافق ميولها واذا واقها مشت بدون ما تبصر لانها تؤخذ بالكلام الهراق وزخرف القول . وهي لا تستطيع التجريد بل تحيل الى الواقع البين ، وتعجبها الحكايات والنوادير ، وهي الطريقة المثلى لاجتذابها . واذا ذكر ان معلم مدرسة حاول ان يفهم تلامذته الاحداث الفرق بين الافعال الجامدة والمشتقة فتعذر عليه ذلك ، فضرب لهم مثلاً على الافعال الجامدة الديك ، وعلى المشتقة الدجاجة وافراخها ، فلما سأهم يوم الامتحان عن كيفية التمييز بينها ، اجابوه بمثل الديك والدجاجة .

ولا ريب ان كتاب كليلة ودمثة باع من الشهرة حد بعيداً لا من اجل واضعه بيدبا الفيلسوف او معربه النابغ عبد الله بن المقفع ، بل لان فيه حكاية الاسد والثور ومحاورات تدور على السنة الحيوانات . وكذلك القول في حكايات لافونتين ، وهي حكايات ملوذا حكمة الاجيال وفلسفة الدهور ، ولكنها حكمة لا تدركها الا الخاصة ، اما العامة فتؤخذ بالواقعات والحوادث . ومن يجهل حكاية الذئب مع الخروف ومغزاه استبداد القوي بالضعيف وسطرة القوة الغاشمة بالحق .

ولاريب ان يول فاليري (Valéry) هو من اعظم شعراء اوروبا اليوم ولكن العامة لا تعرف منه الا اسمه . ذلك لان معظم شعره خالٍ من الرواية الواضحة وتبسيط المعنى . والجماهير تستهويها البساطة وتنفر من الصعوبة وكذا الخاطر ، وذلك امر طبيعي لان النزول اسهل من الصعود . وحسب قادة الجماعات ان يدر كوا الوتر الحساس فيها لتأثر بامرهم ، وتنهج نهجهم حتى في حياتهم الخاصة . وتراهم يعمدون الى العبارات الواضحة التي يفهمها الاطفال والشيوخ على السواء ، لان عقل الجمهور كمقل الطفل . وقاما تشذ الجماعات عن ذلك الا اذا كانت قليلة الافراد ، وقد اخذ افرادها بقسط من الثقافة كجماعة الاطباء والمحامين مثلاً .

وكثيراً ما يستعمل الزعماء العبارات التي يتناولها الفهم بسرعة وترسخ في الاذهان اذا كررت ، وقد لجأ الخطباء الى مثل هذه الاساليب في خطبهم . ويشترط في هذه الحالات ان تكرر الجمل الجاهزة بجماسة واندفاع لان العدوي لا تسري الى الجماعة الا اذا كان المتكلم سليط اللسان ، ناري الالقاء . وان الخطيب هو مصدر السيل الكهربائي الذي يفيض على الجماهير ، فاذا كان بارداً متثاقلاً تعذر عليه نقله الى غيره فيصبح كالمطرب الذي يفني خلواً من الاحساس ، او انواعه الذي يشك في ما يقول .

وقد تنبه التجار لهذه الشؤون ، فهم يعانون عن بضائعهم بالكلمات الجذابة ويكثرون من الاعلانات . واذكر انني منذ سنين كنت ارى اعلاناً عن سيارات فورد وقد كتب بحروف كبيرة ونصه : اشتر فورد تربح ذهب . فعبارة تربح ذهب مما يلفت النظر . وكانت الصيدليات في بيروت تعلن عن جرب ركبها الدكنور روس فلا تكاد تدور في منعطف طريق الا

وترى على الجدران اعلاناً عن هذه الجيوب . وهي في الحقيقة مسهل خفيف
ولكن لفظة حياة في الاعلان تعري اربابن وتحملهم على التمره لان الحياة
عزيزة على المرء .

ومن الامم . ما يشير في خاطر سلسلة من الذكريات والصور بحكم
تداعي الافكار . مثال ذلك ان يذكر امامك الارز مثلاً فيتبادر الى ذهنك
منظر الشاي ورؤوس الجبال العليقة بالسحاب . وترى بعض مصانع العطور
في فرنسا تسمي عطرها مساء باريس (Soir de Paris) ، وهي تسمية
تشير في خاطرنا ما شهدته في باريس او ما سمعته عن اياها الخافلة
بالمسرات . وان دعاة السياسة في البلاد الديمقراطية يهدون لانتخابهم
بمنهاج جري . وغامض . مما اذ ينادون بالاصلاح والمشاريع العمرانية
والاقتصاد واحقاق الحق واقامة العدل والعمل على رفاهية الشعب ولكنهم
يجمعون ولا يفضلون ، فيرى كل واحد من ناخبيهم امانيه . بدوطة في هذا
المنهاج ، ولو دخل المرشح في التفاصيل لفسدت الخطة وثار الخلاف .

وعلى ذكر التفصيل اذكر نادرة جرت في احدى المحاكم الصلحية من
زمن بعيد ومزداها ان شخصين تنازعا على مياه السقاية المتاخمة ارضهما ،
فادعى احدهما ان له فيها سبعة امتار وخطره ثلاثة ، وزعم المدعى عليه ان
العشرة امتار هي مناصفة لكل منهما خمسة . وحاول الحاكم ان يفصل بينهما
فتعذر عليه ذلك وكان على جانب من العباوة ، فاجبرهما على المصالحة اذ
سأل المدعي هل يطلب اكثر من حقه ، فاجابه لا ابغي سوى حقي وبمثل
ذلك اجاب المدعى عليه ، فامر الحاكم كاتبه ان يدون اتفاقهما . وكان
الامر شتاء . فلما جاء الصيف عاد الجاران الى السقاية فعادا حتماً الى النزاع .

لذلك كان السياسيون يعدقون المواعيد جملة وهم يدركون موطن الضعف في الناخبين ، فاذا جازوا قفراً يحتاج الى الري وعدوا اهله بالري والخصب ، او دخلوا منطقة عسيرة المواصلات وعدوا اهلهما بالطرق المعبدة ، فاذا لم يكن هذا ولا ذاك فهم يعدون اصحابهم بالوظائف ، وهذا اطيب الورد واشهي الاحلام .

وان بعض المرشحين يضعون في مناهجهم ما يرضي الاحزاب المختلفة على تعددها لانهم يطعمون في استمالتها جميعاً . وتذكرني هذه القصة في السياسة بسلك بعض الشعراء الذين يلقون قصائدهم في الحفلات فاذا اعيانهم الفن وند عنهم الخيال المجنح عمدوا الى استمالة الجمهور بشي . من البهلوانية اللفظية فاقحموا في ابيات القصيدة كلمة توراة وانجيل وقرآن داعين الى المآخاة فلا يلبث الجمهور ان يصفق لهم ، وعلى الاخص اذا جاءت هذه الالفاظ في القوافي .

اما وورد السياسيين فكثيراً ما تكون سحابة صيف ولكنها تنفع اصحابها وبخاصة اذا كان الشعب تدمراً من حالته الحاضرة ، لان الامة لا ترى الامور على ضوء الحقيقة وعلى ما هو الواقع بل كما تتمناها ان تكون . وهي تنتظر وقوع الاعجوبة على يد زعمائها ، وقد يكون الزعماء مخلصين يريدون الخير والفلاح لامتهم ولكنهم لا يستطيعون المستحيل ولا يقدرون على اختراع الذهب وبث الرفاهية في الشعب وتوظيف ابناؤه جميعاً .

ويتوجه السياسيون الى قلوب الناس وميولهم ، فتارة يندرونهم بان البلاد في خطر وطوراً يعملونهم بالامل الحبيب . فتراهم يرجفون ويتخرسون ان يبشرون في الجماعات مثل هذه العبارات : البلاد في خطر ، الوطن مهدد ،

وانهم هم المنقذون فلا يرجى الاصلاح الا عن يدهم ، ولا تستقيم الامور الا بهم . وتستألم الطبقة الفقيرة من الشعب على الاخص بوعدها باليسر وارخاء ، وببتعداد مظالم الاغنياء ، وتبيين بطرهم وعتوهم وما يلقاه الفقير الذي لا يأكل اللقمة الا مغموسة بعرق الجبين . ثم يقال لهم ان مطامعهم وميولهم انما هي حقوق مقدسة يجب ان يبلغوها باسم الانصاف والعدل . وان هذه المواعيد تلاقى جواً رحيباً في صدور المتحمسين المدفوعين بعوامل الحسد والرغبة في الانتقام ، حتى ان الثائرين انفسهم والمضطادين في الماء العكر يتغنون باحقاق الحق ، ويتلبسون بلباس الفضيلة ، ويبعدون رغبتهم في توطيد النظام ، وهم الذين يعملون في الخفاء على تهديم الأمن وخنق الفضيلة . وكثيراً ما تجوز الحيلة على الجماعات الجاهلة فيسيرون كالألات الجامدة بين أيدي الهدامين حتى يبلغوهم آربهم .

ولنا في الثورة الفرنسية اسطع الأدلة على ذلك . ومتى هاج الشعب اصبح في حالة مماثلة لحالة الجنون ، فهو كالنار تجتاح الاخضر واليابس ، وقد تجتاح مضرها ايضاً لان اشعلها اسهل من اطفاها .

ومعلوم ان خطيب الثورة الفرنسية ميرابو لم يرد ان يبلغ بالثورة الحد الذي بلغته ، بل كان يبغى الاصلاح فقط ولكن الامر خرج عن طاقته . وعندما يبلغ هولاء الذين نادوا بالحق والانصاف مراتب الحكم فانهم كثيراً ما ينقلبون ويصبحون في عداد الطغاة . وذلك كان شأن دانتون وروبسيار وسواهم من قواد الثورة الفرنسية . وتعود سياسة الجماهير ان لا يقفوا في وجه الغوغاء في طغيانها وهيجانها لان وقوفهم هذا كتعرض الاحتمق للسيل الجارف . فان القواد يلجأون في مثل هذه الحالة الى صرف الجماعات

تأثير اللفاظ في الجمال

يزعم بعضهم ان المهم في الجملة هو المعنى لانه وحده مظهر الفكر ، اما المبني فقلما يصرّفون اليه اهتماماً لانهم يحسبونّه قشوراً . وهذا رأي خاطئ . لانه يتعذر فصل المعنى عن الكلمة كما يستحيل فصل البياض عن الثلج . قال شارل بودلير (Beaudelaire) : لا يمكن فصل المرأة عن زينتها لان ملبسها وما تردان به من الالوان تؤلف مع جسدها وحدة كاملة لا تتجزأ . ويصح مثل هذا القول في اللفظة لانها تحمل المعنى وتستقل به ، فاذا البسته غيرها فقد بدلت . الفرنسية استطاعت ان تترك ذلك . وفي حاشية البيت وقد تنبه الشعراء لهذه النقطة الخطيرة ، فترى جمال البيت يقوم بكلمة ولا يقوم بغيرها . فقد قال شوقي في قصيدته « ام المؤمنين » :

واخلمي الالقاب الالقباً عبقرياً هو ام المؤمنين

فان حذف عبقرياً لمحوت رومة البيت . ولكن الامر خرج عن طبعهم وقال الاستاذ نجيب ليان في « نشيد الميلاد » :

اشرق النجم وسار في الفضاء
غامراً جوار المزار بالضياء
فعلى الارض افتتار للسماء

وجمال البيت الثالث قائم بلفظة افتتار للسماء .

وقال سعيد عقل متغزلاً :
يا نهلة الحمر المضله وترزح النغم المولده
فأر بدأت لفظة نهلة بجرعة مثلاً لنقلت السامع من جو الشر الى مختبر
الطب ، وذكرته بجرعة الدواء .
ومن قصيدة لي في وصف ادب جبران قولي :
كانتشاء الروح من فوح الشذا واعتلاق الطل بالثبت الطرير
فان حسن التخير قام في هذا البيت بعبارة اعتلاق الطل . والامثلة على
ذلك اكثر من ان تحصى .
وتأثير الالفاظ في الجماهير بعيد المدى ، لان الجماعات لا تقيس الكلمات
بالمقياس الذي يستعمله الرجل المثقف الهادي . الاعصاب ، ذلك لان نفسية
الجماهير نفسية متهمة لا تُعيل العقل بل العاطفة والخيال . وترى الخطباء
وقادة الجماهير يعمدون الى طائفة من الكلمات تفعل في النفوس فعل
الكهرباء ، ومن هذا القبيل الفاظ الحرية والاخاء والمساواة . واي
خطيب لبناني يقف في الجماعات هاتفاً باسم لبنان والارز الخالد والوطن ولا
يقاطع بالتصفيق . واذا كان الشعب يعاني ازمة اقتصادية وقد توجهت في
وجهه سبل العيش ، فوقف فيه خطيب وهتف : فليحي الشعب ، فلا
ريب انه يحمل على الأكنف وينادي باسمه على كل لسان ، ذلك لانه يعرف
ان يختار هاتين اللفظتين في الوقت الملائم .
ولا يشترط ان يتقني خطيب الجماهير الفاظاً واضحة المعاني ، فقد
تكون الالفاظ المبهمة ابعث صدقاً وابلغ اثرأ في نفوس الجماعات ، كلفظة
الحرية مثلاً فانك تستطيع ان تضع المؤانث في شرح هذه اللفظة ، ويجعلها

كل سامع على محمل ويشرحها على هواه ، فيفسرها القائل بمعنى تحليل سفك
الدماء ، واستباحة الاعراض ، ويحملها السارق على انها سبيل لنهب الاموال ،
ويحسبها المفروم بفتاة اجازة تخطف عروس احلامه على الرغم من ذوبها ،
وتصور امثال هذه المعاني المطاطة الى آخر الباب .

ومن هذه الكلمات المبهمة عبارة «سيادة الامة» فان الغوغا تحملها على
محمل يبيى الى سيادة الامة والحربة معاً . وكثيراً ما يجري ذلك في
الظواهر العامة ، فيهجم المتظاهرون على التجار الآمنين يحطون بحوائثهم
وينهبون امتعتهم ، ويجرونهم على اقبال متاجرهم بالعنف بعد ان يظروهم
سيلاً من الشتام ، ولا يدعون لهؤلاء التجار شيئاً من حرية الكلام للاعتراض ،
وانما يفعل المعتدون كل ذلك باسم الحرية وسيادة الامة ، وفي هذه الحال لا
تكون السيادة للامة بل للرعايا وسفلة الناس .

ولا تقل لفظة الديمقراطية عن سابقاتها اثاراً للنفوس واطلاقاً للمواظف
المكبوتة ، ومثلها لفظة التجدد . فاذا هتفت بالجواهر منادياً بالتجدد لقيت
كثيراً من المؤيدين ، لان الناس يملون حالة الاستمرار ويتمثلون انقلاباً يفضي
الى احسن ، وقد يؤدي الانقلاب الى مصير اسوأ فيردد قول الشاعر :
رب يوم بكيت منه فلما صرت في غيره بكيت عليه
السبب في ذلك هو ميل الانسان الى التخلص من الحاضر ، فهو في
تغيير مستمر ، لا تم به دقيقة كسابقاتها . وفكرة التبدل هذه اوحى الى
برغسون (Bergson) نظريته في التغيير الدائم ، فضجت بها اندية الفلسفة
والادب في اوربا . ويجب الانسان المستقبل لانه لم يزل في حيز الممكن
ينطلق فيه الخيال ، والخيال امل خصب وافق رحيب ؛ ويمن الى الماضي

لان الذاكرة تكون قد نمت من شوائبه فلا تلتقط منه الا ما يلائمها ويسرها . وفي الالفاظ سحر يفعل في الجماعات ولا يهز الفرد المفكر . وكثيراً ما شهدت في الحفلات الخطابية حماسة الجمهور تتدفق كأنها انطلقت من سجن اذ تدوي القاعة بالتصفيق لذكر الامير بشير او فخر الدين المعني ، مع ان هذه الاسماء لو ذكرت لك في معرض حديث لما احدثت فيك هذه النشوة . ومن يجهل كلمة نابليون الاول المشهورة عند بلوغه اهرام الجيزة اذ افتتح الكلام بهذه الجملة التاريخية التي حملت في حروفها الحكم بهزيمة المماليك وهي : «ايها الجنود ، من اعالي هذه الاهرام اربعون جيلاً تنظر اليكم باعجاب» . واكثر اللبانيين يعرف مكانة المرحوم رشيد نخلة في الرجل ، وأرى ان افضل ما قاله في الوطنية قصيدته التي دعا فيها الى الإخاء . ونبدأ الطائفة وقد افتتحها بهذا المطلع المشهور :

عينك ابو سعدي تجي وتشوف داسوا عربتك في بلاد الشوف
فان عبارة عينك ابو سعدي هي التي رفعت مستوى المطلع ، ولو قال الامير بدلاً من ابي سعدي لأضعف كثيراً من المعنى . ولا يقتصر تأثير الالفاظ على ما يختار منها في الادب والخطابة ، ولكنك ترى كل يوم في الحياة العادية اهميتها ونتائجها .

وقد تعبر عن المعنى نفسه بمجملتين احدهما لا تفضب احداً ، اما الثانية فتعرض قائلها لاوم او الى اكثر منه . ومثال ذلك ما يجري كل يوم بين المحامين في المحاكم . فبعد ان يبسط المدعي دعواه ، يرد عليه خصمه المحامي بقوله : ان ما جاء به الزميل مخالف للواقع او ما يشاكل هذه العبارة . فلو انه قال له : كذبت ، لتغير الجو تماماً . وحسبنا ان نورد لك بعض الامثال التي

مبلغ سحر الاناظر . فلو ان طبيباً كتب لك في صفة الدواء المركب من
اجزاء عديدة عشرين غراماً من الملح العادي لقلت شفيتك استخفافاً . ولكنه
لو بدل هذه اللفظة بكاورير الصوديوم (Chlorure de sodium) لكان
لهذه الكلمة الاخيرة وقع في نفسك . ومعلوم ان كاورير الصوديوم هو الملح
الذي لا يخاو منه . مطبخ في هذه البلاد . وقد يؤثر الاسم على الشخص فلو
انك خلعت على اجمل نساء العالم اسماً من هذه الاسماء الثقيلة على القلب
واللسان لافقدتها كثيراً . من بهجتها .
واني اختم هذه الكلمة بنادرة وقعت لي منذ سنين . فاذا ذكر اني دخلت
بعض المطاعم ، ولنت نظري من اسما . الاطعمة لفظة شاتوبريان . فذكرت
الاديب الفرنسي الشهير المعروف بهذا الاسم ، وأغرنتني اللفظة لانها مؤلفة
من شقين اولها معناه الفصر والثاني اللامع - على اختلاف في الكتب -
وقد تصورت قصراً يقوم على رابية ، وهو يتاهب عند الاصيل في غمرة
من اشعة الشمس . فقلت في نفسي انها والله صورة شعرية رائجة ، ولا بد
ان يكون هذا اللون من الطعام اشد المآكل . وطلبت الشاتوبريان فوضع
الخدام بين يدي لحماً مشوباً على الطريقة الفرنجية اي انه ضغط عليه بين
حديتين محيتين فنضج .

اما وقد ذكرناك ، ايها السامع ، بتأثير الالفاظ ، فاعلم كيف تستعمل هذا
السلح ، وانت العليم ان شاء الله .

وهذا هو
الطعام
الذي
هو
الذي
الذي
الذي

سلطان الكهوس في الجماهير

يبلغ الهوس من الجماهير مبلغاً عظيماً لان العواطف الاجتماعية عمياء ،
واسبابها عديدة ، ولكنها ترد الى ثلاثة اسباب رئيسية : الأمل والخوف
والاعجاب . وعلى هذه الاصول الثلاثة تنفرع مظاهر عديدة ، فان الانسان
يشعر بضعفه في المجتمع ولذلك فهو يستظهر بقوة قد تكون منظورة او غير
منظورة ، ولكنه يشعر بوجودها فيستقوي . ويستدل بالعقل وحده ،
وبقطع النظر عن الوحي والايان ، على وجود خالق لهذا الكون ، ويستنتج
ان هذا الخالق هو مصدر القوة والكمال ، ومعدن الحكمة والجمال يستطيع
ان يثيبه ويعاقبه ، لذلك فهو يضرع اليه بالصلوات طمعاً في ثوابه وخشية
عقابه . واذا امت به مصيبة لم يجرد الى دفعها سبيلاً ، وعجزت القوى
الانسانية عن ردها فلا يبقى له سوى هذه القوة العليا يضرع اليها ، ويلقي
باتقاله وهوومه بين يديها وهي قوة الله عز وجل . ولكن الانسان
يستصعب التجريد ، وبما ان له عيناً تبصر وقلباً يحس فهو يستظهر بالقوى التي
يراه ، ويتعلل بالمبادئ التي يداعبها خياله . فاذا صح هذا القول في الفرد
فهو في الجماهير اصح ، اذ تطبق عليه هذه النظرية على صعيد ارحب ونطاق
بعيد الحدود .
واذا انت تأملت عقلية الجماعات ووجدتها تنشده القوة لأنها منتهى آمالها
ومنبع مخاوفها ، وعليها تبني نفعها وضررها . لذلك تراها في العهد القديم
تعبد الشمس والكواكب والنار والاشجار والماء والحيوان . وقد بلغ
منها الاعجاب بأبطالها وكبرائها مبلغاً عظيماً حتى انها أهدت بعضهم واصبحت

هذه الالهية إرثاً يتلقاه الخلف عن السلف ، كما جرى لفراعنة مصر في العصور الخوالي ، وكما هي الحال في الامبراطورية اليابانية . ولم نعود القهقري لاقامة الامثال على ذلك ، أو لم يبلغ الهوس بالشعب الالماني وهو شعب يعيش في القرن العشرين وقد بلغ الذروة العلمية من وجوه شتى ، ان اقام الصاوات للفوهرر لأنه رأى فيه رمز القوة والنهضة وربا عن يده القوت والحياة ؟

وإذا تقصيت التاريخ تجد ان تكريم او عبادة اعظم الرجال رافقت المدنية منذ فجر التاريخ على اختلاف الدرجات ، وفقاً لرقى الشعوب وانحطاطها ، وتبعاً لانزجتها واقاليها . وحسبك اذا تطلعت الى الشرق ان تلقي نظرة على آثار بوذا وكنفرشيوس ولاوتسو لتتحقق من صدق هذه النظرية . ولا يقتصر اندفاع الجماهير على تأليه اشخاص بل يتعداه الى تأليه المبادئ . فترى الديمقراطيين يؤهلون الجمهورية ، والملكيين يعبدون الملكية ، والفاشستيين الفاشستية . اما الثورة الفرنسية فرأت تأليه الشعب ، وقد حمد هذا الشعب المؤله في جنون ثورته الى فتاة ساقطة من بنات باريس خدماها على الاكتاف بين هناف الجماهير وتصفيتهما ، وأدخلها كنيسة نوتردام (Notre-Dame) وبماها الهة العقل (La déesse de la Raison) .

ومتى تمكنت العاصفة المرحاء من الجماهير فكل مقاومة لها تصبح حافزاً شيراً لاندفاعها ، كالزيت تصبه على النار بغية اطفائها فلا تريدها الا اشتعالاً ، لأن الجماعات تعتبر افرادها اذ ذلك ابطالاً مجاهدين ، فن استشهد منها في هذا السبيل ربيع مجد الدنيا بالذکر الطيب وشواب الآخرة اذا كان يعمل في سبيل عقيدة . ومن هذا القبيل ثورة الخوارج على علي ابن ابي طالب وانهم كانوا يحسبون انفسهم على الحق عامين على اعلاء كلمة الدين . وقد

ضلوا فيا فعلوا ولكنهم كانوا يكفرون سواهم ويحسبون ان من قتل
منهم ذهب الى دارات الخلود. وجاء في كتاب الامامة والسياسة لمحمد
ابن ابي قتيبة ان ابا ايوب الانصاري نادى الخوارج قبل موقعة النهروان
فقال : من جاء منكم الى هذه الراية فهو آمن ، ومن دخل المصر فهو
آمن ، ومن خرج من هذه الجماعة فهو آمن ، لا حاجة لنا في سفك دمائكم .
قال وقدم علي الخليل قبل الرجالة ، وقال لرجاله : كفوا عنهم حتى يبيدوكم ،
قال واقبلت الخوارج حتى اذا دنوا من الناس نادوا لا حكم الا لله . ثم
نادوا الرواح الرواح الى الجنة ، قال وشدوا على اصحاب علي شدة رجل
واحد ، الخليل امام الرجال ، فاستقبلت الرماة وجوههم بالنبل فخذلوا .
قال الثعلبي لقد رأيت الخوارج حين استقبلتهم الرواح والنبل كأنهم معز
اتقت المطر بقرونها ، وصرههم الله كأننا قيل لهم موتوا فماتوا .
فلما انتصر الخوارج في النهروان لحسبوا ابطالاً ، اما وقد قتلوا فسماهم
انصارهم شهداء . وقناعتهم هذه كعقيدة اليهود بأنهم شهب الله الخاص ،
وان هذه البقعة من الارض التي تسمى فلسطين ارث لهم يرمطونها تعظيماً
يقرب من العبادة ، ويتنادون من اقطار العالم الاربعة لاحتلال فلسطين
باذلين ارواحهم واموالهم في هذا السبيل ، وكلما ازدادت المقاومة ازدادوا
عنفاً وتحمساً لقضيتهم . ومن هذا القبيل حب الجندي لوطنه وتعلقه بالارض
التي يعيش عليها حتى انه ليسفك دمه من اجل هذا التراب ، وحسبه ان
يكتب على قبره : « في سبيل الوطن » .
ويعجب بعضهم لما يستطيعه المنوم المغناطيسي من تأثير على الوسيط ،
وكيف انه يجعله على الاذعان لإرادته فيصبح آلة منفذة بين يديه . وتروى

هذه الدهشة عندما نعلم ان الوسيط يستسلم المنوم استسلاماً مطلقاً فتتلاشى فيه الارادة والمقدرة على النقد . ولكن اعجب من ذلك استسلام الجماهير لقادتها في حالة الحرب . فانهم منها بمنزلة الوسيط من المنوم ، خصوصاً اذا رافق سلطانهم اشارات وحركات تريد في الاستهواء . كما يفعل منظر العلم في الجنود مثلاً . ولا ريب ان تكرار الامر والتعود على الطاعة يجعل المرؤوس مطواعاً بقوة الاستمرار . أو ليست العادة طبيعة ثانية ؟ وقد يتعود الكذوب الكذب حتى ينتهي بتصديق نفسه . وترى الكثيرين من الناس يتعودون توهم مرض ما حتى يفضي بهم الامر الى الشعور بأعراضه . ويروى ان مريضاً وهمياً تخيل وجود ضفدعة في بطنه ، فعجز الاطباء من اقناعه بأنه وهم . واخيراً عمد احد اصحابه من الاطباء الجراحيين الى حيلة فجاب ضفدعة وضعها في غرفة العملية ثم نوى المريض الوهمي وخذشه خدشاً بسيطاً في جلد البطن ، وبعد استفاقته من الخدر اراه الضفدعة وهكذا شفي المريض من وهمه .

والوهم يستولي كذلك على الجماعات فإن شائعة كاذبة تحدث في نفوسهم اليقين وتصعب ازالتها . وقد كان القرويون في لبنان يعتقدون لسنين خلت ان البندورة تحتوي على جراثيم الحميات وعلى الاخص جرثومة الملاريا ، فيتورعون عن اكلها حتى جاء العلم الحديث يشيد بافضالية البندورة ، ويثبت غناها بالفيتامين . ومع ذلك فلا يزال بعض سكان القرى النائية يعتقدون بضرر هذا الصنف من البقول . واذكر انه في ربيع سنة ١٩٢٨ سرت في بيروت شائعة مؤداها ان عالماً تنبأ بحدوث زلزال ارضي هائل في الشواطىء اللبنانية ، فسرت هذه الحكاية بين السكان فهرب اكثرهم الى

هل للجماهير منطق

نرى قبل الاجابة على هذا السؤال وجوب تعريف المنطق الذي نعنيه .
 يفهم الناس بلفظة منطق ذلك القسم من العلوم الفلسفية الذي يتخذونه
 قياساً للتعلم وادراك الحقائق تفادياً من الضلال واجتناباً للزلل ، كأن تقول :
 كل انسان مائت ، ويوسف هو انسان ، اذن فيوسف مائت . اما المنطق
 الذي نعنيه فهو مطابقة الاشياء للحقائق المعقولة . وقبل ان نبعث عنه في
 الجماهير نبعث عنه في الفرد لأن الجمهور يتألف من الافراد ، رغم التنوع
 الذي يطرأ على الفرد بصفته مختلطاً بالجماعة .
 ترى الطبيب مثلاً يقف خطيباً في جماعة وياخذ يشرح مضار التدخين
 وفعل النيكوتين السيء في الرئتين وما يعقب ذلك من النكبات ثم ترى
 هذا النطاسي الخبير من اكبر المدخنين فتعجب لهذا التناقض وتقول في
 نفسك ان هذا الطبيب بعيد عن المنطق .
 وتسمع خطيباً يحث الناس على الاحسان والزهد في الدنيا ، ثم تجده
 بخيلاً حريصاً يستमित في سبيل المال ، فتقول بحق ان لا منطق عنده ،
 فتستنتج من هذه الامور واشباهها ان الناس في حياتهم يعملون عمل الشعراء
 الذين قيل فيهم : او لم تر انهم في كل واد يقيمون ، وانهم يقولون ما
 لا يفعلون فاذا كان الفرد وهو الذي يستطيع الانطواء على نفسه بعيداً

عن المنطق ، فما رأيك في الجواهر بعد ذلك ؟
 وهم ما يؤثر في خيال الجاهل هو الحادث اي الواقع لأنها تتأثر بالمثل
 وهي بقدر ما تستسلم للمخيلة وتجنح الى الحرافات تؤمن بالحادث - والحمد
 لله على ذلك - لأن احدهما يخفف من وطأة الآخر فتتبادل الكفتان بعض
 المعادلة . والمهم في الواقع نجاحه فانك لو حدثت اناس بكل ما اوتيت
 من بيان وبينت لهم محاسن النازية واخفقت السياسة النازية لحق لهم الشك
 بصدق نظريتك . ولو حدثك عالم من علماء الاقتصاد السياسي وبين لك
 الطريق المفضية الى الكسب والثروة وكان هو فقيراً مملقاً لا يملك ما
 يستبدل به ثوبه العتيق لما اقنعك . ولكن مهاجراً يعود من جاهل افريقيا
 مثرياً تتألق في اصابعه خواتم الألماس ، وهو آمي جاهل يستعصي عليه احصاء
 الاموال التي بين يديه ، يحدثك من وجوه الربح فيقنعك لأنه افلح في
 تجارته فوطد نظريته بالواقع الملموس . ومن هذا القبيل عدم اعتقاد الكثيرين
 بفعول الادوية ، لأنهم يطالعون البيانات عنها فيرون انها تشفي من امراض
 الامراض ثم يجربونها فاذا هي لا تشفي شيئاً فيقبلون الشفاء ويرددون
 القول المأثور : اقرأ تفرح ، جرب تحزن . ومن يجهل ما تقيه كولومبوس من
 تدمير البعارة ونقمتهم عليه عندما طال بهم الأمر وينسوا من اكتشاف
 العالم الجديد فلما بلغوا اليابسة هتفوا لكولمبوس وهتف بعدهم التاريخ .
 وكذاك قل عن انيبال (Annibal) بعد قطعه جبال الالب ودحره الرومان .
 ولقد ظلت ذكرى انتصارات نابليون في اوسترليتز ومارنغو (Marengo)
 شفيمة به لدى الجيش حتى موقعة واترلو (Waterloo) لأن الواجهات
 السابقة كانت تحمل الشعب على الايمان بقوته حتى ايام الهزيمة . وقد يكون

الشعب غير بعيد عن المنطق في مثل هذه الاور ولكنه جد قريب من التهور والخروج عن المنطق . فلو طلب مطلباً واعطيته الشعب لطلب المتر فاذا نال المتر طلب الكيلومتر وهم جراً . ويذكر الناس انه لما قام غاندي منادياً بالعصيان المدني للتخلص من الضرائب اشتط المنرد في تفسير الفكرة وامتنع الفلاحون عن دفع الحصة التي تعود الى اسيادهم اصحاب الارض وعن دفع الديون الشخصية . وترى بعض المؤرخين ينحني باللائمة على بعض المشترعين الخالدين لانهم لم يعمدوا الى خلع نير الاستعباد وانقاذ الملايين من العبيد الذين كانوا يسامون العذاب ويساقون الى الاعمال المرهقة سوق البهائم . ويرد على ذلك بأن هؤلاء المشترعين بشروا بشريعة الحجة وافهموا العبيد واجباتهم نحو اسيادهم وارجبوا على الالسياد الارشاد بالحسن ، تاركين لتطور الزمن ان ينقذ المستعبدين من اغلالهم . ولو اتبع المشترعون خطة غير هذه كأن يلهبوا الحماسة في صدور العبيد داعين الى التحرر لأفضى الامر الى عواقب وخيمة لأن العبيد كانوا يفوقون اسيادهم عدداً واكثرت الثورة اشتعلت اشتعالاً يأتي على الاخضر واليابس معاً ذلك أن الجماعات لا تعتمد على المنطق . والجماهير كالأفراد تنظر الى الاشياء بمنظار المنفعة الشخصية ، ففي اثناء الازمة المالية العالية التي اجتاحت العالم بين سنة ١٩٣٢ و ١٩٣٩ كان معظم الشعب يحسد المرظفين لان المواد الغذائية رخيصة والمرظف يتقاضى مرتبه في آخر الشهر بدون كبير عناء فكان الشعب يكره المرظفين لمجرد انهم مرظفون ، وعندما ارتفعت اسعار الحبوب والمواد الغذائية اصبح يكره المزارعين والتجار وهم جراً .

ويذكر الانجيل ان الشعب الاسرائيلي استأذن بيلاطس في صلب

يسوع فتردد بيلاطس كثيراً في الامر ، وكان ينوي في سره انقاذه منهم فطلب من اليهود ان يدفعوه اليه ليؤذبه ويطلقه ، وخيرهم بين اطلاق يسوع او برأبلس فاختراروا برأبلس وكان لصاً خطيراً يستبيح المحرمات ويسفك الدماء . ولما رأوا بيلاطس متردداً هددوه برفع الشكوى عليه الى قيصر بتهمة الخيانة فخاف واسلمهم اياه . فانظر الى منطق الجماعات كيف يكون ، انه اقرب شيء الى الجنون .

وقد وقعت حادثة سنة ١٩٢٥ في احدى قرى الجنوب ملخصها ان رجلاً شيخاً عرف بالصلاح وسلامة النية رأى في منامه ان سينبع في ارضه ماء يشفي المرضى ، وكان ذلك في اوائل الربيع . واتفق لدويهم انهم بينما كانوا يحرثون الارض في اليوم الثاني اصاب المحراث احد جذور الكرمه فانقطع وكانت مائته غزيرة لوقوعه في سفح مشبع بالرطوبة فكان الجذع بمثابة الموصل تجري عليه المياه التي تتجمع في المنحنى . وذاع الخبر فتقاطر الناس من كل صوب بغية الاستشفاء . واصبحت هذه القرية الصغيرة مزاراً يقبل عليه الناس مئات والوف يتوافدون من مختلف النواحي اللبنانية حتى من سوريا وفلسطين . ولكن الماء كان ينضب كلما اقترب الصيف وظلت الجماهير تلهج بذكر العجائب الوهمية . وقد شاهدت المكان مرات عديدة مع نفر من اصحابي فلم تر الا ظاهرة طبيعية ، ولكننا لم نجرؤ على الاصطدام بالجماهير النائمة في بيداؤ الوهم فأثرنا السكوت يقيناً منا بأنه سيأتي الصيف وينضب الماء . غير ان السلطة الكنسية سبقتنا الى التصريح فجزمتم بأن الامر عادي فلا معجزة ولا مزار . وقد استغلت بتصريحها هذا كثيراً من الشتاء والسباب ولم يكتمل شهر تموز حتى نضب الماء تماماً ، وتخلصنا

المستوى العقلي في الجمال

معروف ان في الانسان ناحيتين الاولى حيوانية والثانية روحية . وانما الانسان يكون بهذه الثانية انساناً ، اما الاولى فيشاركه فيها الحيوان بل قد يفوقه في كثير منها . فمن اين للانسان قوة الفيل ، وشجاعة الاسد ، والوان الطاووس ، وسرعة البازي ، وما يتصل بذلك من الصفات التي يفضلها بها الحيوان ؟ وانما قصد الشاعر هذا المعنى اذ قال :

لولا العقول لكان ادنى ضيعم ادنى الى شرف من الانسان
ويتساوى سفلة الناس بشرافهم في مناح عديدة فانهم يتساوون بالولادة
والموت والصحة والمرض والنوم واليقظة واشياء اخرى . ولكنهم يفترون
بناهم فيه بشر اي بالعقل ، ومن هنا نجم خطأ القائلين بوجود المساواة
بين البشر ، وعقولهم مختلفة اختلاف الوانهم وهيئاتهم . ولو تساوى الناس
في كل شيء . لحرب الكون . فكما ان في الجسم رأساً وهو ضروري ونفيس
ففي الجسم رجل وهي ضرورية ايضاً ولكن الفرق بينهما وبين الرأس
فرق ما بين المثالي الرفيع والنبي الخسيس . وانك لو نظرت الى شعب
وحاولت تحديد النسبة المثوية بين العاديين منه والنابعين لتعذر عليك الامر
فتعمد الى وضع النسبة الألفية وتصعب عليك هذه ايضاً ، فتضطر الى اقامة
النسبة المليونية فتقول ان في المليون ثلاثين او خمسين عبقرياً . فاذا نظرت
الى ملايين الاغريق مثلاً في العهد القديم اقيمت هو ، يروس وسقراط وافلاطون
وارسطو او الى ملايين الفرنسيين في القرن السابع عشر تبادر الى ذهنك راسين
ومولير او الى الامة الانكليزية طلع عليك شكسبير .
اما الطبقة المتعلمة فهي كثيرة في الشعوب خصوصاً في القرن العشرين .

واكن ما اندر المفكرين في هذه الفئة الخاصة ، ولم يكن الطلاب الا طلاب شهادة .

واصبحت الشهادة وسيلة للعيش فاذا بلغها الطالب بعد شق النفس خلد الى الراحة وابتى ان يطلق تفكيره في الطبقات العلى لان ذلك يكلفه جهداً فتراه يتساورى بالفئة المعلقة بين الامية والعلم ، يحدثك من الامور التافهة كالازياء ، والملاهي والقصص الغرامية وما يتلاقى عليه كل الناس من الكتب السخيفة التي يلهون بها اما لاثارة شهوة وتعليل خيال ، واما لنيل ثناء فارغ كأن يقال ان فلاناً يساير عصره ويلم بما حوله ، وكذا ان العلم الصحيح نادر فكذلك الفضيلة بل هي اندر ، فكثيراً ما نرى ونسمع ان الذي يعنف عن الاموال والاعراض يفعل ذلك خشية السجن ، والمتبرع للفقراء يتبرع حباً للشهرة واستجداء المدح ، والذين يأتون بيوت العبادة يأتونها اما بدافع التقليد والعادة واما قطعاً لاسنة المتعبدين . اما الذين يحبون الفضيلة لانها الفضيلة والحقيقة لانها الحقيقة فانهم اقل من الجود في صدور البخلاء .

وارجع انك لو طوّفت في هذا الكون الفسيح باحثاً عن سقراط آخر يموت من اجل الحقيقة لما وجدته . واني اشك بذلك الوجدان الذي تغنى به روسو وحسبه الرادع المكين الذي يعصم الانسان من الشر . ويعلم الله ماذا يفعل هذا الوجدان بعد ان تقيب الشمس ويصبح صاحبه في مأمن من الرقباء . اما الذي يتبجحون به من المدنية الزائفة فهو طلال جذاب يجرفه سيل الشهوات ، وجذع نخر معلق على شفا جرف هار لا يستطيع الثبات في وجه الزوبعة . فاذا عرفت ان التفكير الراقى ، والعلم الصحيح ، والفضيلة الرضاة ، نادرة في المجتمع ، وانها تصيب النخبة الضئيلة من الناس سهل

عليك ان تعرف منهم تتألف الاكثية الساحقة في الشعوب اي من جهلة الناس وراءهم . اما التقدم البشري فلم يقيم على اكتاف السواد من الناس بل على ادمغة العبقريين . فليس الشعب الفرنسي هو الذي اكتشف الجراثيم وخفف كثيراً من النكبات التي تلم بالبشرية ووضع المصل الشافي من داء الكلب بل باستور وحده ، وليس الشعب الايطالي كله وضع المسرحية الالهية بل دانتي ، وليس الشعب الايركي كله سخر الكهرباء لخدمة الانسان بل اديسون وهلم جرأ . بعد هذا كله توقن ان الشعوب موقدة بالشهوات ، لاهية بالباطيل ، وان الاكثية لا تفكر الا ارتجالاً ولا تمي الا عرضاً . وتسري العدوى الاجتماعية في الجماهير ويتأثر الفرد بآخر ويشجع الانسان بما يشهده من نظرائه ومن هذا القبيل عدوى الازياء . افنتظن ان السيدة عندما تحمر اظافرها تستطيع ايها الرجل بان الطبيعة حبثها هذا اللون الوردى ؟ كلا واكنها حواء رأت حواء اخرى تفعل ذلك فتشجعت ففعلت . وكنت اصمع بعضهم يقول ان الانسان يقوى ويأنس برفيق ولو الى المشقة فادركت المعنى ولكن لم اتبينه تماماً حتى لمستهُ لمساً في حادثة وقعت لي سنة ١١٣٠ وكنت اذ ذاك قاضياً في الغرفة الحقوقية بحكمة بيروت البدائية ، فقضى المجلس العدلي باعدام شخصين ارتكبا جريمة قتل في محافظة البقاع فكلفني النائب العام الاستئنافي ان اصحبه الى سجن الرمل لعل احد المحكومين يريد ان يوصي بشي . قبل اعدامه اذ يجب ان يتلقى هذه الوصية احد اعضاء الغرفة الحقوقية . فبلغنا سجن الرمل حوالي الساعة الرابعة من ليلة ١٣ نيسان وسكون الليل مخيم حينئذٍ على تلك البقعة ، والفجر لم يتنفس بعد ، وفتح باب غرفة السجين الاول وكان نائماً يغط في

نومه ، وافهمناه ان يستعد لملاقاة ربه . واتجهنا الى غرفة السجن الآخر
 وكان قد استيقظ ، واول سوال وجهه الي هو هذا : أنا وحدي ام انا ورفيقي ؟
 فاجبته انه ورفيقيه . فرأيت انه انس رفيقي الى المشنقة .
 وانما يقوى الانسان في الجماعات لانه يرى فيها من يفكر مثل تفكيره
 ويذهب مذهبه . فلو كلفت خطيباً ان يقف في حشد ويتكلم في الموضوع
 الفلاني فلا ريب ان قوته المعنوية تزداد اذا علم ان السامعين يرون رأيه فهو
 يستمد جرأته من سامعيه المؤيدين . والكنه لو علم غير ذلك لارتبك
 وتضعف ، وقد يشذ بعض الخطباء عن هذه القاعدة ، ولكن قوة اخرى
 تكون وراهم وهي اما القوة المعنوية واما قوة السيف . وما جرأة الحجاج
 بن يوسف التقي على خطبته المشهورة في العراق الا قوة الخليفة الاموي من
 ورائه . وقيل لي ان اثنين من زجالي القرن التاسع عشر كانا يتحاوران
 فأتى احدهما على ذكر بطولة ابراهيم باشا المصري فقال احدهما : ابراهيم
 باشا احتل بلدان التراك . فاجابه الزجال الآخرة : خلف منو همة محمد علي .
 اجل ان الجماعات تستمد بعضها من بعض همة نظير همة محمد علي .
 والغريب ان الرفيع يتأثر بعقلية الرضيع في الجماعات اذ يتخلى عن كثير
 من مداركه وآرائه ليساوي الآخرين . وفي اللغة الفرنسية مثل مؤداه ان
 من يتعذر عليه رفع الآخرين الى مستواه لا بد له ان ينزل الى مستواهم .
 وهذا صحيح فان لم يفعل ظل هو في واد وهم في واد آخر .
 وعندما تنفجر الجماهير وتمشي في تظاهرة مثلاً يصعب على الراقين بين
 افرادها وقف التيار الجارف ولكنها تخضع احياناً لارادة زعيم اذا كان
 نافذ الكلمة عريض الجاه وكانت الجماعة على يقين من اخلاصه لقضيتهما .
 وقد تكون التظاهرة سلمية بجملة وتسير بهدوء . ونظام اذا كان افرادها ممن

ينتمون لحزب او جمعية لها نظامها وآدابها ، فان التهذيب واحترام النظام يلجمانها من اتيان الموبقات . وفي الاعم الغالب يدفع الهوس بالجماعات الى الحيوانية التي احتجبت موهباً واختنقت تحت قشور الانسانية . ولهذا الحيوانية مظاهر شتى ، منها القتل والسرقه وهتك الاعراض والتمثيل بالجنث . وتختلف وحشية هذه المظاهر شدة او ضآلة باختلاف البلدان والامزجة والمعتقد . وكما ان المجموع يستطيع التأثير على الفرد ، فكذلك يستطيع الفرد التأثير على الجماعة اذا كان من الافذاذ الاقوياء . فبدلاً من ان يتلاشى في العدد الوفير يعلو ويملئ ارادته على الجمهور . وكثيراً ما تبرز هذه الشخصيات الكبرى في الظروف الاستثنائية لان الجو يلائمها فتثبت وجودها وتجازف مجازفة كبرى فاما ان تخسر الكل واما ان تربح الكل كما فعل نابليون الاول ، وانما بطولته ولينة الثورة . ومن النوابع من لا يتأثر بالجماعات فيبقى مفرداً حلقاً وقد تختلف طباعه عن سائر الناس وربما هزأ به معاصروه ولكنه اذا كان عبقرياً ملهماً خلد بعد موته . وهذا شأن الكثيرين من الانبياء والادباء والمخترعين الذين يعلمون سلفاً انهم خالدون في ضمير الاجيال ، فانهم لا يعملون لزمان او مكان بل للمطلق . وقد ترى في الشخص الواحد شخصيتين مختلفتين احدهما تسائر الجماعات مكرهة ، واخرى تظل مهتصة باستقلالها . واذكر من هذا القبيل ان شاعراً لبنانياً كلف القاء قصيدة في احدى المناسبات فآلقها وصنق له السامعون كثيراً وقد رضي عنها الحاضرون جميعاً ما عدا صاحبها لانه مزقها بعد خروجه من الحفلة ودفع الى الصحفيين قصيدة اخرى بدلاً عنها فأرضى الجماهير في الاولى ، وارضى في الثانية نفسه والادب العالي ورفارف الخلد التي وقفها الله على النادرين من عباده .

رد الفعل في الجماعات

الطبع البشري عرضة للتبدل والتقلب ، وما يضح قوله في الجسم من هذا القبيل يضح قوله في النفس فلا تمر بالانسان لحظة كما سبقتها ، ولو لم يكن الامر كذلك لما تطور المرء من الطفولة الى الشيخوخة . ويظهر التبدل الخلقى في ظروف خاصة تعرض للاشخاص ، فقد ترى بين الرجال جباناً يفرق لذكور السلاح ثم يضطر لحوض معركة فلا ترى احاب منه قلباً ولا اذى مزينة . وكم من يجيل يرضن بالدرهم على اولاده وزوجته فاذا ترات ببلده نكبة او دعاء داعي الوطنية اخذته الحماسة وجاء في طبيعة المنجدين ، وهذا ما يسمونه رد الفعل . ومثل هذا الانقلاب الفجائى الذي يطرا على الفرد يطرز على الجماعات ، فترى هذه الجماهير التي نعتناها في احاديث سابقة بالطمع والميل مع الشهوات والانانية تندفع في بعض الاحايين الى الخير والاحسان وتوفى المروءة حقها فتبذل بدون حساب وترج بانفسها في مواقف الخطر . وكثيراً ما تتفتح هذه المواطنين في حال وقوع نكبة مروعة كحصول حريق مثلاً في القرى الخالية من دائرة الاطفائية ، فتدى الشبان المترفين يندفعون بتلك الايدي الناعمة لإطفاء النار فلا يرضنون بالوجه النضرة على الالهيب . وترى الفتيات والبيدات الرافلات بالحلى والحريز والمحوريات بالوصائف والخدم يتطوعن لخدمة الجرحى على اثر حصول زلزال او ما

شأكله من النكبات العامة ، فلا يتورعن عن ضمد الجراح وخدمة اقندر
الناس . وكما تكون حمية الجماهير اقوى من حمية الفرد في الشر فكذلك
تكون اغزر وامضى في الخير ، ذلك ان الجماعات تستهدف في هذه
الحالات غاية واحدة وتناسى كل شيء سواها . وكثيراً ما ترى بين
الثائرين انفسهم من يبلغون في بعض الظروف من العفة وكبر النفس مبلغاً
يشكرون عليه . وهذا يدل على ان للجماهير عواطف نبيلة ومرورات تحمد
عليها ، ولكن هذه المرورات التي تدفع بالجماعات صعداً تكون على الاعم
الغالب موقته تزول بزوال اسبابها . ومن ألقى نظرة على التاريخ رأى
عاطفة الوطنية تدفع باصحابها الى الاسماتة في سبيل وطن او عقيدة حتى
اذا بلغ الشعب العساية قام على اكاليل غاره وفقد ثرة النصر بالكسل
والتراني ، وهذا ما جرى للاغريق والرومان والعرب . *قاله ميشال ريشان*
والمؤرخ الفيلسوف ابن خلدون البحاث قيمة . مستفيضة في هذا الشأن
منها قوله : « والرغد يولد الدعة والانغماس في الشهوات ، فالعمل ينشى .
الرغد اول الامر ، ولكن بعد ان يصل الناس الى اعلى درجة في الحضارة
يتخذون من يعمل لهم . ويزيد الترف فيفقد الناس بأسهم القديم ويعجزون
عن الدفاع عن انفسهم ثم يفسد الدين في نفوسهم وتنكسر ثرة العصبية ،
والدين والعصبية هما اقوى عاملين . . . ثم يصير كل شيء في داخل الدولة
في حالة انتقاص وتحلل » . *هذا ملئت ، ميشال ريشان . قلت قديماً*
ولم نعود الى التاريخ البعيد لاقامة الدليل ؟ ان انكسار فرنسا سنة
١٨٧٠ شحد هزيمتها فعزّت ، اما انتصارها سنة ١٩١٨ فكان سبباً في رد
الفعل والنخاذل والانصراف الى الابطال ، فافضى ذلك الى نكبتها

سنة ١٩٤٠م والبلد الذي فيه نعتت بكلمة دة لعلنا نلخصها في ثلاث
 ولا غرابة في هذا القول فتلک سنة الطبيعة لان الصعود يعقبه النزول ،
 وشارب الخمر يشرب ويشور في بده سكره فهو كالقدر الجياشة تتسارع
 نبضات قلبه ، وتردحهم الحاطرات في رأسه ، وتتسابق الافاظ على لسانه
 ولو انه كان في حالة الصحو لرأته حياً يتعثر باللفظ وينوء لسانه بالكلمة ،
 ثم يأتي دور الخمود فيثقل اللسان ، وتبوح الذاكرة وتسترخي العضلات
 ويدخل السكران في نوم عميق ، والاذنان يسال بطبعه الى التراخي
 والكسل . ولا ريب ان النشوة التي يجسها المدمنون على المورفين وامثاله
 هي زيادة في كسل الاعضاء وتراخيها ، والجماهير تجنح الى الكسل
 والاستقرار . لذلك يصعب التجديد على المجددين لان الجماعات تأنف نوعاً
 من العيش وتقرره فلا تطيق ان تبذل جهداً لتعلم غيره او تنهج نهجاً آخر ،
 حتى ان المشاريع الحيوية نفسها تلقى مقاومة شديدة من الشعب . ولو لم
 يجاب الامير بشير الشهابي الماء قسراً الى بتدين للقي اشد المعارضة . وقس
 على هذا غيره من المشاريع العمرانية . وانك ترى سكان الجبال الوعرة اكثر
 نشاطاً واصلب عوداً من سكان السهول الفيحاء الذين خلدوا الى الراحة في
 الظلال الوارفة .
 وترى اكثر المصلحين يعمدون الى ادخال الاصلاح تدريجياً ، اذ تكون
 الوثبة خطيرة . فكما ان المعدة لا تستطيع الهضم في خمس دقائق ، وكما ان
 معدة الطفل تهود على الماء كل تدريجياً ، فكذلك الجماعات عقلها كمعدة الاطفال .
 ويذكر التاريخ انه عندما اراد بطرس الاكبر ان يدخل الثقافة
 الاوروبية الى روسيا امر الروس ان يتروا بزى الاوروبيين فهان عليه بعد

ذلك ان يحبب اليهم الثقافة الاوروبية لانهم تجاوزوا المرحلة الاولى . ومن راجع تاريخ تركيا الكمالية رأى تأييداً لهذه النظرية من وجوه عديدة لأن الجماعات تقف غالباً موقف الحذر من اي جديد . وعندما كانت حكومة المتصرفية في لبنان تفتح طريق العربات في بلاد ما كانت تلقى اشد المقاومة من السكان اذ كانوا يفضلون سلوك الطرق الوعرة زاعمين ان الخيل لا تستطيع اجتيازها فيما لو خطر للدولة التركية ان تغلب عليهم فتشن الغارة على جبالهم ، ولكنهم بعد ان لمسوا منافع الطرقات واهمية المواصلات اصبحت يتسابقون الى تعميمها . وقد خطر لاحد مؤرخي فرنسا ان يدخل زراعة البطاطا الى بلاده ولكنه خشي ان هو فرضها على الشعب فرضاً ان تفرته النتيجة المقصودة . فظاهر كأنه يمتكر زراعة هذا الصنف ، ولكن سرعان ما امتدت اليه ايدي المزارعين خلسة وهكذا تعميم زرع البطاطا في فرنسا .

قلنا في بدء هذا الحديث ان الشعب ينقلب ويتغير . اجل وهو متطرف لا يلزم الاعتدال والحالة الوسطى ولكنه يقفز من طرف الى آخر لانه يندفع مع العاطفة . وقد يكون شعره في سبات عميق ثم يستيقظ احياناً فيجسب المراقب السطحي انها طفرة . كلا ولكنه شعور كمن في النفوس الى حين فانفجر في ظرف ما ، وقد يعود فينقلب الى ضده في وقت قليل . ومن هذا القبيل ما جرى لاسيد المسيح ، فان الشعب كان معجباً به وقد شهد شفاء المرضى وقيامه الموتى وسمع تلك التعاليم السماوية وشبع من الخبز والسماك فلما عرف بمجيء يسوع الى اورشليم هبت الجماعات بسعف النخل والزيتون تفرش ملابسها في طريق المسيح وتنثر الورد والرياحين هاتفة لابن

بحث في الاديان القديمة

نبدأ منذ اليوم سلسلة اجاث دينية تتناول الاديان القديمة التي عرفها التاريخ . ولا يتناول الكلام الأ المذاهب المعروفة قبل المسيح ، قاطعين على نفسنا مهدياً بأن لا نتعرض للمذاهب التي يدعى بها العالم اليوم الا ما كان من بعض معتقدات القبائل المتوحشة المتفرقة في بعض نواحي استراليا وافريقيا والمناطق القصية . وبما انه يتعذر علينا الامام بكل شي . او تفصيل المسائل باسهاب ، فاننا نجتري . بذكر هذه الاديان بحيث نصورها باختصار تصويراً صحيحاً ، ونحسب ان في ما سنورده بعض الفائدة والمطال ، اذ نعرض ما رافق الفكر البشري من علو وخفض ، وخرافة ومحو .

وتكاد لا ترى بين هذه الاديان المتعددة واحداً يخلو من الاعتقاد بوجود حياة اخرى وقوة تفوق قوة البشر ، ان لم يلجأ اليها الانسان في حال قوته ، فهو يضرع اليها في ابان المحن حين تنقطع به الاسباب الأرضية ، فان لم يتوسل اليها بلسانه توسل اليها بقلبه . ومن هو الانسان وما هي قوته ؟ انه اضعف من نور شمعة في مهب الريح .

واول ما نتناوله بالبحث هو بعض الاديان الفاشية في القبائل الافريقية . والشعب الذي يدور الكلام عليه هو شعب البانتو (Bantou) وهو اوفر

الشعوب الافريقية عدداً ، يتفرع الى قبائل عديدة ، لكل منها تقاليدها .
والاقاليم التي يقطنها تمتد من شاطىء الاطلسي حتى شاطىء الاوقيانوس
الهندي . وتختلف اساليب العيش في هذه القبائل باختلاف البقاع ، فمنها
ما يعيش من تربية الحيوانات ، ومنها ما يعيش من الصيد وهلم جرأ .
وان المسافرين والسياح الذين تجولوا في هذه المناطق ونزلوا ضيوفاً
على القبائل توهموها عريقة في الوثنية ، لا تعرف معبودات سوى الاصنام
والصرر . وهذا رأي خاطىء . ، لأن هذه الصور والتماثيل سبباً آخر وهو ان
هؤلاء السودان يعتقدون بوجود ارواح ، منها الصالحة التي تحرس الانسان
وتسهر عليه ، ومنها الشريرة الضارة ، وهم يتلفون اليها خشية غضبها
ويقدمون لها الضحايا والقوابين .
ولست هذه الارواح نكبات ولكن لها اسماء معلومة ، وبينها وبين
الناس وسطاء هم السحرة والرقاة الذين يستعطفونها ويستمطرون رحمتها ،
ويكتبون اسماءها على التعاويذ والصور والتماثيل التي يأملون منها جلب
المنفعة ودفع المضرة غير معتبرين ان التماثيل بنفسها تستطيع شيئاً .
وهم يعتقدون بوجود عالم آخر لا يقع تحت الحواس ولا ينكشف الا
بعد الموت . وتراهم يخلطون الدين في كل شي . في زواجهم وموتهم وصفرهم
واياهم وغزواتهم وصيدهم ، حتى ليصعب عليك ان تفرق بين الاعمال
العادية التي لا تصطبغ بصبغة دينية وبين الاعمال الدينية المحضة . وانهم توارثوا
هذه الامور خلفاً عن سلف . وهم يخافون ان تنزل بهم النكبات وان تنقرض
القبيلة اذا تخلفوا عن هذه الطقوس . وهم يتوهمون وجود الارواح والقوى الخفية
في كل شي . حتى في الشجر والحجر . لذلك انصرفت فئة منهم الى الاختصاص بجل

الامرار وتفهمها ، فكثير بينهم السحرة والراجمون بالغيب والكهان الذين يتولون التطيب والرقيه وتنظيم الطلسم . وقد تأتي بعض هذه العلاجات بفائدة احياناً ولكن هذه المنفعة تنجم عن تأثير الاستهواء (Suggestion) في النفوس لا عن مزية خاصة بالدواء . فاذا كان هذا نظارهم الى الجاديرون فيه ارواحاً وامراراً ، فانهم بحجة اولي يشيرون موتاهم بجفلات التكريم والتعظيم ويقيمون الطقوس ليعدوا لهذه النفس الذاهبة مكاناً لاثقاً بها ، تثبت فيه وتطمئن اليه . ويمتقدون ان في استطاعة هذه النفوس الرجوع الى العائلة وتعكير صفو افرادها بيبصال الاذى اليهم لذلك تراهم يسترضونها بالتقادم والقرايين لتكف عنهم الشر وتفيض عليهم الخيرات ، وقد يزجرونها احياناً بالصياح والشتائم . ولما كان لا بد لهذه الاشباح من مكان تأوي اليه اذا عادت ، فقد جرت العادة في بعض القبائل على اتخاذ جمجمة الميت مقراً لهذه الروح الهائلة ، فتصبع الجمجمة بلون امر هو لون الدم رمزاً الى الحياة ، وتوضع في مكان من البيت محفوفة بجالي التكريم . وكثيراً ما توضع جماجم عديدة في بيت مشترك للقبيلة فيكون كوخاً واسع الاطراف مبنياً بالحشب ، او انهم يعمدون الى طريقة ثانية وهي اقامة تمثال للستوى ، وان لم يكن شبيهاً بالفتيد ، ويضعون على هذا التمثال خصلة من شعره او بقية من اظافره او ثيابه فتتعرف اليه الروح وتساكن اليه .

وفي بعض القبائل الاخرى يعتقدون ببقاء الروح لوماً في المقبرة ولوماً في بعض الغابات والادغال . واكثها تبقى على كل حال مضطربة هائجة ، وهي لا تزال في طوافها تحن الى الجسم الذي فارقت فتمتعها بالطيبات اذ كان في ميعه الصبا وعنفوان الصحة ، فلا تطمئن اطمئناناً تاماً حتى تدخله ثانية .

وقد يكون ذلك الجسد استحال الى جسم حيوان او جسم انسان ، وربما تقمصت في طفل وعادت سيرتها الاولى ، وهذا هو التناسخ . ولكنه تقمص غامض فلا هو كالتناسخ الذي أفردّه الهنود وعللوا له وشرحوا اسبابه ، ولا هو كالتقمص الذي يجثّه افلاطون في عرض كلامه عن خلود النفس في كتابه الفيدو (Le Phédon) . وترى المورد الحصب الذي يستشره السحرة والعرافون من اعتقاد البانتو (Bantou) بان فئة من الارواح الشريرة كارواح المجرمين الحبيثاء . او النفس اعدائهم في الحياة ، تعود اليهم بعد الموت لتنتقم منهم ، وان في استطاعة السحرة - اذا أوتوا اجورهم موفورة - ان يصفروا هذه الارواح ويبطأوا قواها . وعلى رغم اعتقاد بعض القبائل بان للارواح ثواباً وعقاباً فانهم قلما يهتمون لمصيرها ، وانما يهتمون تأثيرها على مجرى حياتهم ومنافعهم في هذه الحياة الدنيا .

ولكنهم يمتدنون على كل حال بوجود الخالق القدير فيسمونه في بعض النواحي « الحي » ، وفي البعض الآخر « العالي » وما شابه ذلك من الامماء . ولكن هذا التوحيد يختلف كثيراً عن التوحيد الذي تعرفه الامم المتعدنة ، فانهم لا يتساملون عما يريد هذا الخالق وعن غاية وجودهم على هذه الارض .

ويظنون ان السحر والعرافة بما يؤثر على الارواح ولكنه لا يبدل من ارادة الله شيئاً . ولا يحصرون وجود الله بمكان ولا يثابون له بتمثال ولا يحدفون عليه ، كما انهم لا يعبدونه بمعنى العبادة التي نعرفها بل يدركون ان الانسان لا يستطيع حياله شيئاً ، فعليه التسليم والاعتصام بالصبر .

ولكن كيف تأتي لهؤلاء المتوحشين ان يشعروا هذا الشعور ، ترى

العاطفة الدينية ترافق الانسان منذ طفولته العقلية ؟ ذلك هو الارجح فان
 الانسان وجد حيال هذا الكون الهائل فأحس نفسه غريباً ضيقاً في هذه
 الغابات العذراء ، وتجاه هذه القطعان الوافرة من الحيوانات ، فلم يجزؤ ان
 يد اليها يداً ، متجسماً انها ملك آخر . وقد اعلن هذا المالك عن نفسه
 بالمطر والمواصف والرعد او بالامراض والاورثة انذاراً بفضبه . لذلك فان
 الانسان الفطري لا يقدم على بيع الارض بل يتقاضى حق الانتفاع بها لانها
 ملك الله كالشمس والضوء والهوا ، والمنافع يأخذ من الارض ما يعيش به
 ويقدم القرابين لله اي حصته التي تعود اليه بحق الملكية ، وهذا هو اساس
 الصلاة والحفلات الدينية عندهم ، وهو كما ترى متركز على مبدأ المنفعة لا
 على مبدأ المحبة . ولكن أستطيع ان تطالب هؤلاء السودان بالسور الاخلاقي
 الى درجة المحبة ؟ وسنبعث في المقال الآتي كيف تطورت فكرة القرابين
 وكيف استغلها السحرة والعرافون .

والله اعلم بالصواب

المراتب في أدبنا كالأدب في
 المراتب في أدبنا كالأدب في
 المراتب في أدبنا كالأدب في
 المراتب في أدبنا كالأدب في
 المراتب في أدبنا كالأدب في

الغرائب في أديان المشركين

بجئنا في مقال سابق بعض معتقدات البانتو (Bantou) والفكرة
 الاخلاقية التي اوحى اليهم تقديم القرابين . واكن العامل الذي خلق هذه
 العواطف النبيلة هو تفشي السحر والحرافات بينهم ، لان السحرة ايضاً يزعمون
 انهم يقدمون القرابين لقوى غير منظورة فيرتكبون الجرائم ولا يتورعون ،
 والويل للضعيف لان ضحاياهم كثيراً ما تكون ضحايا بشرية اذ يفتكون
 بابن وحيد او بصبية في ميمة العمر الى مسا وراة ذلك من الشرور .
 ويكون العرافون من النساء والرجال ، فهم يعاونون اما بالانفراد مقابل اجر
 معين ولمصلحة شخص معروف ، واما جماعات تنبذ مكاناً قصياً في
 الكهوف والغابات زاعمين ان لهم القدرة المطلقة ، لان بينهم وبين القوى
 الخفية عقوداً سرية . ويسهل على القارى ادراك هذا لانك في بيوت
 نفسها تجد من هؤلاء المشعوذين الذين يدعون الارتباط بملاك الجن
 ويستحضرونهم ويستخرونهم لكشف الكنوز .
 وفي قبائل البانتو لكل عائلة رئيسها ، وهو الذي يحافظ على التراث
 وتقاليد الاجداد ويدفع غضبهم . وهم يمنعون الشاب عن التزوج من نسبائه
 او من بنات قبيلته . وترى بعض القبائل تنظر نظرة احترام الى بعض

الحيوانات كالذب مثلًا فانهم يحرمون قتله ويعتقدون بأنه لا يؤذيهم لما بينه وبينهم من القرى . فكيف نشأ ذلك ؟

يزعمون ان بين اجدادهم والعالم غير المنظور عقداً ومعهادة صداقة تمت في اثناء تقديم الذبائح للاله . وبما ان اقوى رابطة هي رابطة الدم فأكبر حليف لهم هو الحيوان الذي يُضحى للاله . وقد استحال هذه الضحية الى شي . يفوق الطبيعة بجلول الروح عليها ، ومن هنا نشأت القرابة بينهم وبين الحيوان المضحى . ولكن هذه العقيدة اصبحت على وشك التلاشي في معظم قبائل البانتو . وان الكلام الذي قد سناه عن البانتو يصح في القبائل الاخرى لان الدين فيها ينشأ في العائلة اولاً ، ثم يمتد منها الى القبيلة ، فالدين يجرسها وينظم العلاقات بين افرادها فتدى للزواج طقوساً خاصة . وكثيراً ما تقام هذه الطقوس قبل الزواج الفعلي اي عند دخول الزوجين الفتيين في سن البلوغ ، وأكثر هؤلاء السودان يتبعون سفة الحتان . ولا تنحصر هذه العادات في المجاهل الافريقية بل تتعداها الى متوحشي استراليا واميركا والجزر النائية .

ولكل قبيلة رموز وتقاليد تحافظ عليها ، واسلحة تقاثل بها يوم الغزو . ويتسيز افراد القبائل بانواع من الوشم تظهر على الجلد او في الشعر ، وقد بالغوا في دقة الوشم حتى اصبحت عندهم في مكانة فنية عالية . اما وانهم حرموا من التفتن في التصوير والنحت في الجهاد ، فقد عمدوا الى اجسامهم يزينونها بضروب الصور التي لا يراها المتحضرون الا مسحاً للجمال وتشويهاً للجسم . وكل ما يستعصي على هؤلاء الاقوام شرحه من اسرار الطبيعة كحدوث الرعد والزلازل وتزول المطر وما شاكل ذلك ، ينسبونه رأساً

الى الله ، لا باعتباره المحرك الاول الذي سخر الاسباب الثانوية ووضع لها نظاماً طبيعياً بل كسبب مباشر . وهم يرهبون كثيراً ويسمون اب الآباء .
 واول ما يفعلونه عند طلوع الشمس هو ان يتأبوا وراء غيضة ملتفة ويولون وجوههم شطر الشمس . وانت كلما انجھت الى الشمال الافريقي وجدت هذا الاعتقاد بالكائن الاسمي ينمو وينجلي رويداً رويداً . غير ان هذا الايمان لا يحول دون تقديم القرابين للاجداد والاقرباء . باعتبار ان هذه العرى الوثيقة التي تربط افراد العائلة على الارض لا تنفصم بالموت بل تبقى ممتدة الى الحياة الاخرى .

وقبيلة البورياس (Poripas) التي تقطن وادي النيجر (Niger) تكرم آلهة متعددة اكل منها اختصاصها ، فواحد للزراعة ، وآخر للصيد ، وآخر للبحر يحكم على الامواج ويلجئها في طغيانها ، وآخر يدير الكواكب وينظم حرارتها ، وواحد للحرب يستنصرون به على اعدائهم عندما يحمي الرطيس ، وآخر اختصاصي في جلب المكاسب التجارية . وترامم يقدمون الطاعة للآلهة ولزعمائهم والاحترام لوالديهم ، ويجلون الرابطة الزوجية ، ويجرمون القتل والسرقة ، وللضيافة عندهم شأنها . ويعتبرون الزنى جريمة كبرى وكذلك الانتحار . ولكن اغرب ما فيهم انهم يجرمون السحر خلافاً لمعظم القبائل المتوحشة التي تخلط السحر والكهانة بالدين . وهم فوق ذلك كله يعتقدون بوجود اله ارفع من الآلهة الاخرى يسمونه رب السموات ، كما كان الاغريق يعتقدون بان الاله زفس (Zeus) هو فوق الآلهة جميعاً . اما في قبيلة الماسابي (Massabu) وهي قبيلة تعيش من رعاية القطعان ، فانهم يذكرون الله كثيراً ولكنهم لا يعرفون منه الا الاسم ، ويزدادون حرارة في الصلاة

عندما يصيبهم القحط ويجف الكلاء، وتفيض المياه فيقيمون صلاة الاستسقاء، يستزلون بها المطر . ولساؤهم يصلين اكثر من الرجال وبجراحة اشد ، وهذه الظاهرة في النساء . تكاد تراها في كل مكان وزمان سواء في ذلك المرأة المتحضرة والمتوحشة ، ذلك ان الابهال ، صدره القاب النابض لا العقل المتسامخ ، والمرأة خيال وقلب لا عقل وارادة .

اما القبائل المتوحشة الضاربة في استرايا فينطبق عليها ما قدمناه من زميلاتنا في افريقيا ولكنها تمتاز عنها باحترامها الشديد للاشياء التي تعتبرها مقدسة من شجر او صخر او ما شابه ذلك من الآثار التقوية ، فهي في نظرهم طاهرة تدنسها ملامسة البشر لها . اما القبائل المتوحشة في القارة الاميركية فلا تختلف كثيراً عما اسلفناه بشأن سواها . فرئيس القبيلة هو زعيمها و كاهنها . وليس لهم هياكل ولا اصنام يلتمسون شفاعتها بل يحملون التعاويذ والتائم دفعاً للأمراض او للشفاء منها .

والفكرة السائدة عندهم هي ان الانسان غريب على الارض فلا يحق له ان ينتفع بهبات الطبيعة قبل مباشرة بعض الطقسيات ، خصوصاً عندما يتناول من الطبيعة ما اخفته عنه كينابيع المياه مثلاً ، فانهم لا يشربون منها او يغتسلون بها قبل مباشرة الصلوات والقرايين فيجلون الكائن الاسمي الذي وهبهم الارض ، ويعيدون له في كل سنة ، ويعمدون الى بعض اثار الغابة فيحرقونها في مقدمة له ، ويحيطون هذا الاحتفال بضروب من الرقص والغناء . ولكنهم يعتبرون هذا الاله فتناً كآ . تتصلب القلب فهو الذي يهبط بين حين وحين الى محلتهم فيسبب بعضهم ، لذلك فهم يهربون منه . وهؤلاء الاقزام يعتقدون ان السرقة والزنى واختطاف البنات واغرائهن ، جرائم تفض

الخالق وتجلب عليهم النعمة . وبديهي ان زعم القائلين بان هؤلاء الفطريين ادنى الى الضواري منهم الى البشر زعم منافي للصحة . يستنتج من كل ما تقدم ان الانسان . منذ فجر التاريخ ، وعلى الأرجح من قبل ان يبدأ التاريخ جاثت في صدره عاطفة دينية اختلفت باختلاف الزمان والمكان وتنوعت بتنوع الاقاليم وطرق العيش وامزجة الشعوب . وانك بقدر ما تعود كراً الى الوراثة تلاقى هذه العاطفة قوية مجردة . فان الكلدانيين . مثلاً كانوا دون اليونان ثقافة وفلسفة ، ولكنهم اكثر تديناً واقرب من الرومان الى العقيدة الصحيحة ، مع ان الرومان بلغوا قمة الحضارة والغاية في علم التشريع ، وبسطوا مدنيتهم هذه في جوانب المعمور حتى لا تكاد تخلو من تأثيرها واحدة من المدن القائمة اليوم .

واننا اذا نظرنا نظرة شاملة الى الديانات القديمة بعد تجريدنا من الفروق الاقليمية نرى عروقتها تتلاقى على صعيد واحد . والنقاط المشتركة بينها عديدة ، منها الكهانة التي يقوم بها رئيس العائلة في بادىء الامر ثم تتطور فتقوم بها فئة خاصة من القبيلة تتولى تقديم القرابين وتصيح الوسيطة بين البشر والقوة العالوية التي يحسونها مما يخاط شعورهم هذا من الالهام ، باعتبار ان وراثة هذه الحياة الدنيا حياة اخرى ، وان لهذا الكون مديراً قوياً وخالفاً اسمى هو رب الموت والحياة ، وان الانسان ضعيف فلا بد له من الانتجاع الى تلك القوة العليا . ومنها الاعتقاد بخلود الارواح ووجود الصالحة والشريفة منها . ومنها تيقظ الضمير الانساني منذ البدء وشعوره بوجود الخير والشر والتمييز بينهما ، وهذه خطوة مشكورة في الاخلاقيات ، وان وراثة القانون الموضوع قانوناً طبيعياً تلميه الفطرة على الانسان بدون اجهاد

لمحات في الديانة الهندية

لا يخفى على كل بصير ما للهند من تأثير في مجرى الفكر البشري، وعلى الاخص ما يتعلق بالدين . لذلك رأينا ان نستعرض في بعض مقالات اهم النقاط التي تركز عليها فلسفة الهند واديانها ، وهي من اعرق واقدم ما عرفنا من تاريخ الفكر البشري .

الدين قبل البراهمة

منذ فجر التاريخ تكونت في الهند القديمة فكرة خاصة تسربت اليها من التراث الآري الهندي (Indou-Arien) وهي فكرة دارت حول الحياة والكون ، وهجرة الارواح ، وانتظار الثواب والعقاب في حياة اخرى ، وكيفية التخلص من التناسخ اي تقمص الارواح باعتبار انه عقوبة للانسان ، اذ كلما عاد مرة الى الارض عارده الالم وكان ذلك تكفيراً عن ذنوب سلفت في حياة اخرى سابقة . واجمع الهنود على ان الوسيلة الناجمة للتخلص من الالم هي السيرة الصالحة ، والتزام العفة ، وادراك المعارف المقدسة وقد تفرع على ذلك فكرة التقديس والتأليه . ولم يخرج عن هذه المبادئ الاساسية احد من العلماء الروحانيين في الهند حتى ان فوتما بوذا نفسه لم يخالفها . والمرجح ان المثقفين من الهنود القدماء لم يؤمنوا بالذاتي

يستطاع تصويره ، وانهم بحجة اولى لم يؤمنوا بالصنم بل كان جرهر معتقدهم رياضة النفس على التقشف وادراك المعارف الروحانية العليا سعياً للخلاص من التعمصات العديدة . ولقد نبتت على حواشي هذه الفكرة الاساسية طفيليات اخرى ، وهي فكرة تعدد المعبودات او الاعتقاد بمعبود واحد ، ولكنه توحيد محفوف بالغموض رغم تسليهم بان هذا الخالق هو مبدع الكائنات ، مبدأها وغايتها الاخيرة ، وانه كائن عقلي لا يدركه الحس . وبسبب هذا الاعتقاد ساد النظام في الادبيات وعرفت الفضائل وحددت الخطايا وكثر المخالفون . وقبل ظهور بوذا كانت الصيغ الفلسفية وقضية الاتصال بالله (Théosophie) قد رسخت في الاذهان .

وقبل نشر البراهمة كان الهنود القدماء يعتقدون بان سعادة الاموات موقوفة على الخدمات التي يؤديها احفادهم الشرعيون من الذكور . وتفرع على ذلك ان الزواج إلزامي لان المزوج يكفل القبطة لأجداده ويؤمنوا لنفسه بما سيفعله احفاده من اجله . ومن هذه الواجبات المفروضة على الاحفاد احراق الجثة ودفن العظام وبذل التضام اليومية واقامة المآدب وما يرافق ذلك من الطقوس والمادات . ومن معتقداتهم ان الميت اذا كان من الاغنياء وقدم الافعال الصالحة في حياته فانه يتم بالملكوت الثوراني في معية الملك الاول ياما ، ويكرن في صحبة اجداده المنبوطين الذين يرحبون باحفادهم الانقياء الداخلين منازل النور هذه . اما المحرومون من مملكة النور فغالبا ما يكرنون في عداد الاشباح الهائمة . ولكن قضية العقوبة الاخرية وتفصيلها لم تبحث بحثاً جدياً في هذا الطور الاول من تاريخ الهند . ولقد آمنوا ايماناً راسخاً بان الالهة تبغي القرابين المستمرة فكانوا

يرفون لديها الصلوات مستمطرين الذرية الوافرة من الذكور ، والحر الطويل ، واقتناء القطعان المدينة ، والحصول على الثروة والغنائم . ولما كانوا يصلون مستغفرين من ذنب او متخوفين من عقوبة . وفي الغالب كانت تنشد هذه الصلوات انشاداً يرافقه النغم والايقاع في احتفالات متعددة تقدم في اثنائها الأطعمة للآلهة . فاذا كان الاحتفال شائعاً اضيف الشراب المسكر الى المائدة ، وهو شراب السوما الذي كان يسكب غالباً على نار المحروقات معتبرين ان في الآلهة عطفاً على المحلوقات ، وانها تسر بالضحايا وبينها من يهتم كثيراً بالاخلاق والادبيات .

وعلى رأس هذه الآلهة اميرا (Ahura) وهو المدع الحافظ الاجرام السماوية والكواكب ، وإندرا (Indra) وهو اله الحرب وله ولع بالشراب وخصوصاً شراب السوما (Suma) وهو الذي ينزل المطر فيروي الارض ويملا الانهر والغدران ويفتك بالشياطين المبسوثة في الاجواء .

اما الاله المحبوب فهو النار (Agni) لأنه اقرب الآلهة من البشر اذ انه رب وصديق معاً يحمل تقادم الناس الى الآلهة . ومنها الاله الشمس الذي يسير هذه المركبة الذهبية في الجو ، وهو يبصر في الليل بواسطة النجوم لانها عينونه . ولم يزل الملايين من الهنود يرفعون صلاة الصبح للاله سافيتا (Savita) وهو احد القاب الاله الشمس فيبتهلون اليه اليوم كما كانوا يضرعون اليه منذ اربعة آلاف سنة . وعلى الرغم من الاعتقاد بهذه الآلهة فان السحر ظل يفعل فعله في الهند ، وان في ما قدمناه عن الديانة الهندية القديمة نقاطاً عديدة تشترك فيها سائر الاديان العتيقة خصوصاً عبادة الاجداد والتضحية لهم والتخوف من عقابهم وبذل المشروب والمأكول لهم

والاعتقاد بالسحر ومفاعيله .
 أما البراهمة فعناها الأساسي الصلاة وقد ذكرنا ان الحفلات الدينية كانت تتوالى وتقدم في اثنائها القرابين وترتل الاناشيد . ومعلوم ان الشعب كله لا يحسن القيام بهذه الطقوس ، فلا بد من فئة مختارة تتولى هذا الامر . فالبراهمة هم في الاصل هؤلاء الكهان ومهمتهم في الهند شبيهة بمهمة اللاويين في الشعب الاسرائيلي . وقد ابست هذه الطقوس شكلاً مقدساً بمرور الزمن ، وكانت كلما اورغلت في القدم حسبت وحياً وتزيلاً ، واضحت علماً خاصاً ، له مراسيمه واشكاله ، ولأهله منزلة اجتماعية عالية . وقدت هذه الوظيفة وراثية وافرادها يعتبرون الوسطاء بين الآلهة والناس ، لا تقتصر مهمتهم على تقديم القرابين فهم الذين يتولون ادخال الاحداث في الدين ، ويلقنونهم العلوم الابتدائية المؤهلة وكلمتهم هي العليا . واخذت مهمتهم تمتد وتلبس لوناً جديداً . فان النصوص القديمة كانت بمجموعة صلوات وانشيد ترافقها بعض القرابين من الطعام والشراب . وهي بمثابة عقد بين الانسان والآلهة يتخلى الانسان بوجبه عن بعض مقتنياته لهذه المعبودات . اما البراهمة فاستنتجوا من ذلك اسراراً ورموزاً ثم تحطوا الى الابحاث اللاهوتية وابتدعوا علم ما وراء الطبيعة ، يشرحون بذلك مامية الآلهة ومصير الاموات واصل الكون وما يتصل بذلك ، وتفتحت لهم آفاق نظرية كثيرة ، والمرجع انهم اهتموا بها اما بواسطة الاستقراء او بتأثير البيئة الهندوسية .
 وبعد ان انعم البراهمة النظر في هذه الآلهة المتعددة تصوروا ان مصدرها واحد فقرروا ان هذا الاله القدير خلق من ذهب طفا على وجه المياه القديمة ،

وان هذه القوة المبدعة هي التي تحفظ العالم، وان الكون كله في هذا الاله،
ولكن الاله ليس موجوداً كله في هذا الكون بل ربه في الكون
وثلاثة ارباعه الباقية في السماء. وهذا هو مبدأ مذهب الخلوالية (Panthéisme)
الذي اعتنقه كثيرون من فلاسفة اليونان . اما زعيم الفلاسفة الخلوليين
في العصور الاخيرة فهو الفيلسوف سبينوزا (Spinoza). وزعم الهنود القدماء
ان الروح هو قرين الجسد اي نسخة عنه ولكنها اخف والطف، فهو جسم
روحاني مركب من الاثير ولكنه لا يقع تحت الحواس بالنظر لما فيه من
الدقة. وهو المبدأ الحيوي المحرك اطلق عليه البراهمة اسم اتمن (Atman)
ومعناها النسمة وهي النفس . وهذا الجوهر يظهر في حالات الانحطاف
وهو عقل وحياء كذات الله .

وقد علم البراهمة ان النفوس تهاجر بعد الموت قاصدة الشمس ثم تنزل
منها مع قطرات المطر فتغذي النبات والحيوان. وبعد ان كان المعتقد الاول بان
الولادة نازية على الارض عقوبة، زعم البراهمة بأنها شيء طبيعي يلحق
بالمنوعات ولا تعنى منه الآلهة ولا الشياطين، وان الألم هو الاصل اما
المرور فهو نقطة صغيرة بالنسبة الى خضم العذاب، وان لا قبضة الا بالاله
برهما ساكن السماء . ولكن روح الميت يجب ان تبلغ من الرفة مكاناً
قصياً بحيث تتجاوز الشمس حتى لا تسقط نازية الى الارض، بل تذهب الى
الراحة الابدية حيث تتلاشى في المطلق . وقد غير هذا التلميم البرهمي في
مجرى الحياة الهندية وقلل من اهمية الطقوس، وصرفها من مادية محضة الى
رمزية روحانية، واستخلصوا من ذلك ان المرء مجازي بعمله فعليه ان يفعل
الحير، وان النقطة المهمة هي معرفة الحقيقة وادراك الغاية الاخيرة والاتصال

الانقطاع عن العالم . وبعد هذه الخلوة الرهيبة التي استمرت بضع سنوات احس كأن الوحي هبط عليه واعلان عن نفسه انه بوذا ومعناها الملهم او الموحي اليه . وادرك اذ ذاك انه مضطر للخروج من عزلته واذاعة تعاليمه بواسطة التلاميذ والرسل ، فالتف حوله عدد وفير من التلاميذ والنسك الشحاذين يلزمونه متفانين في طاعته ، ناهجين نهجه في سبيل الزهد والابتعاد عن الشهوات . ولم يقتصر امره على هؤلاء التلاميذ بل تعداهم الى الجماهير العديدة من العلمانيين الذين تأثروا بتعاليمه . وسرت موجة الاعجاب بهذه الشخصية الرائعة الى جميع طبقات الامة سواء في ذلك الامير والفلاح والبرهمي الشريف وراعي القطمان . وكان اقبال نساء الطبقة الغنية على اعتناق المذهب الجديد اقبالاً لا مثيل له ، وقد افضن الهبات على الرهبانية التي اسماها بوذا وانضوى تحت لوائه شتى النسك ، واتبته افضل شباب الهند وارفرهم علماء ، لان مذهبه كان مزيجاً من مذاهب عديدة ترمي كلها الى الخلاص والتخلص من الشهوات . وقد احدث ذلك ثورة عظيمة في النفوس حتى ان الاغنياء كانوا يهجرون اموالهم ، والفقراء يتخلون بجحاسة شديدة عن امتعتهم الضرورية التي يقوم بها معاشهم . فالرجال تهجر نساءها والنساء يتركن ازواجهن فتقف البيوت والعائلات ، كل ذلك زهداً في الدنيا وتجرداً منها .

ويروى ان احدى الزوجات تبعت زوجها الذي هجرها للدخول في ازهبانية الجديدة . وألحت عليه بالرجوع وذكرته بولده الوحيد استعطافاً له فقال لها : يا شقية ، اني لا اتحول عن عزمي هذا حتى ولو رميت بولدك الى الثعلب بين مممي وبصري . فتأمل هذه القوة الجالحة التي اجتاحت الجماهير كالزوبعة

تجتاح المشيم ، ذلك انه لم يقيم في الجماهير اقدر منه على الاستهواء والتبشير .
فقد اقنع الناس بان الدنيا في جحيم مستعر ، وان على من اراد الخلاود
والتخلص من الرجوع الى الحياة ثانية ان يترك هذه الدنيا ويطرح كل
ملذاتها . ولا ريب ان المؤرخ المنصف يرى في هذا الانسان رجلاً فوق
الرجال وشخصية من ادھش الشخصيات العالمية . وبعد مضي فترة من الزمن
تطور اعتقاد البوذيين بشخصية مؤسسهم ، ويسمى هذا التطور عهد البوذية
الجديدة . وقد اعتقد بعض اتباعه ان غوتاما مظهر من مظاهر الالوهة على
الارض ، وانه قبل ان يهبط عليها كان يحكم على الالہة من عليا . سمته ،
وفي جسده علامات خاصة تدل على الوهته او تثبت على الاقل انه فوق
البشر . وعقيب موته تراحم الناس على الاحتفاظ بشيء من ملبسه وذخائره .
اما في بادى الامر فقد اعتبره انصاره رجلاً متفوقاً حتى ان تلاميذه على
اعجابهم به ومحبتهم الفائقة له لم يخطر لهم ان يضعوه في مصاف الالہة
واكن المامة شأنها في كل آن لا يرضيها الا الخوارق ، وقيل بطبعها الى
المبالغات والخرافات ، رفعته الى سدرة الالوهة . وقد صرح هو نفسه في عدة
مناسبات انه يتم لله ذهب اكثر مما يهتم انفسه شخصياً . والدليل على ذلك
قوله : « من رأى مذهبي فقد رأى ، ومن تعامى عن طريقي فلا يراني ولو لمس
ثوبي » . غير ان هذا الكلام الصريح لا ينبغي كون التعلق بشخصه
يولي صاحبه كثيراً من البركات والنعمة . فان احد اتباعه أنندا (Ananda)
وهو احب المقربين اليه واشد تلامذته تعلقاً وایماناً به كان يببالغ في تعظيم
معلمه على مسمع ومرأى من سائر التلاميذ ، فلانه احدهم فصرح بوذا ان
هذا التلميذ الحبيب اذا مات قبل بلوغه درجة الكمال التي تؤهله لبلوغ

الترقانا اي الخلود النهائي في النبطة، فجرد ايمانهم به يوايه الحق بان يكون
في خلال سبع رجعات متوالية ملك الالهة ، وفي سبع اخرى ملك البشر ،
وايكن أنندا سيبلغ الترقانا فور موته . اما الترقانا فسنفرد بحثاً خاصاً

لدرس ماهيتها .

ولنبحث الآن اهم المعتقدات البوذية . فانها تؤمن برجمة الارواح وهجرتها
الدائمة اي بالتناسخ ، وبالجزاء . على الافعال التي يأتيها الانسان فانه يجني ثمرة
عمله ان خيراً فخيئراً وان شراً فشرراً . وعلى الارجح ان بوذا لم يبتدع هذا
الرأي بل حدده و اضاف بعض الشيء . الى النصوص البرهمية القديمة . اما
الفعل الذي يعنيه فهو الفعل الادبي . واعلم ان التقادم والغرابين ليست
شيئاً محرماً بحد ذاته وايكنها على كل حال لا تجدي شيئاً في سبيل الخلاص
على حين ان البراهمة رغم الخلد من مفعول الطقسيات في سبيل السعادة
الابدية ظلوا متمسكين بتقديم القرابين للالهة والاجداد ، ومتعلقين تعلقاً
شديداً بالصيغ الشكالية . ولا ريب ان التعليم البوذي رفع المستوى
الاخلاقي بانفاذه الفكرة الدينية من معظم الخرافات والصيغ التي لا طائل
تحتمها . وان تبشيره بالثواب والعقاب شعد كثيراً من العزائم للتمرس
بالفضيلة ، وحرّم القتل والزنى والسرقة والمكر والكذب وما يتصل بها من
المعاصي . ولم يكن البراهمة ليعتقدوا بخلود الالهة الثانويين الذين هم دون
برهما ، وزعموا ان في استطاعتهم ابطال قوى الالهة بقوة سحرهم . اما
البوذيين فيعتقدون ان البوذي العادي يفرق هؤلاء الالهة مرتبة وكالاً .
اما في شأن الزواج فرأي البراهمة اصوب من التعليم البوذي ، لان
البرهمية تقول بان في استطاعة الانسان ان يباغ الخلاص ولو كان متزوجاً ،

اما البوذية فهي مقارعة لفكرة الزواج وبالنتيجة فهي فكرة هدامة من هذه الجهة وتشابه رأي الفيلسوف الالماني المشائم شوبنهاور على اختلاف بينهما في السبب والغاية . وقد جعلت البرهمية مكانة عليا للتقشف الشديد والانفراد كأن يكون الحليس منعزلاً . اما بوذا فأثر على ذلك الرهبانية المشتركة في الصوامع . وفضل على مظاهر التصرف والاختطاف العمل العقلي اي سيادة العقل على الحواس ، وفضل التأمل النفساني على العقوبات التي يفرضها الناسك على نفسه . اما نظام معيشة رهبانه فهي طريقة وسطى بين الترف الذي ينعم به الملثيون والجوع الذي يقاسيه الجساء ، وهي طريقة سديدة على ما ترى . واكن هذا النهج الذي سته لاتباعه لم يتبعه هو عندما كان منعزلاً بل سلك طريقة التقشف البرهمية الشديدة الوطأة . ويظهر انه ادرك ان الاغراق في التقشف يفضي الى تهديم الجسد ، فاذا رافقه التمرس بالاختطاف الصوفي آل الامر الى الجزون . وهذا لا يعني انه الغى التصرف فان البوذية ساعدت على ازدهاره ، واكنها ركزت على العقل لا على الطريقة البرهمية القديمة المشابهة للتنويم المغناطيسي .

اما رهبانه فكانوا مقيدين بالطاعة للنظام واهم نقاط هذا النظام العفة والاشاء والفقر والزهد ، ولكن معلمهم لم يمنعهم قط من اكل اللحوم . اما غذاء الرهبان فكان مؤمناً بما يشحنون من المحسنين وما يدخر في الاديار من القوت . وكان التأمل العتيق نقطة الارتكاز في حياة الراهب العقلية . ورغم ان النذر الذي يقوم به الراهب هو نذر على مدى الحياة ، فكان باستطاعته الرجوع الى العالم اذ عجز عن حمل هذا الير الثقيل . وهنا تتسأل

عن الغاية من الحياة الدينية . والجواب على ذلك هو ان البوذيين وسواهم من الطوائف الاخرى كانوا يسمون من وراء هذه الحياة الى الراحة الابدية . اما الذين كانوا يمدون الرهبان بالاحسان ويطعمونهم فتواهم انهم لا يدخلون جهنم للتكفير عن خطاياهم بل يمدون في مكان آخر عذاباً يسيراً ويولدون ولادة ثانية محفوفين بنبطة وسعادة . ولكن ممارسة الاعمال الصالحة العادية وبذل الحسنات لا يعفيهم من سنة التقمص ، لان النبطة الابدية لا يبلغها الا المعتقدون ببوذا والذين يعملون تحت امرته اعمال الخلاص وهي العفة وممارسة الحياة الرهبانية والتأملات العقلية العميقة .

لقد بينا بعض الفروق بين الهرمية والبوذية ولكنها في الحقيقة فروق ظاهرية ، فان كليهما تحلم بحياة روحية متزهة عن المادة ، وترمي الى التخلتق بالادب والفضل ، وتعتمد التأملات الروحية ، وتجعل هذه التأملات شرطاً للوصول الى النرقانا او الى سما برهما حيث يتلاشى المعبوط في اللانهاية . فهذه النقطة تعود الى البحر الحضم . ولكن ما هو محور التأملات التي ترتكز عليه البوذية ؟ لا ريب انه تأمل اجوف لا موضوع له . وترى الفشتين متفقتين على وجود العقاب والثواب ، وعلى الاعتقاد بالتناسخ ، ومن قال بخلاف ذلك فهو في نظرهما كافر . اما اختلاف البوذية والهرمية على وجود الاله الاكبر وتحديدده وكييفيته فانه لا يفضي بحسب معتقدهم الى نتيجة فعلية مهمة طالما ان الانسان يجني ثمرة عمله على كل حال وبذات الفعل . وانك ترى كثيراً من امثال هذه الفروق والخلافات تشب بين ابناء الملة الواحدة . فقد قام بين المعتزلة والجهرية امثال هذه الفروق مع انها تؤمن ايماناً واحداً بالعقائد الانسانية الكبرى ، مشاحنات عديدة .

ماهي النرقانا

يتبادر الى الأذهان ان النرقانا في نظر الهندوس هي مقر النعيم الابدي
يعتبط فيه الابرار ثواباً على ما قدموه في الحياة الدنيا من الصالحات .
ويظن فريق آخر انها مكان يتلاشى فيه الالم بعد الموت . ويؤهم غيرهم
انها عدم محض . وبمثل هذه الهولة تراهم يشرحون مسألة النرقانا والحال ان
الجواب عليها لأصعب مما يتصورون . وقد ضل في تفهم النرقانا المؤلفون
الاوروبيون والهندوس البوذيين على السواء .

اما الاوروبيون فقد تصدى كثير منهم لدرسها ، وتبارى في ذلك
البحاثون الالمان والانكليز والفرنسيون وبذلوا الجهد في ايضاح بعض النقاط
الغامضة ، ولكن اكثرهم اخفقوا في البحث . وسبب هذا الفشل هو انهم
بحثوا المشكلة على ضوء الفلسفة الغربية ، وقاسوا بالمقاييس الغربية ، فكانت
نقطة الارتكاز خاطئة لذلك جاءت النتائج متناقضة . فاستنتج بعضهم
انها الخلود والنعيم الدائم ، وزعمت الكاتبة ريس دافيس (Rys Davis)
ان الخلود المماني هنا هو الرحيق العنبري يفنذي به الاطهار ، وان النرقانا
هي الخلاص ومنتهى الحكمة البالغة التي يدركها الانسان بعد انمناقه من
الميول والشهوات وارتشافه كثر الحقيقة الذي يظفي . ظاهراً . وزعم كون
(Kern) ان البوذيين عندما يقولون ان بوذا المنتصر غاب الموت واكتشف

باب الخلود يعمون بذلك انه انتصر على التخوف من الموت ورهيبته واكتشف
 طريق الخلود الذي يقوم بحسب رأي رينان (Renan) بالتغذي من الحقائق
 السرمدية التي تخضع الموت لشواكها فلا يعود شبحاً مروعاً بل يصبح حلاً
 حياً . وزعم غيرهم ان بوذا قصد بهذه اللفظة القداسة الخاصة . وقال
 سواه انه احتفظ بتفسير هذه الكلمة ، وحرّم على المؤمنين الخوض في
 تحليلها ، ولكن اكثر المؤلفين الاوروبيين الذين تصدوا لهذه الانجاش
 اجمعوا على ان الطبقة العامة في البوذيين تحسب النزفانا نعيماً مقيماً . ونظراً
 لهذا التناقض الكبير فاننا سنسبط بعض اجوبة المؤسس العظيم نفسه بما
 يتعلق بالنزفانا وما يتصل بها .

سئل بوذا عن شريعته فأجاب : هي الابتعاد عن الشر وتطهير الفكر .
 وسئل عما اذا كان يرى رأي سواه في اعمالنا الشريرة في حياة سالفة تجرّ علينا ما
 نلاقه من العذاب والالم في حياتنا الحاضرة فأجاب : اعمالوا الصالحات وتجنبوا
 السيئات . وسئل عما اذا كان الانسان يتلاشى بالموت فأجاب : انني ابشر
 بتلاشي الميول . ولقد بدأنا منذ الآن نلمس كثرة تجعظ بوذا في الاجوبة كما انه رفضت
 الاجابة عما يعتقد بأولية الكون ، وعما اذا كان المنصر الحيوي في الجسم وهو
 النفس ، يختلف او لا يختلف عن الجسم ، وعما اذا كان القديس يحيا بعد
 الموت او يتلاشى تماماً . وقد جاءه ذات يوم احد تلاميذه واطهر شدة استغرابه لسكوت
 المعلم عن هذه الاجوبة ، فقال له بوذا : هل قلت لك اتبعني وكن لي
 تلميذاً فأعلمك ما اذا كان المالم خالداً ام غير خالد او هل يحيا القديس او

يتلاشى بعد الموت . فاجابه التلميذ كلا . عندئذ ضرب له بوذا المثل
 الآتي فقال : *(Parable of the Burning City)* .
 رجل اصيب بسهم مسموم فاستدعى اهله طبيياً لمعالجته . فما رأيك في
 هذا الجريح لو قال لطبيبه لا ادعك تمسني قبل ان اعرف من رماني وما
 اسمه واشكاله وهل هو شريف او برهمي . انما كان يموت هذا الرجل من
 جراحته في هذه الفترة ؟ وانا لم اعلم تلاميذي شيئاً عن خلود العالم او بقاء
 القديس بعد الموت لان معرفة هذه الامور لا تفهم في طريق البراءة
 والوصول الى النرفانا اما انت فتعلم الحقائق الاربع المهمة وهي وجود الألم
 ومصدره والطريق المفضي الى انعدامه .
 وسئل عن النرفانا اهي عدم ام مادة ابدية فلم يدل بجواب وهذا هو
 سبب التخبط في المشكلة . وقد سأله احد تلاميذه قائلاً : لقد حان لي ان
 ادخل في النرفانا فاجابه بوذا : شأنك وما تريد ، فكما ان الزيت والسن
 يحترقان بدون ان يتركا رماداً فكذلك انت ستصعد في الاجواء ثم تدخل
 النرفانا وكما انك لا ترى اين تذهب النار التي تتلاشى رويداً فكذلك
 يتمذر القول الى اين يذهب الطوباري الذي بلغ السعادة الابدية . وقد
 شرح احد علماء الهند هذا الكلام فقال : ان النار عندما تطفئ . لا تتلاشى
 بل تصبح شيئاً آخر يتعذر على البصر ادراكه وكذلك القديس عندما يبلغ
 النرفانا لا يبقى اذناناً او احساساً او فكرة . وانما الخلاص والغبطة
 الابدية هو ان يتجاوز الانسان كل ما يستطيع الخيال تصوره من الصيغ
 والاشكال . وقد سأل احد تلاميذ بوذا رقيقاً له كيف تكون النرفانا
 مقام غبطة مع انها مقام انقطاع الحس فاجابه الآخر : ان انقطاع الحس

يجمعها غبطة لان الحس هو مصدر الشهوة والشهوة هي مصدر الألم فحيث لا
حسن ولا شهوة تكون الغبطة .

الزرقانا على الارض

تعتقد البوذية ان الزرقانا أي الغبطة تبدأ على الارض فتكون مقدمة
للغبطة فيما بعد الموت ، لأن بوذا وعد بها رفاقه الخالص فقال لهم : انني
ادركت الخلود فاذا اتبعتم تعاليمي فانكم منذ الآن تدركون الخلود
الذي هو غاية الطهارة والحياة الدينية التي من اجلها يهجر الانسان اهله
وذويه . وانكم تحسون هذه الغبطة في داخلكم وذلك ما كان يعنيه
البراهمة بقولهم ان النفس تتحد مع الاله برهما فيكون في داخلها وذلك بعد
الاختطاف الصوفي ، والتخفف من أدران الرذائل وتنقية الضمير . ويؤمن
البوذيون ان الفنة التي لا تستشعر هذه الغبطة الداخلية هي فئة كثفت
عقولها وغاظت بسبب الميول لانها لا تشاهد الا ما يقع تحت الحواس كالألوان
وما يتصل بها . اما الزرقانا فهي من نوع آخر ولا يستطيع ادراكها الا
الحاشع المتصوف فاذا خرج من تصوفه واختطافه صاح ايها الزرقانا ! ايها
الطمأنينة والتلاشي والسكون الحبيب !

واذا كان العميان لا يبصرون الازرق والاصفر فلا يحق لهم ان يقولوا
للبصرين ان الألوان معدومة .

واذا انت تأملت الصوفية الحديثة لا تجد فرقاً كبيراً بينها وبين هذه
الصوفية الهندية لأنها ترمي الى التمرس بالفضيلة والاختطاف والاتحاد بالله ،
والهندية تركز على المبادئ نفسها توصلها الى الزرقانا . ولكن بوذا

صرح انه هو وحده يستطيع الاتحاد بالترقانا كاملة ، لما له من الافضلية
والمنزلة العليا . اما من سواء من القديسين فانهم يشهدون على هذه الارض
الطريق الموصلة الى الترقانا . وقد ذكرني هذا الزعم بيت لشوقي من قصيدته
في دمشق حيث يقول :

حسبت لبنان دارات الخلود وما نبتت ان طريق الخلد لبنان
ظهر مما تقدم ان بوذا كان يتهرب من بعض الاجوبة الصعبة
كسرمدية العالم وتحديد النفس وما شاكل ذلك لأن من اجاب على واحد
منها كان كمن يفرز قدمه في الوحل كلما حاول النهوض زاد غرقاً ، وان
الرجل كان يعنى بالاشياء العماية الاخلاقية مبتعداً قدر الامكان عن
بحث ما وراء الطبيعة . ويرى اللاهوتيون انه كان يخاطب الناس على
قدر افهامهم فيوضح حيث يجب الايضاح ويترك المجال للتفسير والتأويل في
مواطن اخرى فهو لا يريد نفي وجود جهنم مثلاً لئلا تتفقت العامة من
قيودها ، ويريد ان يتجرد الحكماء من الانانية ، وعنده لكل مقام مقال .
وبجمل القول وخلاصته ان بوذا رأى الحياة كلها ألماً وان ما نحسبه لذة
وسروراً هو انقطاع الألم مؤقتاً لان العذاب القاعدة اما اللذة فشذوذ
وعذاب ملطف ، كما لو كان الانسان ظامناً متحرقاً في البيداء فانعشته
بشربة ولو كان الماء فاتراً ، وكما يجد المتعب بجمل يهبط كتفه الايمن لذة
بنقله الى كتفه الايسر . وقد علم بوجود التجرد من الاثرة وبان نفع الخبز
من اجل الخبز لا طعماً بالترقانا لان الطمع فيها يبعث على حب الذات .
وانت ترى في هذا المقال الموجز مبلغ اهمية الرجل في تطور البشرية وتأثيره
في عالم الفكر .

الدين في الصين

من المؤلف في درس الأديان ان ترى الشعب يبدأ بدين منجسط ثم يتطور المعتقد ويرقى رويداً رويداً . غير ان الظاهرة جاءت معكوسة في الصين فقد بدأت العقائد في الذروة ثم تدهورت الى اسفل الوادي . وانا لا نعرف الشيء الكثير عن ديانة الصينيين في ما وراء القرن الخامس عشر قبل المسيح الا ما كان من قبيل الحدس والتخمين . ولكننا نعلم ان حوالي القرن الرابع عشر اي منذ ثلاثة آلاف واربع مائة سنة كان الصينيون القدماء يعتقدون بوجود سيد مطائق لهذا الكون ، يعبدونه ويلجؤون اليه فهو الذي يصدق الحصب والخير ويريههم بالقحط والوباء جزءا لما يفعلون من الخير او يرتكبون من الشر . وهذا ينفي زعم القائلين بان الصينيين عبدوا بطلاً قديماً دمه العالي المطلقو . يزعم بعض الباحثين ان حق التعبد لله والاتصال به كان وفقاً على الامبراطور وحده ، اما من دونه من الموظفين فيحق له تكريم ارواح اجداده او ارواح الابطال القدماء الذين يختارهم ووضعاً للتعبد . اما الشعب فقد حرمت عليه الصلاة والعبادة ما دام الامبراطور يصلي بالنيابة عن رعيته وقد سمح لافراد الشعب بتكريم اجدادهم ووجبت عليه الطاعة لوالديهم .

ولم تكن التعاليم الاخلاقية رفيعة المستوى برغم اعتقادهم بالشواب والعقاب وانهم لم يقيموا حداً فاصلاً للتمييز بين الخير والشر . وانما فرضت الحكومة على افراد الرعية عمل الحسنى ارضاء للحكومة وللاهل لا ابتغاء

وجه الله . واخذت عادة تكريم الاجداد تنمو مع الزمن حتى بلغت حد الحرافة والوثنية . ولعل اغرب ما في القرايين التي كانوا يقدمونها ضحية لاله السماء تضحية السلحفاة فانهم كانوا يعتقدون ان الطبقة العظمية العليا منها تمثل السماء بانحنائها وتحديدها ، اما الطبقة العظمية السفلى التي تلي بطن السلحفاة فتمثل الارض ، وجسم السلحفاة نفسه رمز للبشرية القائمة بين الارض والسماء ، فعندما توضع السلحفاة على النار وتأخذ الطبقة العليا بالاحتراق والفرقة يلتف حولها المتكهنون ويفسرون الفرقة وأطوار اجزاء القشرة برموز والغاز يجلونها ويدركون ما هي ارادة السماء . وكانوا يذبحون الثيران ويقدمونها محروقات على رؤوس الجبال معتبرين ان الدخان الذي يتصاعد من المحرقة يحمل الى ساكن السماء اخبار الارض وآمال العابدين . وقد كان لتكريم الاجداد شأن خطير في العائلات اذ كان الاحفاد يضعون على مائدة خاصة اشهى انواع المأكول والمشروب ويقومون الزفة والغناء ويدعون الميت للاكل فيتخذون له من الاطعمة الاصناف التي كانت تروقه في هذه الحياة الدنيا . وهم على يقين من ان الروح لا تأكل ، ولكن الاصل في الاعمال النيات فهم يسترضون الاجداد ويتلفون اليهم بهذه الطريقة ملتسعين الرضى والبركة . ورغبة في تقريب هذا التمثيل الرمزي من الحقيقة كانوا يلبسون احد احفاد الميت ثياب المجد التي تحفظ بمنية خاصة في خزانة العائلة ، وكان هذا الحفيد الوسيط يقبل على المائدة الرمزية ناعماً بأهنا المأكول والمشروب .

هذه صفحة موجزة عن الاعتقاد الصيني القديم وهو كما ترى قد بدأ بالترحيد رغم ما رافق هذا الترحيد من ضلالة ، وقد كان ذلك بين القرن

الخامس عشر والثالث عشر اي قبل بلوغ الاباطرة التشيو (Tchéau) سدة الحكم . ولتر الآن ماذا طرأ على المعتقدات في عهد هؤلاء الملوك الذين حكموا الصين زهاء ثمان مئة سنة .

ظلت العقائد في الثلاثة القرون الاولى من عهد التشيو (Tchéau) على ما كانت عليه قديماً ولكن هؤلاء الملوك حاولوا بعد ذلك معرفة ارادة السماء بالتنجيم ومراقبة الظواهرات الجبرية ثم تسرب الى المعتقدات كثير من السحر والحرافات ، وداخلتها البرهمية عن طريق الهند فاصبحت العقائد فوضى . والذي زاد في البلبلة انهم قسموا الفضاء الى خمس مناطق زاعمين ان الانسان يعمل باربعة اعضاء . هي اليدين والرجلان ، والله يعمل في مناطق خمس فدعوه السامي لانه يقطن السماء ودعي «السماء» لانه فوق كل شيء ، و«السيد» لانه يعمل على الجميع وهم جراً .

وقد يعترض معترض فيقول ان تعدد الاسماء لا يعني خروجاً على التوحيد لاننا في هذا العصر نطلق عليه تعالى الاسماء الحسنى فندهوه المهيمن والرحمن والمحبي والقادر الى آخر الباب وهي صفات متعددة تشير الى واحد فقط .

اجل ولكن نقطة الذهاب عند الصينيين القدماء . تختلف كثيراً عما نقصده نحن بتعدد الصفات ، وذلك لان لامبراطور الصين وحده حق الاتصال بالسيد السامي فلهذا السبب مدد الزعماء المناطق ليحق لهم الاتصال بما هو دون السيد السامي فقسموا الفضاء وعددوا الاسماء ونجم عن ذلك فيما بعد تعدد الآلهة . ثم تصوروا ان الالهة تتخذ اشكالاً انسانية واخذ الانحطاط يتزايد فزعموا ان نفوس الاجداد والابطال تستطيع الاكل والشرب فعلاً ، فاذا لم يقدم لها الطعام جاءت وغضبت وانتقمت من المتكاسلين . وفضلاً

من ذلك فهي تستطيع ان تتقمص في اجسام حيوانية . لذلك ظلوا على اتصال دائم هؤلاء الاقارب المتوفين حتى انه عند وقوع كارثة عائلية كان احد الخدم المخلصين يتطوع للانتحار ليستطيع الانتقال الى الحياة الاخرى ، ويحمل الى الاجداد انباء الفجيعة او الحوادث الجسام التي مرت بذوي قرباهم على الارض ، فتأمل مهمة هذا الرجل الكريم .

وكانوا يعتقدون بوجود نفسين في الانسان ، الاولى تتكون في الجنين عند الحمل والثانية تأتية بعد الولادة اذ ينشق الهواء فتتكاثف وتصبح نفساً . اما الاولى فهي النفس الدنيا ترافق جثة الميت الى القبر وتنحل بعد مضي رده من الزمن . ولكن الثانية وهي العليا تعيش مستقلة بعد انفصالها عن الجسد ، ودرجة غيبتها في العالم الآخر تكون متناسبة مع الدرجة العلمية والفضائل التي احرزتها على الارض . فاذا احسن اقرباء الميت معاملتها بالتكريم والقرابين اطمانت وكانت لهم معدن خير وبركات ، فان لم يفعلوا فالويل لهم منها . وعلى رغم التطور الذي طرأ على المعتقدات الدينية في الصين فيما بعد فانهم ما زالوا يعتقدون بوجود روحين للانسان حتى في ايامنا هذه .

ولكن الرجلين العظيمين اللذين تركا في الصين بل في تاريخ الفكر البشري اثرأ لا يمحى هما : لاورتسو وكنفوشيسوس . وقد ذكرناهما مآ لانها وجدا في عصر واحد هو القرن الخامس قبل المسيح ولكنها ايضا بتقاربين في السن ، لان لاورتسو كان قد نيف على السبعين عندما كان كنفوشيسوس في مطلع الشباب . وقد اجتمعا وتباحثا ثم افترقا وهما على خلاف مبادئ ، لان نقطة ارتكاز كل منهما تختلف عن نقطة صاحبه ، ذلك ان

لاوتسو كان ينبغي نفس البناء القديم المتداعي ليبنى مكانه صرحاً جديداً .
 اما كنفوشيوس فلم يبلغ هذه الدرجة من التطرف اذ كان يريد ابقاء القديم
 مع ادخال الاصلاح الجديد حسباً تقتضيه الحال . فكان كنفوشيوس
 اقرب الى العمليات من زميله الذي اوغل في النظريات . فلاوتسو فيلسوف
 و كنفوشيوس معلم قلما يتغافل في بحث ما وراء الطبيعة .
 زعم لاوتسو ان الكون مركب من عنصرين اولهما المبدأ الاولي او
 الوحدة التي تتطور صعوداً وانحداراً ، وثانيهما النسمة الاولى . فالاول لا
 اول له ولا بدء . لانه موجود بقوة ذاته منذ الازل وكان قبل اليد
 السامي ، وهذا المبدأ الاولي امر النسمة فتكون الكون ، وان هذه الحياة
 الدنيا ليست شيئاً ، ولكن الحياة الاخرى هي كل شيء . فيجب ان نتظر
 فلا نعمل شيئاً لان كل ما نفعه في هذه الحياة نافل لا معنى له ولا نتيجة .
 فالعقل هو من يماشي الطبيعة لا يعارض احكامها في شيء ابدأ . ويجب
 على الحكام ان يدعوا رعيتهم بمزل عن كل تفكير ، وكلمته في هذا الصدد
 معروفة اذ قال : « يا ايها الحكام ، املأوا بطن الشعب وافرغوا رأسه ،
 اضعفوا العقول وصلبوا العضلات لان العلم مهلكة للدول » .

وقد علم بكبره الحرب وعدم التمسر بالسلاح . ولا ريب ان هذا التلميح
 اضر بالعين ضرراً بالغاً فوقفت مكتوفة الايدي لا تفكر بالتسلح والخدمة
 العسكرية واصبحت مطعماً لكل طامع ، فان الصياد يطعم بالغزال
 ويتعاشى النمر لان الاول من ذوي الظلف والثاني حديد الانياب
 والاظافر . اما تعليسه بشأن النفس فهو غاية في الغرابة .

لقد ذكرنا ان الصينيين يعتقدون بوجود نفسين احدهما تتكون منذ

مذهب كنفوشيووس وما تلاه في الصين

قدمنا في مقال سابق ان كنفوشيووس كان عملياً في تعاليمه . اجل ان هذا المصلح العظيم لم يتعرض لبحث ما وراء الطبيعة ولم ينصرف الى التجريد ومحاولة تحليل الكون والبدن ، فهو بالاحرى رجل سياسي حوّل همه الاكبر الى درس الاخلاقيات وتحديد الواجبات والحدود بين الحاكمين والمحكومين . وهو لم يحرص على تعليم مبادئه كتابة بل كان اتباعه يلتفون من حوله في غالب الاحيان وهو جالس في عجلة تجرها البقر وتسير على مهل بينما يطرح تلاميذه الاسئلة . وطريقته تقوم بالقاء السؤال عاماً شاملاً ثم يأخذ في توضيح الحلقة حتى يستعرض نواحي المسئلة جميعاً ، ويبلغ الى النتيجة العملية عن طريق الحديث الجدلي . وكان يرمي من وراء ذلك الى محاربة المظالم وسوء الادارة السائدة في ذلك الزمان معارضاً النزعات الجديدة ، مؤمناً بوجود الكائن السامي الذي يدير هذا الكون ويهني به ، معتقداً بنجود النفس ، ولكنه لم يبد رأيه في مسألة العقاب بعد الموت . هل انه علم ان للانفس الفاضلة مكانة عليا في العالم الآخر ليحمل الناس على التخلق بالفضيلة .

ويختصر تعليمه الاخلاقي بكلمتين : الاستقامة والسلامة . وهو يكره الحرب كما يحتقرها لاوتسو ، وقد طالب الحكام بتوفير اسباب الراحة للشعب . وخلافاً لمبدأ لاوتسو فهو يرى وجوب تعليم العامة لتمكينها من ادراك واجبتها ، غير ان هذا التعليم يجب ان يقتصر على معرفة الاشياء

الضرورية النافعة . وقد ألح كثيراً في تعاليمه على توطيد الروابط بين افراد العائلة ومعرفة الواجبات والحدود وضرورة تبادل العاطفة بين الاقرباء ، معتبراً بحق ان العائلة اساس الدولة . ارايست الدولة مؤلفة من عدة عائلات ؟ لكنه ضلّ في رأيه بتنظيم المجتمع موهماً ان ما يصح تطبيقه من الانظمة على مدينة صغيرة يصح في الشعوب والمدن الكبرى ، وقد وقع افلاطون نفسه في الضلالة نفسها ، في كتابه « الجمهورية » . ولم يخطئ كنفوشيوس لنفسه نهجاً مطرداً في تعاليمه ولكنه علم بوجود اتباع الطريق الوسطى والبعد عن التطرف في كل شيء ، ومسايرة الظروف والمناسبات حسب مقتضيه الحال ، فلا كره ولا بنض ، لا اندفاع حماسي ولا برودة في الوطنية . قال كنفوشيوس : اذا دامك الخطر فجد من طريقه ومتى زال فتنفس . وكذلك هي خطة الصين السياسية منذ خمسة وعشرين قرناً . وتذكرنا هذه المرونة في السياسة بعاوية بن ابي سفيان اذا قال : لو كان بيني وبين الناس شعرة لما تركتها تقطع فاذا شدوا ارحيت ، واذا ارحوا شددت . ولكن الصينيين يرخون الشعرة فلا تتعرض للانقطاع . وعلى اثر هذه التعاليم قامت المشاحنات بين اتباع لاوتسو وكنفوشيوس ، فالاول انكر وجود الله نظرياً والثاني عمله عملياً . وفيما بين القرن الرابع والسادس للمسيح تبوأ سدة الحكم سلالة الـ (Tsin) ، وجرت حروب هائلة في الصين في هذه العهدة من الزمان فاكتسح الغزاة الاجانب الصين الشمالية كلها . ولاسباب سياسية ادخل هؤلاء الفاتحون البوذية التي تسربت بعد قليل الى الصين كلها فكنت ترى هياكل بوذا وكهنته منتشرة في كل مكان ثم اخذت تتسرب اليها

مذهب كنفوشيوس وماتلاه في الصين ٢٢١

مذاهب اخرى كالنسطورية الكلدانية والمزدكية الفارسية والمانوية التي جاءت من التركستان .

وفي عهد الابطارة الـ (Song) تسربت من اليابان الى الصين عقيدة الشنتويزم (Shintoisme) ومعناها بالعربية طريق الالهة . وهي التي ترمي الى تأليه الامبراطور الحاكم باعتباره متحدرأ من ابطال قداما . بلغوا درجة الالهة . وقد سرّت هذه الفكرة امبراطور الصين واوحى اليه ان يكون هو ايضاً سليل الالهة . ولم يكون زميله الميكادو اعلى مرتبة منه ؟ وما عم الامبراطور (Tchong-Tsou) ان بدأ يحلم الاحلام ويرى الرؤى الالهية التي يوحىها اليه جده العظيم . ولم تمر عليه بضع سنين حتى تدرج الى الادعاء . بأنه ابن الله . والتفت حوله حاشية معظها من اتباع لاوتسو الذين اضطهدهم سلفاؤه من الابطارة ، وبعج بلاط هذا الملك بالاسياد والسيدات النبلاء . الزاعمين انهم متحدرون من الابطال العظام الذين كانت تقدم القرابين لارواحهم .

وتضال شأن البوذيين كثيراً في هذه المرحلة من التاريخ ، ولكن الحرب التي قامت وسقوط الصين الشمالية في يد اعدائهم ، بددت هذه الاحلام الذهبية فعاد الـ (Song) الذين دحروا واجلّتهم الهزيمة الى سكن الصين الجنوبية لبحث مذهب كنفوشيوس . واهتم العلماء بالرجوع الى تعاليمه ودرسه ولكنهم انقسموا الى فئتين الاولى تقليدية تريد المحافظة على تعاليم كنفوشيوس لا تريد عليها ولا تنقص فيها ، والثانية فئة تأثرت بالفلسفة الهندية وحاولت ادخال شروح جديدة وتبديل بعض النقاط الاساسية لتجمل من المذهب القديم مذهباً جديداً تقدماً وقد ترأس هؤلاء المجددين

العالم (Tchoui) المتوفى سنة ١٢٠٠ واكن تعاليمه لم تجي . داعية الاصلاح بل اتت تبث الفوضى في العقول وتقلب المعتقدات رأساً على عقب، فاجتاحت الصين موجة هائلة من الاحلاد لم تزل آثارها في الصين وفي العالم بأسره حتى اليوم .

والذي زاد في الطين بلة ان الطبقة المثقفة في الصين قد اخذت بهذا التعليم ودافعت عنه . وموجز هذا المذهب هو : انكار وجود الاله والعناية الالهية، وان الكون كله مؤلف من عنصرين الاول وهو « Le Norme » اي النظام الشامل والمبدأ الحيوي الازلي اللامتناهي وهو قوة عليا محتومة غير واعية والثاني هو المادة . وتأثير الاول في الثاني هو الذي يخلق الكائنات . اما الفرق الذي نجده في الاشياء فهو ناجم عن اختلاف المادة ودرجة قابليتها ، والفرق في جوهرها ولكن المبدأ الحيوي « Norme » لا يتغير . مثال ذلك ان النار لا تتبدل لكن النبدل يقع على المادة التي تعمل فيها النار ، فلو وضعت السمن والبيضة في اناء واحد وسلطت عليهما الحرارة لساخ السمن وتجمدت البيضة . وهكذا تختلف نتيجة العالم الواحد بحسب قابلية المادة . وزعم ان المخلوقات جميعاً تصدر عن الكل الاكبر وتعود اليه بالنتيجة كما ان نقاط الماء التي تعتاق بدلو الناعورة تخرج من البئر وتعود اليه . فكذلك تعود المخلوقات بعد طوافها في هذه الدنيا الى مصدرها ثم تعود ثانية وهلم جراً . وقد سلم بوجود روحين في كل انسان وفقاً للمعتقد الصيني السابق ولكنه زعم ان كلا الروحين يتلاشى بالموت كالدخان . وشأن النفس شأن الشجرة التي تنضج ثم تنحل ، فنفس الشيخ الذي شبع من الايام تنحل حالاً بعد الموت اما روح الفتى الذي مات بجاذب فجائي .

مذهب كنفوشيوس وما تلاه في الصين ٢٢٣

مثلاً فانها لا تنحل في وقت قصير بل تعود فتراعى للاحياء شيئاً . ولكنها معاودة الى حين ثم تضمحل . ومثل الانسان مثل موجة البحر فالموجة لها كيان خاص في ذاتها ، ولكن الامواج كلها من نفس المياه اتخذت اشكالاً وكيفيات . فان فلاناً الذي يعيش اليوم ليس سوى كيفية من كيفيات المادة الشاملة الخاضعة لتأثير القوة العمياء . وكذلك كان ابره في عهد وكلاهما من مادة واحدة لذلك استطيع انا ان اقول اني متحد بأني لاتحاد كلينا بالمادة الشاملة ، وبما ان الارض والسما . مؤلفتان من هذه المادة فهي اذاً كلها في وانا فيها . ويمكنني ان ادهر السماء ابي والارض امي وجميع البشر اخوتي لانني انا والكون نؤلف وحدة كاملة .

وزعم ان الوحدة الـ « Norme » عمياء ، والمادة لا تعقل اما في الانسان فان هذه القوة تحرك القلب الانساني فيشع منه الذكاء والمعرفة كما تنفدح النار من الزناد ، هذا الاشعاع يولد اهتزاز المركب ويشير العواطف ، تماسكت العاطفة والعمل الذي يعقبها ضمن الحدود المقبولة فهو الخير ، اما اذا تجاوزت الحدود واختلت فلا يكون شر لان الشر غير موجود بل يكون عدم الخير . والوحدة الـ « Norme » تظهر في المخارقات بظواهر شتى كالعدالة والفضيلة ، فان لم يكن ذلك فلاذن كثافة المادة حالت دون فعل النظام الشامل . ويتضح من كل ذلك ان هذا المذهب هو مذهب الحلوية الطبيعية (Panthéisme Naturel) ، واكثر من تأثر بهذا المذهب في العصور الحديثة هو الفيلسوف الالماني هيكل (Hegel) ولكن الشعب الصيني على الرغم من هذه الموجة الكفرية كان متأثراً بالنظريات البوذية فظال يرفع قلبه الى اله السماء رغم تحطبه في دياجير الخرافات .

الاديان في اليابان

ان الامر الذي يلفت النظر في تاريخ الاديان القديمة جميعاً هو تأخرها عن مسيرة التطور المدني في الجماعات ، حتى ترى الاغريق الذين بلغوا شأواً بعيداً في العلم والحضارة ، فخذقوا درس السيارات الفلكية واخذوا بقسط وافر من علم الهندسة وتفوقوا في الشعر والفلسفة ، يلجأون الى عبادة الاصنام ويستنطقون الحجارة والنجوم ، فيأخذك العجب من هذا التناقض بين علم عميق وتقاليد عميقة بالية ، ولا تكاد تصدق ان هذه العقول التي تنطلق في التجريد حتى يبلغ بها سقراط وافلاطون عالم ما وراء الطبيعة تظل مشدودة باغلال الحرافات والاهام . ولكن هذا العجب يتضال اذا انت تأملت اليابان في ماضيها وحاضرها ورأيت ان هذا الشعب بلغ في عالم الصناعة والمدنية الحديثة مكانة مرموقة ، واقبل على الغرب يأخذ عنه ويسابقه في ميادين الانتاج ، وشهر الحرب على ارقى دول العالم المتمدن وروعها بما لديه من سلاح حديث ومعرفة بالاليب القتال ، ولكنه لم يزل من الوجهة الدينية غريباً في الظلمات لا يغير ولا يبدل من معتقده القديم . فهو يفتح على الغرب من جهات عديدة ولكنه يبقى مقفلاً من جهة العبادات والتقاليد .

وإذا نحن تصفحنا تاريخ اليابان الديني السابق للميلاد ، باحثين عن المراجع التي يتركز فيها معتقدهم القديم ، وقمنا على مزيج من الاساطير والحكايات

التي لا يصح الركون اليها ، وفي جملتها كيفية تحدر الامبراطور من الالهة الشمس . وبمجموعة هذه الاساطير التي تداخلها بعض نقاط تاريخية وتقاليد مرعية الاجراء . تؤلف مذهب الشنتويسم (Shintoisme) ومعناه طريق الالهة . ولكن اليابان لم تقتصر فقط على هذا المذهب بل تسرب اليها من الصين بعض تعاليم كنفرشيوس . على ان الموجة الصينية ليست شيئاً مذكوراً بالنسبة الى الحضم البوذي الذي تدفق على هذه الجزر آتياً اليها من الهند في القرن السادس بعد المسيح . وقد يتساءل الانسان عن عدد انصار البوذية في اليابان ليعرف ما هو عدد اتباع المذهب الوطني القديم الشنتويسم . والجواب على ذلك مستحيل لانه ليس من حاجر كثيف بين الفريقين ، اذ ان الذين يشهدون الحفلات في هياكل بوذا يذهبون هم انفسهم ليحضروا حفلات الشنتو القديم . وهكذا ترى ان الفريقين يترجان ، على ان لكل منهما كياناً خاصاً كما يختلط البحر الاحمر بالمتوسط بواسطة تركة السويس ، مع ان لكل من البحرين اسماً خاصاً به . وهم يشبهون بعض الناجحين قبيل الانتخاب يتناولون الغداء على مائدة المرشح الفلائي ، ويسندون على مائدة خصمه ، فاليابانيون رحاب الصدور من هذه الجهة .

وعلى ان نحدد الآن ماهية الشنتو او طريق الالهة فنقول : ان هذا المذهب قد تطور على الزمن فر في ثلاثة ادوار ، يمتد اولها حتى منتصف القرن السادس لليلا . وكان اليابانيون في هذه الفترة يعتبرون الذين مظهرأ من مظاهر السلطة المالكية ، اذ يقومون بواجب العبادة لأجداد الامبراطور ، ويحضرون سلطته لغرضاً مطلقاً ، ويمارسون بعض العلقوس كانشطهير بالمال ،

يرمون بذلك الى تطهير الجسد اكثر مما يرمون الى تطهير الروح من ادراستها . ولا يقصرون في الصلاة والتوسل الى آلهة متعددة يعينون لكل منها صلاحية خاصة كاله النار والهواء ، واله الحصب الذي يجود عليهم بالفاكهة والمآكل ، بدون ان يرفعوا كثيراً من مستوى هذه الآلهة ، فهي في نظرهم كالشجر منها الصالح ومنها الطالح . ولم يفكروا في الجنة والنار لا كثيراً ولا قليلاً ، غير انهم كانوا منذ القديم يقيمون معبداً واسع الاطراف مبنياً بالحشب يحفظون فيه كنوز الميكادو القدسية . وارل هذه الكنوز المرأة ، وثانيها السيف ، وثالثها الجرهرة العالية خاصة البيت الملكي . ويشترط ان تكون الكاهنة القائمة على حفظ هذه الذخائر العظيمة سليمة البيت الامبراطوري . اما الدور الثاني فقد بدأ بُعِيدَ دخول البوذية الى اليابان . ولقد حملت هذه الديانة كثيراً من الآراء الجديدة في الثواب والعقاب ، والتطهر والسو النفساني لدرجة الصوفية ، والاتحاد بالقوى العليا ، فضلاً عن المظاهر الفنية في رسوم بوذا والتماثيل المنحوتة التي تمثله . فاستيقظ مذهب الشتو من ركوده حيال هذه الثورة الجديدة . ولكن أُنِيْ اِبْسَاطَة طقوسه وفقر معتقداته ان تغلب على هذه القوى الدخيلة التي انضم المذهب الوطني اليها وتغيّراً ظاهراً شأن الضيف الذي يثمي تحت علم القوي فيخلط ضعفه بقوته . وهذا هو سبب التماهل بين الفريقين ، خصوصاً وان كهنة البوذيين لم يضيعوا على المذهب القديم . وقد حلوا المشكلة بان اعتبروا آلهة اليابانيين بما فيهم الوهية البيت المالك من جملة مظاهر بوذا الذي هبط الارض وتجسد مرات عديدة . وقد رحب الميكادو بهذه الفكرة وبذل جهده لتربيت المعبود الجديدة ، ورفع مستوى الطقوس ، وتبديل مظهرها

القديم الشاحب بمظهر الالهة والجلال . واستمرت هذه البرهة منذ القرن
 السادس حتى السابع عشر ، واخذ المذهب القديم يضمحل رويداً رويداً ،
 غير ان الحركة الدينية ليست شكلاً جديداً في القرن السابع عشر ،
 ولم ترل سائدة الى ايامنا هذه اذ ارتدت طابعاً وطنياً فيه كره للدخيل
 وتبذلت هذه المذاهب الغريبة التي احتلت اليابان . وبدأت المقاومة لتعاليم
 كنفرشيوس والمذهب البوذي على الهواء ، وتلفتت الطبقة المتعلمة الى
 القديم وعنت اليه باحثه عن الشنتويسم (Shintoïsme) الخالص قبل ان
 تشوهه الشرائب ، فافضت هذه الثورة الى اعتناق مذهب جديد يختصر بهذه
 العبارة : مسايرة الطبيعة والطاعة العمياء للميكادو . وقد جردت الهياكل
 المزخرفة من تماثيل بوذا ، واصبح الدين الرسمي مذهب الشنتو ، ولكن
 هيات لهذا المذهب الاجوف ان يشبع نهم النفوس المتعطشة الى اكثر منه ،
 وقد بقيت البوذية متغلغلة في الشعب . وان اليابانيين الملتحقين ارادوا التخلص
 من نير العبادة الاجنبية فزادوا انحذاراً في سلم التفكير ، وقال بهم الامر
 الى الاعتقاد بالوف من الالهة ، فقسموهم الى قسمين : آلهة الطبيعة وآلهة
 البشر . غير ان القسمة تطورت مع الزمن فلم تبق الحواجز بين هاتين الفئتين
 حصينة كما كانت سابقاً ، فاجتاز بعض الالهة من صعيد الى آخره . ليقع لهما
 وقد ألهت القوى الطبيعية كالنار والهواء والانهر والبحار ، وعلى رأس
 هؤلاء جميعاً امتراسي (Améterasy) الهة الشمس . اما آلهة البشر فهم
 الابطال وعظماا اليابان المؤهلون ورأسهم الجيمي تنو (Jimmu Ténno)
 مؤسس الامبراطورية . وكان يزداد عدد الالهة على التتابع ، فكلما
 مات بطل او عالم اضافوه الى الجيش القديم . فاصبحت الارباب من جوام

ذلك جيوشاً غفيرة اربى عددها على عدد آلهة الطبيعة بما لا يقاس . ولكن ليس لهذه الآلهة المقام العالي في نظر اليابانيين ، فانهم يرون فيها القصاص الخرافية ، وفي بعض هذه الخرافات ما يندى له جبين الادب خجلاً . ولكن الالهة امتراسي تحل المسكنة العليا في السماء ، ولها بلاط وحاشية في منتهى الابهة والنفخاة . غير انها على رغم مكانتها العليا لا تستطيع الاستبداد برأيها في الحوادث الجسام ، بل تواف مجلساً تستشير فيه آلهة النجوم والكواكب والارض والبحار ، ورأي الاكثرية يؤثر في القرارات التي تتخذ .

ويارس الدين الرسمي اي الشنتو في هياكل خالية من الزينة ، وهي مبنية بنوع مخصوص من الخشب المزروع مقدساً فهم لا يتعدونه الى سواه . وفي داخل المبد توضع طارلة كبيرة غير مطلية بأي نوع من الالوان ، وقد وضعت عليها مرآة معدنية ترمز الى الشعاع الذي يفيض من إلهة الشمس وعصا منصوبة تتساقط منها قطع صغيرة من الورق ، وقطعة من البلور الصافي كروية الشكل ترمز الى طهارة الآلهة وقدرتهم الكلية . ويضعون في الجهة اليسرى من مدخل الهيكل جرنأ فيه الماء المقدس ، وعلى الجهة اليمنى صناديق يخزن فيها ما يقدمه المؤمنون من النقود النحاسية ، وبجانباها جبل متصل بجرس يقرعه القادم لينبه الآلهة الى حضوره ، وينبها للاصغاء الى مطالبه . ويستحضرون الآلهة بقرع الاجراس وضرب الطبول والتصفيق وما شابه ذلك معتبرين ان ما يسر البشر يسر الآلهة ايضاً ، لذلك فهم يقدمون لها في بعض الاعياد الكبرى طعاماً وشراباً ، فيتبخرون لهذا الغرض أفضل ما لديهم ويرقصون وينشدون الاناشيد .

البوذية في اليابان

ما كنا لنعرض للبوذية في اليابان بعد ان بحثناها في مهدها اي عندما عرضنا للاديان في الهند ، لولا انها اخذت في اليابان شكلاً خاصاً وحدثت صدى قوياً لم يزل حتى اليوم . فلقد بينا في المقل السابق ان الشتو اي طريق الآلهة وهو مذهب اليابان القديم ، اصبح للمذهب الرسمي وان العلماء اليابانيين قاوموا الاديان الداخلية . ولكن الشتو مذهب جد بسيط لا مجال فيه للاخيال ، ولا شيع للنفس التائقة الى المعرفة ، ولا تتمه فيه لأبصار المصلين بعد تجريد الهياكل من الزخرف والفن ، فكل ما بقي في اليابان حتى ايامنا هذه من طقوس عاطفية تظهر فيها الزينة والبهرجة فهي مديونة به للبوذية . ولقد اشرفنا في المقل السابق الى تسرب البوذية في القرن السادس الى اليابان .

وتفصيل القول ان هذه الديانة دخلت الجزائر اليابانية من مملكة القرم المجاورة ، فقد جي . منها بتمثال ذهبي لبوذا ، وادخل هذا الصنم الى بلاط الامبراطور . وقد استقبل الميكادو البوذية مرحباً بها ولكن حاشيته ناوت هذه الفكرة ففترت رغبة الامبراطور باستبقا . التمثال واعطاه الى احد رجال البلاط المسمى سوغا (Soga) الذي وضعه في بيته فكان قصره اول ميكل للبوذية في اليابان . واتفق عقب ذلك ان تفشى في البلاد وباء

فتلك نسبة الأهالي الى وجود هذا الصنم الدخيل فهدموا الهيكل حتى لم يتركوا منه حجراً على حجر . ولكن الكوارث ازدادت وعمّ البلاء بعد هذا التهديم فقامت قيامة انصار البرذية زاعمين ان هذه الزيادة في المنكبات سببها غضب بوذا . ولكن الديانة الجديدة لم تدمر الا في عهد الامبراطورة سويكو (Suiko) اي في القرن السابع . فان هذه الامبراطورة عملت كثيراً في سبيل الدين الجديد حتى ان البروذيين قدسوها بعد الموت فرفعوها الى مصاف الآلهة .

وقد دخلت مع البوذية الى اليابان فكرة الملمكوت السماوي والصناعات والفنون وترقت الحضارة . وكانت العلوم وفقاً على كهنة بوذا ذوي الثقافة العالية الذين أثروا تأثيراً عميقاً في صعيد الاجتماع والادب ، ورفعوا المستوى الفكري الى درجة لا تفتقر . وقد شمل ذلك امة اليابان كلها من المليك الناعم في قصره حتى راعي القطعان ، وقامت الاديرة والمياكل في جميع النواحي ، ومما فن البناء والنحت بهذا السبب ، وكذلك قل عن الحياة وما يتصل بها من الصناعات اليدوية وبدت الروائع الفنية والنقوش القيمة في المياكل الكبرى ، فأوحى الى اليابانيين فكرة الجمال وفتحت ابصارهم على كنوز الطبيعة المدفونة ، واثارت خيالهم الخلاق الذي حبسه مذهب الشنتو القديم في سجن ضيق من الفقر والجفاف .

واكن العقيدة الاساسية في هذا المذهب هي وجوب ممارسة الخير ، والمبالغة في التطهير النفساني تخلصاً من التناسخ المتعدد اذ يباغ العابد المتقي مكانة بوذا اي الملمه ، ويتقلب في انتصارات متعاقبة على العوالم الستة اي الجحيم وعالم الحيوان والشهوة والقوى الفاضحة والجن والكائنات

الساوية حتى يبلغ النرثانا (Nirvana) . وابست النرثانا في نظر اليابانيين كما هي في نظر الهنود، لان الهنود يتأولون في تعريفها فيحسبها بعضهم خلوداً وبعضهم عدماً مطلقاً ، واكنها في اليابان دار النعم والمسرات اللامتناهية ، وهم يباغون في وصف لذاتها التي لا يبلغ اليها الخيال منها تعالى . فاذا اضفت الى هذه السعادة الخالدة ما يشهدون في هياكل بوذا من تماثيل خلافة ، ورسوم تأخذ العين رواء ومتمعة ، وقابلت ذلك بهياكل الشنتو (Shinto) الفارغة وعقيدته الجوفاء ، عرفت مبلغ اقبال الشعب على البوذية خصوصاً وان الشنتو خالي من التعاليم الاخلاقية ، على حين ان البوذية في اليابان تتساند وتعاليم كنفوشوس ، وهي تعاليم فيها كثير من الخير .

والبوذية تأمر بطاعة الوالدين واعالتهما كبيرين ، وتوصي بالعدل والابتعاد عن الانانية ومعاملة الناس بالرفق والحسنى ، والاعتصام بالدين الذي مداره عبادة بوذا . وعندهم الرصايا العشر التي تنهاهم عن ارتكاب المعاصي وهي هذه : لا تسرق ، لا تزني ، لا تكذب ، لا تفكر افكاراً سيئة ، لا تغضب ، لا تتهزأ ، وابتعد عن الانانية والافتراء . والنميمة . ولم تقصر التعاليم الكنفوشسية عن مجارة النظريات البوذية وهي اقرب منها الى الامور العملية ، ومدارها الطاعة للحكام والتخلق بالاخلاق الفاضلة .

نصي الصنم في اليابان

لم تبق العقيدة البوذية على حالتها الاصلية ، فقد رأت طائفة الكهان البوذيين ان تسامر الشعب في اهرائه فلأت الهياكل بالاورقان تمثيلاً للالهة التي

تتفاوت ممواً وخفضاً وعلى رأسها الاله اميدا (Amida) . هذا في الآلهة المذكور ، اما رئيسة الآلهة فهي كوانون (Kwanoun) وهم يصورونها برؤوس عديدة وايدي عديدة، ويبتهلون اليها شفهيأ فاذا كان المصلي بعيداً عنها كتب مطالبه خطياً فاذا استجابت كتب اليها شاكرأ هذه النعم الجزيلة . وكثيراً ما يكتب الطالب حاجته على ورقة صغيرة يلفها ويضعها في فمه ، وبعد ان يبلها بريقه ينفثها على تمثال الالهة فاذا التصقت تقابل خيراً وعلم سلفاً انه سينال مطالبه . وبين هذه الاصنام واحد يسمونه بتزوري (Binzuri) وهو مصنوع من الخشب يضمنه على مقربة من صندوق العطايا الذي توضع فيه النقود المعدنية . وبعد ان يضع المتعبد ما تجود به كفه من الهبات النقدية يتقدم من الصنم ويمسح بيديه على الجبهة والانف والصدغين متبركأ ، ثم يمسح هو نفسه هذه الاعضاء من جسده . وقد اصبح وجه ذلك الصنم ناعماً صقياً لكثرة تداول الايدي عليه . وفي مدخل المعابد البوذية تجد صنمين كبيرين لهما هيئة هائلة لما وسما به من الدمامة ، احدهما مطلي باللون الاحمر والآخر بالاخضر وهما يمثلان الشيطانين . ولا تسل بمد ذلك عن تعدد الاصنام التي تمثل اله البحر والرعده والهواء وما شاكل ذلك . وبين هذه الاصنام الرفيمة الشأن الهان يجيها الشمب كثيراً ، اولها اله الغنى يمثلونه حاملاً كيس أرز والثاني اله الطعام والسمك يمثلونه حامل سمكة بيده اليمنى وشصاً في اليد اليسرى ، ولا تنس اهمية هذين الصنمين من الطعام ومكانتهما الغذائية في الشرق الافصى .

رب سائل يتساءل عن مصير الالهة اميتراسي (Amétersy) اي
 إلهة الشمس التي يتحدث منها الميكادو ، اترها ضاعت بين اصنام البوذية

الدخيلة ؟ وهل تضيع وهي الاصلية في آلهة الشنتو ؟
 ان كهنة البوذيين لاوسع صدرأ من ان يتعسر عليهم حل هذا
 المشكل ، فقد جعلوا هذه الالهة احدى البوذات لان لفظة بوذا ومعناها
 الملهم لا تطلق فقط على غزواتها بل على العديدين من الناس الذين هم مظاهر
 عديدة للوهية . ولو رقت عبادة الاوثان عند هذا الحد لكانت المسئلة
 ايسر لانه نجم عن هذا المزيج بين الشنتو والتعاليم البوذية والمبادئ
 الكنفوشية فوضى خطيرة الشأن في المعتقد الديني وتفرق الناس شيعاً وقد
 اثر هذا التفرق تأثيراً عميقاً في الاخلاقيات اذ دفع بها الى المنحدر دفعاً ترايد
 على توالي الايام ، ويطول بنا الامر لو عرضنا لتعداد هذه الشيع ومراميتها .
 والمرجح ان هذا الاختلاف في التأويل سببه ان المذاهب الدخيلة في المذد
 والصين لم تكتب بلغة اليابان بل باللغة الصينية وفيها ما فيها من الصعوبة ،
 حتى انك لو سألت الكهان مسئلة مذهبية لسكتوا جهلاً . وتنحصر معارفهم
 ببعض الطقوس الشكلية الاوتوماتيكية لا يعرفون لها سبباً ولا مبرراً الا
 ما يتقاضونه من اجر مقابل هذه الوظائف .

ويذكرنا هذا التخبط في التفسير والتأويل بما وقع لفلاسفة العرب ، لان
 فلاسفة اليونان لم تترجم رأساً الى العربية بل كان اكثر التراجمة من السريان ،
 فأخذ عنهم العرب ما اخذوا وفيه الغموض الكثير والمبهات ، خصوصاً وان
 هؤلاء التراجمة لم ترسخ لهم قدم في المعارف الفلسفية . ثم جاء اللاتين
 فاخذوا هم ايضاً عن العرب ، وقد مرّ زمن طويل قبل ان تنجلي الامور
 وتستقر في نصابها ، ولكن هؤلاء جميعاً بذلوا جهدهم وشجذوا الملم توصلاً
 الى المعرفة . وهذا ما لا نستطيع ان نطالب به سكان الشرق الاقصى واكثرهم

كسول خامل . ومن اسطع الادلة على هذا الكسل المتناهي ان للكهان اليابانيين الذين اشرنا الى جهلهم في ما تقدم مكتبة مقدسة تحوي من المجلدات ما يقارب السبعمائة آلف ، ولكنهم لم يتعرضوا كثيراً للدرس والتنقيب في هذه الكتب . فاذا استوضحهم احد اتبأهم عن ماهية هذه المجلدات ومحتوياتها عمدوا الى التخلص بطريقة هي آية في الخمول ، اذ ان المكتبة مصنوعة بشكل لولبي يدور حول محوره ، فيعلمون المؤمن انه يكفيه ادارة هذه المكتبة مرة واحدة بيده حول محورها ، ليحصل على الفائدة نفسها التي يحصل عليها بالاطلاع على هذه الآلاف من المجلدات . وهكذا ترى ان البوذية انحطت كثيراً في اليابان عن مستواها الاصلي في الهند ، واصبح الكهان يجلبون قلب الشعب بهذه الابهة في الاحتفالات الدينية . اما وقد عجزوا عن تنفيذ العقول فهم يبهرون الابصار ويثيرون الخيال بهذه القشور التي لا طائل تحتها .

الدين في الفرس

ان المذهب الذي كان له الشأن الخطير في بلاد فارس هو مذهب الزرادشتية وانما سمي كذلك بالنسبة الى مؤسسه زرادشت المولود في بلاد مادي في القرن السابع قبل المسيح . وقد وجدت هذه التعاليم في مجموعة قديمة يسمونها الاوستا (Avesta) . وتعرف هذه الديانة بالمزدكية في النسبة الى ارمزدار مزدك ، وقد ازدهرت خصوصاً في ايام الاكاسرة الساسانيين واصبحت دين الدولة الرسمي . وقد سميت الثنوية لانها تدور حول عنصرين متناقضين اولهما روح الخير وثانيهما روح الشر وكلاهما موجود منذ الازل . اما الاول فهو مبدع المخلوقات الصالحة جميعاً ، واما الثاني فهو مصدر كل شر وخالق الشياطين . والمركة قائمة بين الاثنين منذ البدء وستنتهي بانتصار الروح الخير في آخر الزمان . ولو وقف المعتقد عند هذا الحد ، ولولا هذه الصلاحية الكبرى التي يخلعونها على مبدأ الشر الذي يستطيع مقاومة عنصر الخير ، لما بعد هذا المعتقد عن التوحيد .

والمرجح ان سبب هذه البدعة التي حملت المؤسس على تصور اله مستقل للشر هو ما شهدته في هذه البشرية الطافعة بالسيئات ، فرأى ان ينفي عن الخالق السامي كل هذه القبائح ، فنسبها الى اله الشر . وقد اذعم بعض مفكرين ان هذا الاله الودي قد يكون فكرة سبئية مرتت ببال الخالق فولد منها اله الشر . وقد تصوروا ان اله الخير اهرمزدا (Ahiramazda)

هو السيد العليم السامي ، خالق الجنة والقبة الزرقاء . وما فيها من كواكب ، وباري الارض والحيوان ، ومبدع البشر الذين فرض عليهم تكريمه وعبادته ، تحيط به في سمائه حاشية مؤلفة من ستة آلهة لكل منها اختصاصه ومنطقة نفوذه . فان احدها يتولى نشر السلام والغبطة في البشر ، وثانيها يمثل الاخلاقيات وهو حارس النار ، وآخر يعني ويوزع الحكمة . اما اكبرها فهو قوهيانا (Vohumana) وهو اول خليفة ابدعها ايمزدا ، وله صفة المستشار الاكبر الرفيع الشأن ، الى آخر ما في التقسيم بين هؤلاء الستة الذين تعددت صلاحياتهم وتحددت بحيث لا يتجاوز احدهم على الآخر . وبلي هذه الطبقة في الدرجة فوق آخر من الارواح القدسية ويحتل مركز الزعامة فيها اتار (Atar) وهو عندهم رمز الالوهة والايان وانه في السماء يمثل النار ، والفرس يضرعونها رمزاً اليه واكراماً لمقامه لا كما توهم الناس ان العجم يعبدون النار بينهما ، بل ان سدنتها اي كهانها الحريصون على ابقائها المتواصل يفعلون ذلك من اجله . ومن هذا الجوق ثلاثة يتولون دينونة الموتى ، واهمهم الاله مطرا (Mithra) ومكانته عظيمة جداً لانهم يعتبرونه اله الشرف الحفيظ على الاخلاق وخصوصاً على انفاذ اليهود والتقييد بالوعود . وقد تسربت عبادته فيما بعد الى الرومان الفاتحين فكان الجنود على الاخص يخلفون باسمه ، فاذا حلف احدهم باسم مطرا علم المتعاقد معه انه لا ينكث العقد اعتقاداً منه بان هذا الاله يفحص القلوب والضمائر فلا تخفى عليه خافية ، وان الشمس عين له يرى بها كل شيء . ثم تطورت هذه العقيدة فاعتبرت الشمس مطرا نفسه وعبدتها بهذا الاعتبار . وهناك نوع آخر من الملائكة هو اشبه شيء بالملائكة الجراس ، فلكل انسان

ملاكه الحارس يرافقه منذ الولادة حتى الموت، يسهر عليه ويؤذي له الخدمات الجلى .

وبجانب هذه الارواح الصالحة تقوم في الجهة الثانية الارواح الشريرة وعلى رأسها ائرومانياف (Anrô-mainyave) عدو اهيرمزدا ، ودأبه زرع الشر والاساءة الى المخلوقات اذ يجب اليهم الرذائل والموبقات ليوقعهم في شرآك، واكبر الموبقات في نظرهم هو الكذب . اما هذا العدو فسكنه هاوية مظلمة ، وقد بلغت رغبته في ايداء البشر بث السم في الاعشاب والاشجار ونشر زها. اربعة آلاف من الامراض ، ولديه ستة من كبار الشياطين وزعمانهم بمثابة الحاشية . ولا ريب انه تصور حساني لادامة التوازن بين اتباعه والحاشية الالهية المقيمة في بلاط اهيرمزدا . اما سفر التكوين عندهم فلا يخاو من الطرافة اذ توهموا ان الخلق بدأ وسينتهي في مدة اثنتي عشرة الف سنة . ففي الثلاثة الآلاف الاولى منها تبرز المخلوقات الى الوجود ولكن غاؤها كانت موجودة في عقل اهيرمزدا اي ان العالم كان موجوداً بالقوة بحسب تعبير ارسطو فكان ينقصه للظهور اقتتان القوة بالفعل . وفي آخر هذه الحقبة ظهر ائرو (Anro) اي اله الشر وسكان قبل ذلك مخدراً محبواً فمرض عليه اهيرمزدا الصلح فرفض ، فقامت الحرب بينهما الى مدة تسعة آلاف سنة . وكان اهيرمزدا في خلالها قد اوجد المخلوقات ولكن استغاثة عدوه من الصفة اضرّت بالكون ضرراً بالغاً اذ اقدم هذا الخصم العنيد على قتل الانسان الاول والثور الاول اللذين من نسلها. تحدر الانسان والثور . وفي بدء الثلاثة الآلاف سنة الاخيرة . من عمر الكون ظهر النبي

زرادشت وستنتهي هذه الحلقة بانتصار اهرمزدا ، ويبدأ اذ ذلك عهد جديد
 لا متناهي في الغبطة والسعادة للبشر .
 اما الاخلاقيات في دين الفرس فهي على جانب عظيم من الرفعة ،
 وهي تعلم حب الغريب وبذل الضيافة للاجانب ومارسة الفضائل واهمها
 زراعة الارض وعدم اذية البقر والكلاب نظراً لمكانة هذه الحيوانات عندهم
 والامتناع عن قطع الاشجار ، ويتبين من ذلك انه كان للشجرة اصدقاء
 في ذلك العهد السعيتي . ويجزون الزنى وارتكاب الخطايا ولكنهم يجلون
 نكاح المحارم ، وتلك لطيفة سوداء في هذه الصفحة الخلقية العالية . ولكن
 المؤرخين يعللون لذلك بان اولياء الامور رغبوا في حفظ الدم في العائلة
 لذلك يتزوج الاب من ابنته والاخ من شقيقته . ولم تقتصر هذه العادة السيئة
 على الفرس وحدهم بل تعدتهم الى كثير من الامم القديمة . وكان مرتكب
 المعاصي يلتم بالتكفير عنها ، اذ كان يصوم في خلوة مدة تسعة ايام او كان
 يضرب ويكون الضرب في جهة معينة من جسده . اما بعض الخطايا فلا
 بد لصاحبها من غسل وجهه ببول البقر لمحوها وهذا ما حمل ابا العلاء المعري
 على القول :
 عجببت اكسرى واشياعه
 وغسل الوجوه ببول البقر
 ليمحوها
 لانه لم يجد في الدنيا
 شيئا يزيلها
 الا ببول البقر
 اما الاشياء الطقسية فاهمها ايقاد النار في الهياكل والبيوت يرمون فيها
 بعض الاطياب كالبخور مثلاً . ولا يقرب السادن من النار الا بحجب الوجه ،

لئلا ينبعث نفسه فينجسها . ولهم كهان يقيمون الصلوات بتلاوة بعض آيات الاوستا (Avesta) ويقربون القرابين للآلهة . واكبر الاعياد عندهم عيد النيروز وهم يحتفلون به كل سنة حتى ايامنا هذه . ويشرب الكهان مسكراً في اثناء الصلوات يستخرجونه من عشبة مقدسة يسمونها الصوما (Soma) ويرطبون بعصيرها شفاة الطفل ساعة ولادته ، ولكنه لا يعتبر زرادشتياً صحيحاً الا عند دخوله سن البلوغ اذ يلبسونه زكراً مقدساً في حفلة مهيبه ، اما الزواج فهو فرض على الفرس .

وعندما يموت احدهم يضعون بازائه كلباً زاعمين ان فطرات الكلب تصد الشياطين موقتاً عن الاستئثار بالمتضرر ، ولكنه عندما يسلم الروح يستولي الشيطان على الجثة . لذلك فالجثة في نظرهم نجسة ومن لمسها وقع في خطيئة جسيم حتى انها لتنجس الارض اذا دفنت فيها . لذلك يحملها رجلان ملففين ايديهما باقمشة ويطرحونها في مكان يقال له برج الصمت ، حيث تأكلها الطيور النجسة . وتظل نفس الفقيد مدة ثلاثة ايام حول المنزل ثم تمثّل بعد ذلك للدينونة وتوزن الصالحات والسيئات في ميزان فاذا تساوت الكفتان انتقلت الروح الى مكان تعذب فيه بالبرد والحرارة ، اما اذا رجعت احدهما فالمال الى النعيم او العذاب . وتعتبر النفس على جسر تجتازه النفس الصالحة بسهولة ، اما الشريرة فتتهوي الى الجحيم حيث العذاب والظلام الشديد الذي يمكن لمسه بالاصابع لمرل كثافته . وقد زعم اردافيراف (Ardafrarf) انه رأى رؤيا هائلة وصفها وصفاً رائعاً وهي كثيرة الشبه بجحيم دانتي (Dante) . ولكن جهنم غير خالدة في عرفهم ، فلا تتجاوز تسعة آلاف سنة على الاكثر . ويعتقدون بان القيامة ستشمل

العالم ، يومئذ تفرق الارض كلها في سيل من الرصاص المصهور وهو يحرق
الخطاة ولا يؤذي الابرار ثم يتجدد الكون بعد ذلك ويعيش الناس في هنا .
خالدا لا يشوبه الم .

وما يلفت النظر في هذه الديانة القديمة انها تطلمت الى عالم اسمي وهي
تتلاقى مع اختها ديانة الهند في نواح عديدة بل انها في الاصل من معدن
واحد ولكنها اختلفتا في النتائج . فالهندي بحكم المزاج والمناخ استسلم
للاحلام والحمول فبلغ الصوفية المبهمة والحلولية (Panthéisme) ، اما
الفارسي فيحفظ نشيطا اختط لنفسه مذهباً واضحاً يسعده في الدنيا والآخرة
ويشير حياته وساوكة الادي .

لقد دانت ايران بالاسلام فلم يبق من المزدكيين الا افراداً قلائل
مشتتين في طول البلاد وعرضها . وقد هرب مشرات الالوف من الفرس الى
الهند وخصوصاً الى يوباي وهم يدينون بالمزدكية خالصة من بعض شوائبها
كالافتران بالمحارم مثلاً . ولا يخفى ان هذه العقيدة قد أثرت في التوب
تأثيراً كبيراً . وقد بحث المؤرخون كثيراً في التأثير المذهبي المتبادل بين
الفرس والاسرائيليين ولكنها نقاط كثيرة المزالق لا نتعرض لمبحثها . اما
الامر الذي لا ريب فيه فهو ان الفرس تأثروا بجيرانهم الساميين الى ابعد حد .
اجل انه لم يبق في ايامنا هذه الا بعض الالوف من اتباع الزرادشتية ،
على حين ان اتباع بوذا وكنفوشيوس ولاوتسو يعدون بنات الملايين .
ولكن ذلك لا يحول دون الجزم بان زرادشت الفارسي اختط في تاريخ
الاديان صفحة لا يحورها الزمن رفعت صاحبها الى مستوى الخالدين في تاريخ
الفكر .

الاديان في آشور بابل

لم تكن بابل في القرن الثلاثين قبل المسيح مملكة واحدة بل بمالك صغيرة متفرقة . لكل مدينة مبعدها الخاص ، يكرم فيها إلهها مطسناً بين شعبه فيدفع عنهم البلاء ويؤازرهم في الحروب تحف به هالة من الآلهة الصغار يقومون لديه بوظيفة الوزراء والقواد ، وكان ملك المدينة بمثابة نائبه المنظور يستمد منه القوة والسلطان .

وبقدر ما تكون المدينة كبيرة يكبر قدر الآلهة المعبود فيها . فلما بنت مدينة بابل وعظم شأنها اعتبر إلهها رب الارباب واصبحت في نحو القرن العشرين قبل المسيح قبلة الانظار في ظل ملكها العظيم حمورابي وإلهها الاعظم مردوك ، واكن هذا الآلهة الاعظم لم يبد جيش الآلهة الثانويين . وكان لا بد لهؤلاء الآلهة في نظر البابليين من ازواج تنفي عنهم ضجر الوحدة فتصوروا لكل إله زوجة . غير انه لم يكن للانثى شأن خطير في حياة زوجها وربما كانت المرأة في أيامنا هذه اكثر تأثيراً على رجلها من تلك الآلهة . ولكن الشأن العظيم والمرتبة العليا التي بلغت الإلهة عشتار (Astar) لم تبلغها واحدة من إلهات الاقدمين . وعشتار هذه هي عشتروت او الزهرة ، اسماء عديدة لمسمى واحد . وقد اعتبرها البابليون إلهة الحياة والتناسل والاشوريون إلهة الحرب . وكانت تتخلل الحفلات التي تقام في الهياكل لعبادتها عادات قبيحة تنزل فيها حيوانية الانسان الى احط الدرجات البهيمية حتى ان احدى المدن البابلية « اورك » دعيت مدينة البنايا المقدسة .

وبين هذه الآلهة المتعددة واحد يلفت النظر وهو الاله تموز المعروف عند الفنيقيين واليونان بأدونيس .

وليس هذا الاسم نكرة في اذهان اللبنانيين فهو صاحبهم ، حبيب الزهرة ، وصريع الخنزير البري في روائي افقا . وفي اسطوره من الجمال والشعر ما حمل اعظم شعراء الدنيا على وصفها ومنهم الشاعر الخالد شكبير . وتموز هو اله الربيع في عرف البابليين يفيض على الارض البهاء والنضرة ويكسوها هذه الجلايب الخضراء التي لا تلبث ان تكويها اشعة الشمس فتسيتها وتيته في اول الصيف . لذلك فان شهر تموز يحمل اسم هذ الاله الجميل وهو تذكار موته السنوي .

وقد اطلعتنا الحفريات البابلية بما وجد منقوشاً على اللواح الحجرية التي يعود تاريخها الى القرن العشرين قبل المسيح ، على معتقد البابليين بشأن خلق الكون . وقد ترجمت هذه القصائد المنقوشة على الحجر ، وفيها كثير من الخيال الحبيب ، مثال ذلك قولهم : في البدء امتزجت مياه الاوقيانوس الأب بمياه البحر الأم فكانت الميولي ، وولد فيها النظام اي الآلهة وقد تم ذلك قبل ان يكون في الاعالي اسم للسماء . او في الأسافل اسم للارض . ولكن ميلاد هؤلاء الآلهة أغضب الاوقيانوس وتذمر من الآلهة الصاخبين الذين يمكرون صفوه فقال : حرمت لذة الراحة في النهار وحوار الرقاد في الليل . وتآمر هو والبحر اي الأب والأم فاعتدما ابادة الآلهة ، فقذف البحر بالثعابين والحيوانات المائلة ليقتل الآلهة . اما الإله انو (Anon) فاعتراه الرعب وولى هارباً ولكن مردوك كان شجاعاً لا يهاب القتال فاجتمع هو وسائر زملائه في مأدبة واخذ على نفسه قهر البحر شرط ان يولى

الرئاسة ثمناً لهذه المجازفة الكبرى ، فرضي الآلهة بذلك وقلدوا مردوك
السلطان . وهنا يصف الشاعر البابلي كيفية استعداد مردوك للوقعة فيقول :
قام مردوك فعاق على جنبه كنانته وقوسه ، وحجب وجهه بالهرق ،
وجسمه باللهيب ، واصطنع شباكاً ليصيد بها البحر ، واستجمع الرياح
الاربع فاخضعها لمطائه ، وحملته العاصفة وكأنها مركب عظيم ، وانقض
على البحر وقد حفرت المياه عميق الأهرى ، فرماها بالعاصفة ثم اتبعها بسهم
شطر البحر الى نصفين ، فاخذ احد الشطرين ورماه الى فوق فكان الجلد
وهو في عرف البابليين بحر علوي يطر المياه . وقد ستر مردوك هذه المياه
العلوية واقام عليها حراساً ثم زينها بالكواكب والنجوم وانما خلق القمر
لتنظيم الاوقات . ثم خلق مردوك البشر من دمه . وتنتهي القصيدة
بتمجيد هذا الاله العظيم الذي خلق عليه ما يقارب الخمسين لقباً تعداداً
لصفاته . وقد ذكر الطوفان في هذه النقوش الشعرية ايضاً ، ومن
القصيدة قوله : خشي الآلهة من الطوفان فهربوا وجأروا الى سماء احدهم أنو
وقبعوا وراء الاسوار كما تقبع الكلاب المذعورة ثم تنسموا الرائحة الشهية
لحاموا حرم الذهب فوق الدخان العطري المتصاعد من الشحم واللحم . وقد
اراد بعض المؤرخين ان يثبت كون قصة الخلق والطوفان عند اليهود مأخوذة
عن البابليين ولكن من تأملها عن كثب وجد بينها فرقاً عظيماً .

العر والعرافة والرقي

ان لفظه بابل وحدها مرادفة للسحر ، فكان كلما استمضى على الشاعر
العربي تشبيه العيون النجل بغير عيون المها ، عمد الى سحر بابل وخرها فيقول

شوقي مثلاً :

السحر من سود العيون لقيته والبسبالي بلحظهن سقيته
ومن يجهل مثلاً اسمي هاروت وماروت وهما ملكا السحر في بابل .
وعندما كان يمرض احد البابليين كانوا يحسبون المرض نقمة الهية تنصب على
الانسان . ولا تعجب لهذا التعليل السخيف الذي كان يلجأ اليه هؤلاء
الناس منذ اربعة آلاف سنة فان كثيرين من الشرقيين في القرن العشرين
يزعمون ان فلاناً مرض او حلت به النكبة الفلانية عقاباً له على كذا وكذا .
وكانت اكثر الشرور التي تحيق بالانسان تنسب الى اعمال السحرة وخصوصاً
الساحرات فانهن اعلم بجلب الشر واستمطاره على رؤوس الناس سواء
باستحضار الشياطين او باعطاء بعض الادوية والتلفظ بعبارات خصوصية .
وكان هؤلاء السحرة كهان ورعاة يجارونهم ويبتلون مفاعيل السحر ، ولا
تعجب كثيراً لهذا التدجيل فانك تجد في عصر الطيران والراديو اليوم امثال
هذه الشعوب في قلب مدينة بيروت ، ولدى المحاكم ودوائر الشرطة
الخبر اليقين .

المرجم بالغيب والتكهن

لقد طبع الانسان على التشوق لمعرفة المستقبل وكشف اسراره ، يعلم
كيف يسير واين يتجه في خضم هذا المجهول ، وكل الشعوب القديمة اخذت
هذا الامر بيمين الاعتبار . وكان يوسف بن يعقوب ، وذكره شهير في
التاريخ ، يعتمد الى مثل هذا التكهن عن المستقبل بواسطة جام مذهب كان
لديه ، وقد نبأ هذا الجام في عدل اخوته على غير علم منهم ، ولما تبهم

الصلوة في بابل واشور

كان للصلوة عندهم مكانتها العليا ، وتجلى هذا الشعور الديني محوراً
بهاة من الاغاظ والتعابير الشعرية ، مثال ذلك هذا الابتهاال للإلهة عشتار
او عشتروت ، واننا نجترى . منها بهذا المقطع : « اني اضرع اليك يا سيدة
السيدات والهة الآلهات ، ملكة الشعوب ومدبرة الامم ، حيثما تنظرين
تحمين وتشفين المريض ، فانا عبدك المتألم اضرع اليك . تنهداً فأقربي بوجهك
علي واستجبي رجائي فاشفيني من اسقامي حتى اذا غمرتني برحمتك ينظر الي
الناس فيمجدون اسمك ايها الملكة » .

وتبدأ هذه الصلوات عادة بالتمجيد والتعظيم وتنتهي بالمطالب والتماس
المنافع . وفضلاً عن الصلوات الطقسية فقد كانوا يمارسون الصلوات اليومية ،
فقد كتب ولد الى ابيه : « اني اصلي الى الاله نبو (Nibou) كل يوم
ايطيل حياتك » . وكتب موظف الى الملكة : « فليبارك بعل (Bel)
ونبو مولاتي ام الملك ، واني اصلي كل يوم لاطالة حياة مولاتي » ، الى آخر
هذا الباب من الابتهاالات .

الفرايين والكسراة

وكانوا لا يفترون عن تزيين الهياكل بالذهب والفضة مقدمين للإلهة

الشراب والمآكل ومنها السمن والعسل والفاكهة ، وشرط هذه المآكل ان تكون حاوية الطعم . وكانوا يقربون الحيوانات باعتبار ان كل ما في الكون هو ملك الآلهة . وتطورت عادة القرابين على الزمن حتى اصبحت فريضة تؤدى للمهيكل ومعاشاً للكهنة . اما الحيوانات المقربة فكان اكثرها الثيران والحملان والمعزى والطيور . اما الكهان فينقسمون الى فئات منهم من يقوم بتقديم القرابين ومنهم من يقوم بالرقى لطرد الشياطين والارواح النجسة التي تسبب الامراض ، وقد افضى بهم هذا التخصص بشفاء الامراض الى معرفة بعض النبات والعقاقير النافعة في المداواة .

اما رأيهم في الخطيئة والآثام التي تسبب الامراض ، فيمكن استنتاجها من هذا المقطع الذي نجذرى . به من صلاة لهم في رقية المريض ، ومنه : « ايها الآلهة والآلهات ، اننا نضرع اليكم من اجل المريض (فلان) . اتراه اغاظ الهه او الهته ففرق بين الابن واييه والام وبنتها ، ام رفض فك الاسير وانقاذ الجيس ، ام اهان جده ، ام حقر ابويه ؟ وهل قال نعم بدلاً من لا او قال لا بدلاً من نعم ؟ او زيف النقود ونكث بالعهود او غير الحدود ؟ وهل تمرد على رئيسه او سرق او اعتدى على امرأة قوبيه ؟ وهل علم الضلالة او قال شيئاً وهو يضر شيئاً آخر ؟ وهل زرع الشقاق بين افراد عائلة واحدة ؟ »

فانت ترى من هذه التوسلات وامثالها ان الجهة الاخلاقية كانت في مستوى رفيع عند هؤلاء الوثنيين ، ولكن طلب الغفران لم يتعد حد التماس الشفاء واسكان غضب الآلهة ، ولم تكن هذه الآلهة في نظرهم رحيمة بقدر ما هي مخيفة ، يدلك على ذلك قول المتوسل :

« نظر إلى السيد في حمو غضبه ، وزارني بشورة قلبه . التمس العون فلا
 يد إلى احد يداً . ابكي ولا المبح حولي احداً ، فانوسد الارض كثيباً وعيناي
 إلى التراب واتطلع إلى الله متنهداً » . ونظراً لتعدد الآلهة كان التائب يترحم
 انه اخطأ إلى اله او الهة لا يعرفها فيصلي حينئذ إلى اله المجهول . ومن
 اقوالهم في الحكمة والتقوى : « لا تفتح فمك واحفظ شفئك اذ تكون
 غاضباً فلا تقل كلمة واحدة وانما التعجل بالكلام يعقبك الندم . طهر قلبك
 وتقرّب من الهك كل يوم تفلح في حياتك فان مخافة الله تستدر الرضى » .
 وينبادر إلى الذهن بعد ما تقدم ان تكون هذه الشريعة قد استفاضت
 في التوصية بالقرب ، وان يكون ذلك قد اثر في شرعة حمورابي . ولكن
 الامر ليس كذلك فان قانون حمورابي يعاقب بالموت من آدى لديه عبداً
 آبقاً وسهل له طريق الهرب . واغرب من ذلك ان تجيز هذه الشريعة
 المحرّابية تعاطي البغاء المقدس تكريماً للالهة عشقوت .

مصير الاموات والحياة الاخرى

اما جهنم فكانوا يسمونها الارض الواسعة ويتصورونها بملكة مترامية
 الاطراف ، لها شرائعها الخاصة المؤبدة ، لا خلاص منها ولا رجعة ، على
 ابوابها حراس يحولون دون خروج اهلها . وهي مسورة باسوار سبعة ، غارقة
 أبداً في ظلام كثيف ، لذلك سميت المقر المظلم ، والممذبون فيها يتغذون
 بالتراب والوحل . وحسبوا ان الروح لا يقر لها قرار ما لم يدفن الجسد . اما
 مسألة النقص وقيامه الموقى العامة فليس في آثارهم ما يدلنا عليها . وقد
 اثبتت الحفريات انهم كانوا يدفنون مع الميت بعض المأكول والمشروب

واواني المطبخ ، واثت ترى ان مسألة الجوع لها اهميتها عندهم في الحياة والمات . ولا ريب ان في الطبع الانساني ميولاً لا يغيرها الزمن تحملك على القول مع الحكيم ان لا جديد تحت الشمس . وحتى منتصف القرن التاسع كانت المعلومات التي في حوزة العلماء عن ديانة البابليين والاشوريين جد ضئيلة ولكن الحفريات التي كشفت عن مدينة نينوى واشور وبابل وما عثر عليه في الهياكل ، والكتابات السامرية المنقوشة على الحجارة منذ القرن الثلاثين حتى القرن الثاني ق.م اقت ضوءاً ساطعاً على هذه الناحية المظلمة . وان ما نقوله عن الديانة البابلية يشمل الاشورية ايضاً لان اشور تبتت ديانة البابليين . ما عدا الاله اشور فهو احتكار للاشوريين . وقد حسب بعض المؤلفين ان البابليين بلغوا التوحيد في القرن العشرين ق.م . مستبدلاً على ذلك بوجود اسماء اعلام مضافة الى اسم الجلالة كقولك : الله معي والله ابي ، كما تقول اليوم في بعض اسماء العلم عبد الله واطف الله . وتجد في بعض المواد من شرمه حمورابي مثل هذه العبارة : فيمثل المحرم امام الله . ولكن هذا الزعم خاطى . وقد نجم هذا الخطأ عن غلط في الترجمة ، والصواب هو : اله معي واله ابي ، وذلك لا يعني التوحيد بل قوة غير منظورة تسمى الها ولكنه واحد من فصيلة كبيرة .

وبين الديانة البابلية والموسوية بعض الشبه ، وهذا التشابه في العادات والاتجاه الفكري المائل ليس بالمستغرب بين الشعوب السامية القديمة فان التجاور في المكان والزمان يجعل بين المتجاورين وجوهاً عديدة للشبه ، وهذا الذي حمل بعض الذين عرضوا لدراسة الاديان القديمة على القول بان الموسوية مستوحاة من البابليين .

١ علي فارس الاسلام

لقد حفل تاريخ العرب بذكر الحروب والوقائع ، فاذا انت تصفحته
اطلأت عليك من خلل السطور غابات تلتهم بالأسنة وترخر بالمران ، ولمحت
غمرات ترن فيها السيوف البراتر ، وتحممهم في غبارها الخيول الجياد ، وقد
وصفها بشار بن برد بقوله :

كان مثار النقم فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكب
وقد تعددت فرسان العرب في الجاهلية والاسلام تعدد الكواكب ،
وتناولتهم الاساطير فنقلتهم من صعيد التاريخ الثابت المطنن الى بحرها
المتقلب بين المد والجزر فخلدت امثال عنقرة ، وعمرو بن معدي كرب ،
والمهمل ، ودريد بن الصمة ، وربيعه بن زيد المكدم وسواهم . وابتدعت
وشوهت ما شاء خيال الاصمعي وما لفته القصاصون لاستهواء العامة . ولكن
البطل الذي لا ريب فيه ، والذي تلتفت اليه الاعصار كلما جرى ذكر
الشجاعة على لسان هو فارس الاسلام علي بن ابي طالب . ولعل اول
مظهر من شجاعته كان يوم الهجرة ، اذ ائتمر المشركون بالنبي واعتزموا
قتله فانتدبوا لاغتياله اثني عشر شاباً من مختلف القبائل ليتفرق دمه في
العرب ، فأثر علي ان يقتدي ابن عمه بنفسه ، فانشع بردائه ونام على فراشه
فتمكن النبي من الخلاص وقد تعرض علي لسيوف العرب غير هياب ولا وجل .

واليه دفعت راية العقاب يوم بدر ، وكان اذ ذاك في مطلع الشباب لم
يجاوز العشرين من عمره ، فشرف الراية واعلاها فلم تعرف كفاً ارضى ولا
ساعداً اغاب .

وقد كفى المسلمين في ذلك اليوم شرَّ بطالين من ابطال قريش الوليد
ونوفل بن خويلد وقد فتح النصر في يوم بدر آفاق الحجاز للنبي وعز المسلمون .
وفي غزوة الاحزاب وهي غزوة الخندق بطش علي بأشد ابطال العرب
بأساً واقوام شكيمة عمرو بن ود العامري . وقد برز عمرو في ذلك
اليوم يتحدى صفوف المسلمين ويقرهم فصمتوا واجمى لا يحركون اسناناً
ولا يسلون حاسماً ، فقال النبي : من لابن ود؟ فقام علي وقال : انا له يا رسول
الله . فقال له : اجلس انه عمرو بن ود . ثم كرر عمرو النداء وجعل يوبخ
المسلمين ويقول : اين جنتكم التي ترعون انه من قتل منكم دخلها وانشد
اياتاً منها :

ولقد بجمحت من النداء بجمعكم هل من مبارز

ان الشجاعة في الفتى والجلود من خير الفرار

فغضب علي وجلجات في صدره حمية هاشم وعبد مناف وهب هبة
الوثبال . فلما رأى النبي منه هذا المضي في العزم اعطاء سيفه ذا الفقار والبسه
درعه الحديد ورفع عمامته الى السماء . وقال : « اللهم اخذت مني عبيدة يوم
بدر وحمزة يوم احد وهذا علي اخي وابن عمي فلا تذرني فرداً وانت
خير الوارثين » .

ومشى اليه علي فنظر اليه عمرو نظرة المتكبر العاتي وازدراه الخدائة
سنه فقال له : غيرك من اعمامك من هو اشد منك فاني اكره ان اهرق دمك .

فغضب عمرو فاقتحم عن فرسه وسل سيفاً كأنه شعلة نارية ففقر فرسه وضرب وجهه واقتبل على علي فاقتاه بدرقته ، فضربه عمرو فيها فقتلها واثبت فيها السيف ، فشجه فضربه علي على جبل عاتقه فسقط وكبر المسلمون فمرف الرسول ان علياً صرع عدوه فقال : ان قتل علي لعمرو افضل من عبادة الثقلين . وانا سميت هذه الغزوة غزوة الاحزاب لان اليهود وشتى قبائل الحجاز تألبت على النبي بقيادة ابي سفيان بن حرب . وعلي هو فاتح حصون خيبر . وفي رواية ان الرسول كان يعطي الراية كل يوم واحداً من اصحابه ويبعثه فيرجع ولم يكن فتح فقال : لاعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه كراراً غير فرار . فدعا علياً والبسه درعه وشد ذا الفقار في وسطه . وذو الفقار هو سيف النبي وفيه يقول القائل :

لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا علي

وفي ذلك اليوم فتح علي حصون خيبر بعد ان بطش بالحرث واخيه مرحب وهما من اشد ابطال الجاهلية . وقد شهد لعلي بالشجاعة اصحابه واعدائه على السواء ، وعدوه الذي شهد له لم يكن جباناً رعديداً بل فارساً تمرس بالحرب ، له الايام المحجلة والشهرة المدوية ، وهو الزبير بن العوام . فلما نشبت الفتنة وعبأ الفريقان للقتال عشية يوم الجمل وقف الزبير بين الصفوف وقال : أيها الناس ، وطنوا انفسكم على الصبر فانه يلقاتكم غداً رجل لا مثيل له في الحرب ولا شبيهه ، ومعه شجعان الناس .

وفي موقعة الجمل هذه اظهر علي من الشجاعة والحلم ونبل الاخلاق ما لم يبلغه احد سواه . فهو لم يبدأ القوم بالحرب حتى اصبح في موقف الدفاع ، ودفع الراية الى ابنه محمد بن الحنفية ثم قام فركب بعلة رسول الله وابس

درعاً وتضع الناس حين سمعوا به قد تحرك ، واقتتل القوم فهزمت ميمنة علي وميسرته . وروى ابن جبهين قال : نظرت الى علي وهو يخفق نعاساً فقلت له : تالله ما رأيت كالذي قطع وإن ليأزأنا مئة ألف سيف وقد هزمت ميمنتك وميسرتك وانت تخفق نعاساً . فتقدم ونظر الى اصحابه يهزمون ويقتلون فصاح بابنه محمد ان اقتحم فأبطأ ، فأتى علي من خلفه وضربه بين كتفيه واخذ الراية من يده وهجم علي معسكر القوم يضرب ويطمئن فشقمهم . ثم خرج وهو يقول : الماء الماء ، فأقاه رجل بداوة فيها عمل فقال له : يا امير المؤمنين اما الماء فانه لا يصلح لك ولكني أذوقك هذا العسل ، فقال : هات . فحسا منه حسوة ثم قال : ان عسلك لطائفي ، فقال الرجل : لمجياً منك والله يا امير المؤمنين لمعرفة الطائفي من غيره في هذا اليوم وقد بلغت الغاوب الحناجر ، فقال له علي : والله يا ابن اخي ما ملأ صدر عمك شي . ولا هاب شيئاً . ولما دعا معاوية الى الهراز قال عمرو بن العاص لمعاوية : انصفك الرجل فضحك معاوية وقال : طمعت فيها يا عمرو ، ما اراك الا مازحاً نلقاه بجمعنا . ولم يبدأ الحوارج بالقتال يوم النهروان بل دعاهم الى السلام فأبوا الا القتال فأبادهم في ذلك اليوم الا بضعة عشر نفرأ تفرقوا في الآفاق .

ولنختم هذه الكلمة بجماعة خطبة له في حث اصحابه على الجهاد وتوبييخهم على تقاعدهم ومنها : « يا اشباه الرجال ولا رجال ، حاوم الاطفال وعقول ربأت الحجال ، لقد افسدتم علي رأبي بالعصيان والحذلان حتى لقد قالت قريش : ان ابن ابي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب . فله ابوهم وهل احد منهم اشد لها مراساً واقدم فيها مقاماً مني ؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين وها انا ذا قد زينت علي الستين ولكن لا رأي لمن لا يطاع . »

علي أمير الكلام

تحدثنا في مقال سابق عن علي فارس الاسلام ، وتحدث عنه اليوم خطيباً حكيماً ، ولا ريب انه سيد البلغاء وكلامه يأتي في الطراز الاول بعد كلام سيد العرب محمد بن عبد الله . فهو البحر خالياً من الشوائب ، يزخر بالآلى . ويطفح بالدر ، ولكنه الحضم لا ساحل له ، يفضب فيتعالى آذيه جبالاً ، ويزيد فيدوي في الأفق البعيد ، ويطمئن فاذا هر اشراق النهار وظل السماء . يلقي الامام الكلمة الموجزة فتنتشرها فتراها قد انطوت على حكمة الاجيال ومنازة الصلاح في الدنيا والآخرة .

قال في وجوب الاحسان الى الفقراء : من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة . ومعنى ذلك ان ما ينفقه المرء من ماله في سبيل الخير والبر وان كان يسيراً فان الله تعالى يجمل الجزاء عليه عظيماً . وما زاد الشاعر الفرنسي هيغو (Hugo) على هذه الفكرة في قصيدته « من اجل الفقراء » حيث يقول : من يعط الفقير يقرض الله .

وقال في الزكاة : ان الله سبحانه فرض في اموال الاغنياء اقوات الفقراء . فما جاع فقير الا بما مُتّع به فني ، والله تعالى سائلهم عن ذلك .
فما اسمى هذا الكلام ولو عمل به الناس لما استعرت نيران الثورة في البطون الطاروة والصدور الخاوية ، ولذابت المطامع ومات الحسد في

صدور الناس ، فان الارض سخية واكن سكانها امسكوا ، فويل للانسان
من اخيه الانسان ا

وقيل الامام صف لنا العاقل فقال : هو الذي يضع الشيء موضعه .
فويل : فصف لنا الجاهل . فقال : قد فعلت . يعني ان الجاهل هو الذي لا
يضع الشيء . موضعه ، فكان ترك صفته صفة له اذ كان بخلاف وصف
العاقل . وارجح ان ابا الطيب المتنبي التفت الى هذا الكلام حين قال :
ورضع الندى في موضع السيف بالعلي

مُضَرَّ كوضع السيف في موضع الندى
وقد زعم حضرة العالم الكبير مصطفى عبد الرازق باشا في كتابه
« فيلسوف العرب والمعلم الثاني » ان المتنبي اخذ هذا المعنى عن ارسطو .
وقال في الدفاع عن النفس ، وهو البحث القانوني الذي استفاض في
الكلام عنه فقهاء الامس وعلما اليوم : ردوا الحجر من حيث جاء فان
الشر لا يدفعه الا الشر . واورد في شرح هذه الكلمة فقيده الأدب الشيخ
محمد عبده : هذا اذا لم يمكن دفعه بالاحسن .

وقال في حسن الصجبة : من لان عوده كثفت اغصانه . يريك بذلك
ان التواضع يكثر الاصدقاء . فيلتف الاصحاب حول الصديق كما تلتف
الاغصان حول العود الرطب ، وهي تجف وتتساقط اذا يبس العود ، وذلك
شأن المتكبر المزهر بنفسه ، يبعد عنه الصعب فيعمرى .
وقال : احذروا صولة الكريم اذا جاع واللينم اذا شبع . اجل وليس
يجز في نفوس الاحرار مثل عتو اللينم وادعائه ، ان الجبال لا تخف منه على
قلوب الناس . وانت كيفها تأملت هذا الكلام ، قامت لديك الشواهد

على صحته . أو ليس كافر الاخشيدى من استطع الادلة على ذلك ؟ أو
ليس الجزار الذي كان عبداً ذليلاً مثلاً آخر ؟ ولم نعود الى التاريخ لتقييم
الادلة ، ورأي الامام غني عن البرهان على حد قول الشاعر :

كما تريد على مكارهنا ذليلاً متى احتاج النهار الى دليل
سواء ان ما تورد من الامثلة هو فقط من قبيل الشرح .

: انجل احذروا صرامة اللثيم اذا شبع ، وان البصير يتعثر كل يوم بالكثيرين
من حديثي النعمة المترفين . وان اجفانه لتتناذى بمنظر هذه الحشرات الوضيعة
تنظر الى الناس من هل كأنهم في نفق ، وكأنها في طيارة .

وقال في الصحة : كم من اكلة منمت اكلات . واذا انت نظرت الى
المصابين بامراض المعدة وما يتصل بها وما يتفرع عليها ادركت ما تحمل
هذه الكلمة . ولقد كان ابعد الناس عن الشره ، بل كان يجوع فاذا
اكل ترك الطعام قبل ان يشبع عملاً بسنة الرسول . وقد صح جسمه بالتقشف
وكان اصلب الناس عرداً واقواهم ساعداً ، فهو عدو المآذب ينهي عنها
عماله بفتية التمسف والعدل ، فلا يستعبد لهم صاحب الزليمة لمآربه ، ولا
يستطرحهم لاغراضه . ومن كتاب له الى عثمان بن حنيف عامه على البصرة ،
وقد بلغه انه دعى الى وليمة قوم من اهلها فضى اليها :

اما بعد يا ابن حنيف فقد بلغني ان رجلاً من فتية اهل البصرة دعاك
الى مأدبة فأسرعت اليها تستطالب لك الالوان ، وتنقل لك الجنان ، وما
ظننت انك تجيب الى طعام قوم عائلهم مجفراً ، وغنيهم مدعو . فانظر الى
ما تقضيه من هذا المقضم فما اشبه عليك علمه فالفظه وما ايقنت بطيب
وجوهه فنل منه . . . الا وان امامكم قد اكتفى من دنياه بطبريه ومن

طعمه بقرصيه ، ولو شئت لاهتديت الطريق الى مصفى هذا العسل ، ولباب
هذا القمع ، ونسائج هذا القز . ولكن هيهات ان يذليني هواي ويقرديني
جشعي الى تخير الاطعمة ، ولعل بالحجاز واليامة من لا طعم له في القرص
ولا عهد له بالشبع . وكأني بقائلكم يقول : اذا كان هذا قوت ابن ابي
طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الاقران ومنازلة الشجعان ، الا وان
الشجرة البرية اصلب عوداً ، والروائح الحاضرة ارق جلوداً والنباتات البدوية
اقوى وقوداً وأبطأ خموداً ، الله اكبر . *قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم*
ويرسل امام البلاغ . الجملة فتأتي عامرة كأنبازه ، مهيبة كاخلاقه ،
تتأملها فاذا هي حصن منيع للفكرة العالية ، وتحاول ان تبدل شيئاً في
جدار هذا المعقل القوي كأن تضع حجراً في مقام آخر او ان تقدم وتؤخر
فلا تستطيع . وان الواقف حيال هذا البناء . الشامخ كالواقف امام قلعة
بعلبك ، يحاول ادخال المسار بين الصخرين العظيمين فيخفق . ولا يحس
روعة البناء . مثل البناء الحاذق الذي تمرس بالفن وادرك مطاويبه ودقائقه .
وكذلك هو المشي . يدرك متانة السبك وروعة التدبيرة *يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم*
ان يأتي بثانها فيفشل . وانا نورد لك مثلاً على ذلك ، جملة قالها الامام في بعض
ايام صفين وقد رأى ولده الحسن يتشرع للحرب فقال : املكوا عني هذا
الغلام لا يهدني فاني انفس بهذين - يعني ولديه - على الموت لئلا ينقطع
بهما نسل رسول الله . ويريد بقوله املكوا عني هذا الغلام اي خذوه
بالشدة وامسكوه لئلا يهدني اي يهدمني ويقوض اركان قوتي بموته في
الحرب ، ونفس به اي ضن به على الموت . وهذا هو علي الكلام ،
وهذا نهج البلاغة . *قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم*

ولا اعتقد ان بليغاً رصين القلم مشرق الديباجة الا تسربت اليه البلافة
من القرآن الكريم او كلام النبي او علي بن ابي طالب . فمن لم يتلمذ له
فقد اخذ عن تلاميذه
وقد عظم بعضهم امر الجاحظ فسماه شيخ كتاب العرب . وفي
الحقيقة انه كاتب المعني وله في كتاب الحيوان مثلاً مزية الدقة في الوصف
مع إحكام وبيان نضير . ولكننا سنورد لك مقطعين ماخصين يدلان على
طريقة الإمام في الوصف فتلمس الفرق بين سيد البلغاء والكاتب البليغ .
وانا نتخذ لهذا التمثيل حيواناً دميماً هو الخفاش وطائراً جميلاً هو الطاووس .
فمن قوله في الخفاش : ومن لطائف صنعة الله وعجائب خلقته ، ما ارانا
من فواض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل
شيء . ويبسطها الظلام القابض لكل حي ، وكيف عشت امينها عن ان
تستمد من الشمس المضيئة نوراً تهدي به في مذاهبها ، وتتصل بعلائية برهان
الشمس الى معارفها ورددتها بتأولؤ ضيائها عن المضي في سبحات اشراقها ،
ولكنها في مكامنها عن الذهب في بلج ائتلافها . فهي مسدلة الجفون
بالنهار على احداقها ، وجاعلة الليل سراجاً تستدل به في التماس ارزاقها ، فلا
يرد ابصارها اسداف ظلمته ، ولا تمتنع من المضي فيه لفسق دجنته . فاذا
القت الشمس قناعها ، وبدت اوضح نهارها ودخل من اشراق نورها على
الضباب في اوجارها ، اطبقت الاجفان على ما فيها وتبلفت بنا اكدتبت من
في ظلم لياليها . فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً والنهار سكوناً
وقراراً ، وجعل لها اجنحة من لحمها تمرج بها عند الحاجة الى الطيران ،
كانها شظايا الآذان ، غير ذوات ريش ولا قصب الخ

٣

على الزاهد المتصوف

تحدثنا في المقالين الماضيين عن علي فارس الاسلام ، وسيد البلغاء . اما اليوم فاننا نتحدث عن الرجل المثالي ، الذي علمت اخلاقه فلم يلتحق بها العبارة ، ولا اعتلقت بها ادران الناس ، فاقد جاء الدنيا عارياً وخرج منها عارياً الامن الفضل والذكر الخالد .

فمن آيات عدله ان اخاه عقيلاً قدم عليه بالكوفة فشكا اليه قلة ماله ، وذكر عسرته والتنمس المعونة . وكان علي اذ ذاك امير المؤمنين وهو المولى المطاق والسيد في مال المسلمين ، لا رأي مع رايه ولا رقيب عليه . فقال علي : والله مالي مما ترى شيئاً الا عطائي ، فاذا خرج فهو لك . فقال عقيل : ار ترى شخصي من الحجاز اليك من اجل عطائك وماذا يبلغ من حاجتي ؟ فقال علي : هل تعلم لي مالا غيره ، ام تريد ان يحرقني الله بنار جهنم في صلتك باموال المسلمين ؟ قال عقيل : والله لا اخرجني الى رجل هو اوصل لي منك ، يريد بذلك معاوية . فقال له : راشداً مهدياً . فذهب الى معاوية ونال منه ثلاثمائة دينار .

وقد اشار الامام في بعض خطبه الى تخوفه من نار الجحيم لو ظلم احداً

او فرط في مال المسلمين . وذكر كيف كان يرفض الصلوات بعزة وابهاء فقال
 في خطبة له : *يا ايها الناس ان الله خلقكم من طين*
 والله لقد رأيت عقيلاً وقد ألقى حتى استأخني من برم صاعاً ، ورأيت
 صبيانه شعث الشعور غير الالوان من فقرهم ، فاحميت له حديدة ثم اذنيتهما
 من جسمه ليعتبر بها ، فضج ضجيج ذي دنف من ألمها وكاد ان يحترق من
 ميسمها ، فقلت له : *تسكتك الثواكل يا عقيل ، أنثى من حديدة احماها اذان*
للمبه ، وتجريني الى نار سجرتها جبارها لفضبه . . . واعجب من ذلك طارق
 طرفنا بلغوفة في وعائها ، ومعجونة شنتها كغنا عجنت بريق حية او قيشها فقلت :
 أصله ام زكاة ام صدقة ، فذاك محرم علينا اهل البيت ، والله لو اعطيت الاقاليم
 السبعة بما تحت افلاكها على ان اعصى الله في غلة اسلبها جلب شعيرة ما
 فعلت ، وان دنياكم لأهون عندي من ورقة في فم جرادة تقضمها .
 وقد بلغ علي من الزهد والتصوف ما لا تبلغه الا النفوس العالية التي
 انساخت عن عالم المادة وتبرأت من الدنيا العرور ، فجوها غير هذه الاجواء التي
 نعرفها ، وطعامها من غير الطعام الذي نعلم ، فهي تردري الترف وتهزأ
 بالابهة . وان هذه الصوفية التي مبعتها القلب وحب الاتصال بالله هي الافق
 العالي الذي تطلع اليه ابطال العالم عندما ملّ الانسان هذه الارض فرفع
 بصره الى ما فوق . *كثير ما كنت في بلاد ارضها لفتة كريمة قداسا*
 والى هذه الصوفية تطلعت الهند واليونان ، واليهما اشار الناصري في
 خطبة الجبل فحجّب الى الناس الفقر ليذل الرومان المترفين ، وحجّب الى
 العالم الجوع النفساني ليبيد النخمة في جسم الحيوان . وعلم الناس التواضع
 ليضع المتكبرين الذين اصلهم من التراب والى التراب يرجعون . اجل هذه

هي الصوفية التي انبثت اغوستينوس وباسكال وتوما الأكويني وتيريز
داقيل (Thérèse d'Avila) وابن الفارض . هذه الصوفية نفسها التي
وجهت هنري برغسون اكبر فلاسفة اوروبا في القرن العشرين الى محجة
الصواب ، الى الله ، اطلت من خلال مدرسة الصوف التي كان يلبسها شيخ
الزهاد علي بن ابي طالب .
وروي عنه انه لما خطب الناس بالكوفة نصبت له حجارة وقف عليها
وعليه مدرعة (وهي قيص ضيقة الاكمام) . وكانت حمائل سيفه من ليف ، وفي
رجليه نعلان من ليف وكان جبينه ثغنة بعير (والثغنة هي ما يمس البعير من
الارض عند العرء) . وكان يكتبني بقرصين من خبز الشعير طعاماً ويفردو فيكر
على الكتابب يمزقها بسيف سله الله نصرة للحق على الباطل ، وهو اجل
سيف في قریش بل اجل سيف طلعت عليه الشمس في جزيرة العرب .
ويروي انه لما تزوج فاطمة لم يكن لديه سوى جلد كبش يتخذة فراشاً
وقطيفة يتخذها غطاء . وليس لديه خادم .
وقال علي : لقد رأيتني مع رسول الله واني لأربط الحجر على بطني من
الجوع .
ومن خطبه في التقوى والزهد قوله : الغاية امامكم وان وراكم
الساعة تحذوكم تحففوا تلحقوا وانما ينتظر باواكم آخركم .
وانفس ما في الكلمة قوله بعد تذكير الناس بالموت والحساب : تحففوا .
فقد حملت هذه اللفظة سيلاً من المعاني ، اي لا تثقلوا نفوسكم بالشهوات
واباطيل الدنيا فترهقكم بانقالها ، بل طهروا ضمائرکم واعسلوا قلوبكم من
ادرائها واسعوا الى الآخرة خفافاً . والى هذا المعنى قصد الناصري له المجد بقوله

لشيخ اليهود : الحق اقول لكم ان لم تعودوا مثل هؤلاء الصغار - يريد بذلك طهر الطفولة - فلن تدخلوا ملكوت السموات .

ومن كلامه في ذم الدنيا قوله : ما اصف من دار ارها عنا . وآخرها فناء ، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب . رنق مشربها ردع مشربها يونق منظرها ويوبق مخبرها ، غرور حائل وظل زائل ، فانظروا اليها نظر الزاهدين فيها ، الصادقين عنها ، فانها والله عما قليل تريل الثاري الساكن وتفجع المترف الآمن ، لا يرجع ما تولى منها فادبر ، ولا يُدري ما هو آتٍ فينتظر .

وقد ابت الاقدار الا الكيد للرجال ، فان هذا الرجل العظيم الذي يتعذر ان تجتمع صفاته لرجل ، ولم يثبت امامه شجاع في ميدان الوغى ، قتل بسيف اللعين الغادر عبد الرحمن بن ملجم صبيحة يوم الجمعة ، لعشر ليال بقين من رمضان سنة اربعين . فلما سجد علي للصلاة وثب عليه وضربه علي قرنه بالسيف فقال علي : فزت ورب الكعبة ، ثم قال : لا يفوتكم الرجل ، ووثب عليه الناس فأخذوه . وكان ابن ملجم يعرض سيفه فاذا اخبر ان فيه عيباً أصلحه . فلما ضرب علياً قال : لقد احدثت سيفي بكذا وكذا وضربت به علياً ضربة لو كانت باهل المصر لأتت عليهم . وادخل ابن ملجم علي علي فقال : اطيبوا طامه والينوا فراشه فان عشت فانا ولي دمي اما عفوت واما قصصت ، وان مت فالحقوه بي ولا تعتدوا ان الله لا يحب المتدينين . فانظر الى علي يأبى - وهو على فراش الموت - الا اقامة حدود الله فلا يأخذ العقب ولا يشيره السخط فيعجل بالانتقام . ورجح بعضهم انه لو عاش لعفا عن النكس الغادر . وبما جاء في كلامه قبيل موته

قوله : رب رحيم ، ودين قويم ، وامام هليم ، انا بالامس صاحبكم وانا
اليوم هبة لكم وغداً مفارقكم غفر الله لي ولكم . . . وانا كنت جاراً
جاورك بدني اياماً وستعقبون مني جثة خلا . ساكنة بعد حراك وصامتة بعد
نطق ، ليعظاكم هدوي وخفوت اطرافي وسكون اطرافي .

ومن وصيته لولديه اذ حضرته الوفاة : اوصيكمما بتقوى الله . لا تبغيا
الدنيا وان بغتكمما ، ولا تأسفا على شي . منها زوى عنكما وقولا بالحق واعملا
الأجر ، وكونا للظالم خصماً وللظالم عوناً .

وقال في حق قاتله : انظروا اذا انا مت . من ضربته هذه فاضربوه
ضربة بضربته ولا يمثل بالرجل فاني سمعت رسول الله يقول : اياكم والمثلة
ولو بالكتاب العقور .
الآن اكرم الله وجه الامام الاعظم الذي مسل سيفه في نصرة الحق فكان
بطلاً لا يدانيه في شجاعته احد ، وتمعد وتصوف فكان كعبة لتقوى
ومنارة للصالح ، وخطب وعلم فكان سيد العلماء وسندرة الفصاحة . ان
ابن ابي طالب كان وسيبقى انشودة الغز في فم الاجيال .

اللغة

يولد الانسان نزاعاً الى النطق كما يولد البلبل وفي لهاته طبيعة التغريد ،
على فرق بينهما في النتائج . فان عنادل الارض جميعاً تصدح بنغم واحد لا
يتبدل بتبدل الزمان والمكان ، ولا تتأثر بحكم البيئة والتطور . ذلك
لأن لغة الطائر هي لغة الطبيعة وحدها ، اما لغة الانسان فهي لهجة الطبيعة
والمواضمة معها . ولا ريب ان لغة البشر كانت في الاصل وليدة الطبيعة
وحدها فلم تتجاوز الاشارات ، يتفاهم بها الناس قبل فجر التاريخ ، ثم نمت
فروع هذه الشجرة وبسقت خلل العصور حتى شهدناها اليوم وغصونها تكباد
تنوء بثرات الاجيال السالفة . وقد زعم بعضهم ان اللغة بدعة متأخرة فقد
اتى على الانسان حين من الدهر لم يحرك فيه اساناً ، ثم فوجئت الدنيا
بعقري وضع لغة فاولاها على جيل من الناس فنطقوا بها . ولكننا نسأل
القائلين بهذا الرأي : اي امتياز حوّل نابتهم هذا قوة الخلق فارتجل اللغة
ارتجالاً؟ بل كيف استطاع إفهام معاصريه لهجة لا عهد لهم بها او بما يشاكلها؟
وزعم آخرون ان الله علم الانسان اللغة لانها اداة الفكر ووسيلة اظهاره
مباً فلا ريب ان يتدهها امي فكراً واوسع بصيرة من الخافقات، ويحتجون
لذلك بما ورد في الكتب المقدسة . ولو صح هذا الزعم لوجب ان تكون
اللغة ترفيقية اي منزلة لا يمتريها نقصان ولا زيادة . وليس الواقع كذلك
لأنها خاضعة لسنة التطور ، وان رجال الدين انفسهم يحملون ذلك على محمل
الوحي باعتبار ان الخالق فطر الانسان ورأس فيه قوة العقل واعدته للنطق ،
لانه ألفت حروفاً ودفعا الى البشر لينطقوا بها شأن المنلم مع التلاميذ .
وبديهي ان الانسان ولود اجتماعي لا يكتبني بالتفكير والحس ، بل

يود الاتصال بنظرائه فيفضي اليهم بمشاعره وافكاره ، ولقد تعذر عليه ابراز
 الفكر بنفسه فبهر عنه بالايماء . ثم بالنطق .
 ولا ريب ان الانسان الاول كان يعيش عيش الضواري حسبه ان يدفع
 الجوع بما تصل اليه يده من النبات والحيوان ، واكفنه اضطر للخروج من
 هذه العزلة فتكاتف مع اخوانه البشر . وكان لا بد له من التفاهم مع
 انداده فاستجالت هذه الرغبة فيه اشارة فصوتاً فكلاماً . فعمد الى الاشارة
 اولاً كما يفعل الاخرس اليوم ، وقد كانت الاشارة قبل اللغة جبراً تعبر عليه
 فكرة شخص الى ذهن آخر ، وكانت هذه الوسيلة ادنى درجات السلم في التعبير .
 وخطا الانسان بعد ذلك خطوة في التطور فتنبه الى اصوات الطبيعة
 والحيوان فحاكاها . ولقد هزيم الرعد ، وصهيل الجراد ، وعواء الذئب ،
 فنجم عن هذه المحاكاة ما يسمونه حكاية صوت . وان في الالة العربية
 اسطع الادلة على صحة هذا الرأي . فاذا عمدنا الى فعل القطع مثلاً نرى
 الانسان في الطور الوحشي يسمع حزة في جذع يقطع فيقول حز ، فاذا كان
 المقطوع جسيماً صلباً سمع صدى البت فيقول بت ، او القص فيقول قص .
 ولا يمنع بعد ذلك مانع من الزيادة في هذه الاصوات زيادة اصطلاحية
 يرافقتها معناها الطبيعي ، فيزيد في حز حزم ، وفي بت بتة ، الى آخر الباب .
 ولا يقف التواضع عند هذا الحد بل يتعداه الى القلب والابدال فتقول
 في بت ، تب ، وفي بتة ، تبر . وهكذا ترى الانسان ينمو وتنمو معه
 الالة فتسع بقدر رغباته وتنفرع بتنفرع اشياؤه ، فلقد كانت بسيطة يوم
 كان عيشه كذلك . الا ترى ان الانسان لو اكتفى بالعبادة مثلاً جعلها
 كساء يتقي به البرد ، ونشرها مظلة يدفع بها حر الشمس ، واتخذها

لحافاً دون الصقيع ، وفراشاً يقيه وخز الشوك وسمى كل ذلك عبادة .
 فلما تعددت الاشياء فصل لها الأسماء وشتها من مصادر قليلة فتكاثرت
 فروعها حتى جاوزت الالف .
 ومن المؤسف ان نكون نحن الناطقين بالضاد اقل تطوراً من الاجداد
 السابقين ثم نباهي العصور بالمدينة والرقمي . فلقد ألت اصحاب المعاجم
 معاجمهم في العصور الوسطى ، وجمعوا فيها ما تداولته الالسنة قبلهم ، ثم
 جاء خلفاؤهم فاقصروا على النقل واغلقوا على انفسهم وعلينا الباب ، واقاموا
 سداً بين اللغة والحياة . وقيل لنا اسجدوا لهذه الاصنام من الكتب ولا
 تدروا اليها يداً ، وحسبها مجداً ان الغبار تراكم عليها فهي عريقة في القدم .
 وقولك هذا كقولك ان يريد ركوب الطائرة : دونك الجواد فلقد كان
 هذا مركب الاجداد منذ القدم ، فلا بأس عليك ان تكثفي به اليوم .
 ولو عاد الجرهري والفيروزابادي واضرابهم الى الحياة لحذفوا من معاجمهم
 ما كفته البلى بكفن النسيان ، وادخلوا فيها ما يجري على الالسن صباح
 مساء ، فيحذفون منها مثلاً الصلقم والشندخ والدرباس ومئات من
 امثالها من اسماء الاسد ويكتفون بالليث والزئبال .
 ولقد بلغت اللغة العربية ما بلغت من الضيق والجحود في العصور الاخيرة
 بكسل ابنائها وجورهم عن مسايرة العمران وضياع المجامع العلمية بين :
 « هكذا وردت ، ولم ترد كذلك » و « زعم الاخفش وخالفه ابن مالك »
 الى آخر الباب . على ان هذه اللغة هي لغة الموسيقى والخيال ، وحلية الفن
 والجمال ، بها نزل القرآن الكريم ، وبها جرت اقلام المهسين ، ولكن
 ابنائها حنطوها وسيجوا من حورها وقالوا لها نازعي هنيئاً . وانك لو عمدت

مثلاً الى معجم فرنسي يضم بين دفتيه عشرة آلاف لفظة فانك لا تجد فيه
لفظة واحدة كررت مرتين في المعنى الواحد . فاذا ترجمت مفردات هذا
المعجم الى اللغة العربية ، فان الالفاظ العربية لا تتعدى الالفية لفظة ،
والسبب في ذلك هو استعمال الكلمة الواحدة خمس مرات لمعان مختلفة .
وقد ذكرني هذا بنادرة : فان احد الظرفاء زعم انه يستطيع تكلم اللغة
الانكليزية اذا عرف منها خمسين لفظة . فمثل ايضاح ذلك فقال : انه
يستعمل الكلمة الواحدة لمعان عديدة ، فاذا اراد ان يدعوا لعرفته شخصاً
قال له : « كم هير » . واذا شاء صرفه ذهب هو الى الباب وقال له :
« كم هير » . اما نحن فقد نهجنا نهج هذا الظريف تقريباً بتسمية الاتوموبيل
سيارة ، والسيارة مؤنث السيار وهي لفظة عامة ينطوي تحتها كل ما يسير على
الارض وما يجري على الماء ، ويمكن اطلاقها على السفينة وعلى القافلة ،
والقافلة تعني المتعدد ويقصد بها الرفقة المسافرة او الراجعة من السفر .
وفي هذا المعنى استعملها القرآن الكريم اذ ورد في سورة يوسف :
« وجاءت سيارة فارساوا واردم فأدلى دلوه وقال يا بشرى هذا غلام
واسروه بضاعة والله عليم بما يعملون » . وانما اللفظة كالمواة ينعكس عليها
العقل وتدل على حضارة الشعب واخلاقه ومبلغه من الرقي او الاخطاط ،
ولذلك قال افلاطون : « تكلم فاعرف من انت » . والالفاظ مراكب
العلم ، ولباس الفكر ، ترتكز فيها الخاطرة السانحة فتصبح الكلمة حصناً
لها . واكثنا تزيد الكلام حصوناً للفكر لا سجوناً واغلالاً . وقد تسي .
الالفاظ اساة عظمى الى الفكر اذا هي لم تخرجه صافياً فابرزته مشوهاً او
مشبوهاً ، وتضر بالسامع ضرراً بالغاً .

ويدخل في هذا الفصل الامثال الكاذبة والارغام الموروثة التي تتناقلها
 الغرغاء بدون ما تبصر، ولقد اسماها الفيلسوف باكون (Bacon) : اصنام
 الساحة العامة . وحسبها من الصنمية ان تكون هذه الجمل قديمة العهد
 او مستحدثة وعليها طلاء من الخلابه ، او رنة من الموسيقى ، لتخرج عن
 حيز الجدل والمناقشة وتغدو صاحبة العصمة . الا ترى انك لو وقفت على ساحة
 الهرج مثلاً وهتفت ثلاثاً باسم الحرية ، لتألب الناس عليك ومشوا وراك لا
 يملون لماذا او الى اين ، وانما سحرتهم لفظه لها مئات المعاني . ونحسب
 ان عقلنا يتحكم بالكلام ، وانما الكلام هو الذي يقود العقل في مثل
 هذه الاحوال . وكثيراً ما تباين المعاني بتباين العقول ، فيحملها سامع على
 محمل ، ويفسرها غيره تفسيراً آخر ، وفقاً لقابلية الاشخاص وميولهم ودرجة
 ثقافتهم . واذكر انه عندما هوى عبد الحميد عن العرش وتبوأ حزب تركيا
 الفتاة مقاعد الحكم ، نودي بالحرية ، فحملها المثقفون على انها سقوط
 الاستبداد واعادة الدستور ، اما الرعاع وسفلة الناس فحسبوا الحرية انطلاق
 الايدي بالسلب والقتل وهتك الاعراض وما يتصل بذلك من الموبقات .
 وان لغات الارض جميعاً لتضيق عن الفكر فلا تنقل عنه الا بعض
 الرموز ، لان الفكر من معاني الروح ويقصر الكلام من تجسيدها ، فيعتمد
 الى التشبيه والمجاز ، ولا ينتقع ذلك من غلة الصادي الا قليلاً . فلو فرضنا
 انك حزنت امس وحزنت اليوم فانك تعبر عن الآسى في الحالتين بما يتشابه،
 او تضيف الى ذلك عبارة اكثر او اقل ، أو اخف او اشد ، ويتعذر عليك
 ابراز الفكر تاماً كما تهزز صورتك في المرآة . وأظهر صفات الاناث وضوحها ،
 وافضل اللهجات اقربها الى تسادية الفكر وصفاء التعبير . وينطوي تحت

هذه الصفة الإيضوح والدقة والحياة والانسجام . ومنذما اعرض للإيضوح والسهولة أرتئي أطلاب اللغة العربية في ما يجتازون من المسالك الوعرة في دراسة قواعدها . فحبذا لو سهلت هذه الأصول بدون ان يمس جوهر اللغة ! واني لموقن ان الارض لا ترتزل اذ ذاك زلزالها بل يقبل الطلاب على اللغة بحماسة واهجاب اذ تلقي عنها اسمالها .

وماذا يضير اللغة مثلاً لو جعلت حركة عين الفعل المضارع واحدة في جميع الافعال ؟ وهل يحتل نظام الشمس اذا صرفنا هذه المنزهات من الصرف ؟ ولم يجوز للشاعر صرفها ويمتنع ذلك على الناثر ، راي خلل بالمعنى يلحق من جراء ذلك ؟ وهمزة « إن » هذه الهمزة التي تقف في وجه المتكلم وقوف الشحاذ بباب الفني الشحيح ، فتكون مفتوحة في مواضع ومكسورة في مواضع اخرى ، ويجوز الوجهان في بعض الحالات ، فهل يجف البحر او تكسف الشمس اذا جعلت مفتوحة او مكسورة اطاراداً ؟ وقد اشرنا الى ذلك من قبيل التمثيل لا من قبيل الحصر . هذا فضلاً عن الشواذات وصعوبات النسبة والتصغير وجوع التكسير ، وهذه الجموع تداني حركة عين الفعل في الصعوبة والثقل ، فتقف الاختان في طريق الطالب ، وتدفعان به الى الفياهب والشعاب ، فيعود منها حافي القدمين مدمى الرجلين ، يتقطر من جبينه العرق البارد .

واخيراً اننا ندعو الجامعات العلمية وحكومات الاقطار العربية الى الاهتمام بشأن اللغة ، ورفع دولة القلم الذي به افتتح القرآن المجيد فترات هذه الآيات الخمس من سورة العلق : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لا يعلم » .

خواطر في الأدب

أصعب الصعوبات الخلق ، ذلك أمر لا ريب فيه ولا جدال . ومن هنا أدرك الانسان عظمة الخالق الذي أبدع كل شيء . من العدم فكان الكون . ويأتي البناء في الدرجة الثانية من سلم الصعوبات لان في البناء ايضاً شيئاً من الخلق ، ولكن الانسان لا يخلق من العدم بل يكتيف المادة التي بين يديه وفي هذا التكييف نفسه خلق . فبقدر ما يظهر الفن في البناء يكون الاعجاب بالباري . فاذا تأمل المتأمل قلعة بعلبك ، او اهرام الجيزة او اطلال تدمر ، وما شابه ذلك من الآثار الناطقة بعظمة أصحابها ، أخذته الدهشة وسبح خياله في الماضي البعيد ، يستطلع المدة التي استغرقتها البناء ، وما انفق فيه من المال وما سح من عرق العسال ، وما ركزه ارباب الصناعة في الصخور الجلاميد من الفن والجمال . كل هذه الامور وما اليها من الحواشي تدلك على صعوبة البناء . أما الهدم فما أسهله ! عمل سنة تستطيع تدميره في يوم واحد . هذا بقطع النظر عن الطاقة الذرية التي تدمر في لحظة ما بناء الانسان في أجيال .

ولا يشابه الطاقة الذرية في عالم التهديم إلا النقاد في عالم الأدب . فقد سميت واحداً منهم يصدر حكمه الارتجالي على كتاب نفيس ، أجزم انه لم يقرأ منه كلمة واحدة . وقد استظهرت هذا الحكم ، ولا تخف بقوة حافظتي ، فالحكم آية الآيات في البلاغة والاختصار . قال حفظه الله :

ان الكتاب سخيف .

كان ذلك في مجلس ضمّ رهطاً من الموسومين بسمة التأديب ، ولكن واحداً منهم لم يرفع إصبعه معترضاً ، لان القائل يتمتع بشهرة عريضة ، فكأنهم وقعوا معه الحكم بالموت على رجل لم يجترح جرماً . ومن المؤلف أن تنظر الى القائل لا الى المقول . ويذكرني ذلك بنادرة وقعت منذ زمن غير بعيد ملخصها :

إن امرأة أرملة لها ولد وحيد دخل الرهبانية فعاب عن أمه خمس عشرة سنة تلقن في اثنتائها العلوم العالية ففدا من المجاين في الخطابة والوعظ . وعاد الى زيارة امه بعد هذه المدة الطويلة وقد سبقته اليها شهرته في الخطابة فسرت الوالدة سروراً لا حد له ، وطلبت منه بعد الغداء أن يسمعها عظة دينية تفرح قلبها ، وانها احق الناس بدعاها لانها أمه ولانه وحيدها . فحاول الابن العالم إقناعها بان العظات لا تلقى إلا في الكنيسة ، فأبت وألحت فنهض الخطيب وتظاهر بالجد وبدون ان يضحك صاح بصوت جهير :

الحيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
فا ان اكمل هذا البيت حتى ابتأت جفون الوالدة بالمعرات وهتفت بصوت متهدج قائلة : ما احسن كلام الرب ! اذن فالقيمة للقائل لا للمقول في ذاته .

والنقد أيسر الطرق لبوغ الشهرة في هذا البلد . ولا عجب فانه من قبيل كسر مزارب العين . وفي الغالب ينهري لنقد الشعراء متأدون لا يعلمون من الشعر الا انه كلام ، ووزون مقفى . ولكنهم يجهلون الوزن والقافية

ويمعزون عن نظم بيت واحد .
 قد يعترض معترض فيقول : لا يشترط في ناقد الشعر أن يكون شاعراً
 فان معظم الكتاب الاوروبيين الذين يتصدون لنقد الشعر لا ينظرونه .
 أجل ! ولكن بين شعر القوم والشعر العربي فوارق عديدة إن من جهة
 تعدد الابجر ، وان من جهة القافية التي تتكرر في القصائد العربية فلا
 تضيق بنات الابيات ، وانما القافية عماد الجرس عندنا ، وجل ما يستطيعه الناقد
 غير الشاعر أن ينظر الى المعاني . ولكنه يتخبط كثيراً عندما يحاول نقد
 البناء الشعري لانه لم يتمرس بهذه الصنعة ، ولكن من تمرس بها يعلم
 أن تلك اللفظة ، في ذلك البيت لا تقرم مقامها لفظة اخرى ، ان هي ادت
 معناها جنت على الوزن والموسيقى . ولا يجب أن احد انه يمكن الاستخفاف
 بالديباجة ، فكما انه يتعذر فصل البياض عن الثلج ، والطر عن البنفسج ،
 فكذلك يتعذر فصل اللفظة عن معناها الذي حلت به عندما تكونت في
 ذهن الشاعر . ولا بأس علي أن اوضح هذه الفكرة بثل :

روى لي احد اصدقائي الادباء ان زجالاً في اميركا بعث بتصيدة
 زجالية الى نسيب له وفيها ذكريات الطفولة وتشوق الرجل الى الارض التي
 شهدته صبياً ، وقد ذكر ختاماً لقصيدته أمه التي ماتت أثناء غيابه فقال :
 « ويبوس ارض المرّ فيها خيالها » . فلو انك حاولت ايراد هذا المعنى بالفاظ
 فصيحة لقات :

أقبل ارضاً مرّ فيها خيالها
 بدون زيادة ولا نقصان . ولكن ألا ترى انك افقدت العبارة العامية
 رونقها بهذا الابدال فسقط جرسها لان موسيقاها قائمة بنسكين الالفاظ ؟

هذا مثل من مثات الامثال يدل على الفرق بين تركيب وآخر. بقي ان نوضح ان الكثيرين من نقاد اوروبا قد حاولوا الشعر فلم يفلحوا فصرفوا جهدهم الى النقد ، وانما افادوا من ترسمهم بالنظم واحاطوا بنجفايا الصياغة الشعرية فجاء رأيهم جديراً بالاعتبار فضلاً عن انهم قلما نقدوا الفن الشعري نفسه الا من كان منهم في طبقة قالري (Valéry) وملازمه (Mallarmé) وننصح للناقد ان يبني كوخاً يقيه المطر قبل ان يعمل على تهديم قصر فخيم يبقى حروماً على الرياح الزغازع .

وقد لفت نظري في الآونة الاخيرة تسابق الشعراء الى امارات والقباب . ويظهر ان الالقاب الضخمة في الشرق تستهوي طبقات الامة جميعاً وفي جملةهم الشعراء . فاذا لم يأتيهم اللقب هدية يخلمها عليهم صحفي او متظرف او زميل كريم ينتظر المقابلة بالمثل سعوا بانفسهم الى اللقب فهموه في اذن من يذيعه في الناس ثم تتداوله الالسن حتى يكاد يدون في اوراق هويتهم ، وهكذا يصبح حقاً مكتسباً يصب انتراعه بنير قوة السلاح .

وعن هذه الاسباب وما جرى مجراها صدرت ألقاب كانت من قبيل لزوم ما لا يلزم ، منها المشهور ومنها المحلي الذي جاء بسبب وزال بزواله . واعرف نفرأ من الزملاء الكرام لا يكتبون باللقب تصدر به مقدمات قصائدهم فيضعون بخط يدهم مقدمات طافحة بالنعوت اللعاعة . ويذكرني ذلك بنادرة وقعت لاحد شيوخ الادب اذ كتب الى احدي الجرائد كلمة مضمونها نمي خالته . وكأنه لم يتكل على صاحب الجريدة بانشاء عبارة التعزية فكتبها هو بعد ان حوَّط اسمه الكريم بتعويذة من الالقاب الضخمة فكان ناعياً معزياً مقرظاً في وقت واحد .

وقد خطر لبعضهم ان تكون للشعر اداة ولكن اسئلة عديدة تتبادر حينئذ الى الذهن حول الساطة الحكيم ، اترها الفرد ام الجماعة ؟ فاذا كان الفرد فن هو ذلك المقرر الذي يبرم حكمه فلا تهب الضجة ولا تقوم القيامة ؟ واذا كانت الجماعة فهل في وسعها ، واكثريتها تتألف من أميين وانصاف أميين أن ترفع بأبصارها الى الاجراء العلى التي يسبح فيها الشاعر فتصدر حكماً له او عليه ؟ وانما رأي الجماعة في الشاعر يدل على انحطاط مرتبته . وهل في الشعراء أدنى من الذين يسبقهم الجمهور الى القافية بينما هم يلغون القصيدة ؟ بقي ان نتخذ الفئة الراقية للنظر في هذا الامر ولكن الفئة الراقية نفسها لا تستطيعه . فليس للعلماء او المؤرخين او اصحاب المهن الحرة او رجال السياسة رأي في الموضوع ، بل ليس للكاتب النابيين او الادباء العالميين أمثال الدكتور طه حسين أن يتولوا هذا الشأن .

اذن فالكلمة للشعراء وحدهم في اختيار أميرهم . ولكن بين أوف النظامين في البلاد العربية من هم الشعراء ؟ وهب اننا بلغنا بعد الجهد الكثير والغربة الدقيقة عتبة الاولمب واتفقنا على عددهم واسمائهم ، فهل يتم الاقتراع على الامارة سرّاً او علناً ؟ وهل تتساوى الاصوات في كفة الميزان ، وبين هؤلاء المقترعين الذين يتوهمون انفسهم انصاف آلهة - والكبرياء . ذاء الشعراء - من تراه يتنزل لسواه ؟ أيجل عليهم الروح القدس وبلاشون خيلاً . هم ويستهدفون الحق وحده ؟ ثم ان اصحابنا الميامين ينتمون الى أقطار مختلفة وإن تأخت ومشت تحت لواء الضاد . فهل تتنازل مصر مثلاً لأديب من الكويت ولو كان أشعر أهل زمانه ؟

أنتخاب الكويت الصغيرة على بلاد النيل والنخيل والاهرام وأبي الهول ؟
وترى أكثر الشعراء مصابين بمرض الادعاء ، فإذا اجتمع نفر منهم في
نادٍ أو سهرة تناشدوا القصائد ، وجمال بعضهم بعضاً ، وقد يتجاهلون
على الغائبين ويرمونهم بجراح النقد . ولكن إذا جرؤ احدهم فنقد مخاطبه
قامت القيادة ، فكل واحد منهم متحصن في برج عاجي تتراقق عنه السنة
النقاد الى جهنم

وفي الحقيقة ، ليس سوى الزمن يعين لكل عصر أميره . أجل ان الزمن
اقام شكسبير أمير شعراء الانكليز ، كما عين من قبله هرودوتس أمير
شعراء الاغريق . ان الحسد والاحقاد والمجامة تذوب في بوتقة الزمن ولا
يبقى سوى الحقيقة ، كما تذوب رقائق الغمام التي تجيب الشمس حيناً وترقى
الشمس وحدها ساطعة .

ثم أو ليس في لقب « شاعر » وحده عزُّ اصاحبه وهو في
مفهوم الامم الراقية صلة الانسان الغاني بالخلود ؟ ولا يقتصر هذا الفخر على
الشاعر نفسه بل يتعداه الى أمته ، وطال ما باهت قبائل العرب بشعرائها . ولا
يقولن أحد ان ذلك التفاخر لم يجاوز جاهلية القوم اذ كان الشاعر خطيب
القبيلة ومؤرخها ومحاميها ورئيس وفدائها الى الملوك وناشر مجدها . ان
النفوس البشرية لم تتبدل ، وهي لا تزال هائمة بالجمال ، تواقفة الى الخلق ،
مأخوذة بالعبقرية برغم طغيان المادة . ألا ترى ان بريطانيا العظمى نفسها ،
وهي الدولة التي تدير دفعة الاقتصاد في جنبات المعمور لا تزال تدين بالروحانيات ،
فإذا انت خيبتها بين التخلي عن شكسبير أو الهند ، تخلت عن الهند .
اجل انه شرف عظيم للانسان ان يكون شاعراً فلا يضيره تهكم الاغنياء .

المتحجرين ، او التجار الناطقين بلغة البضائع ، او الرجعيين المسترقين ، او السياسيين الذين نذروا انفسهم للاختل والمين ، والترابين الذين يقطعون الحياة منكسي الهام لا أفق لهم إلا الرغام .

ومن سوء حظ الشعر في البلاد العربية انه ابتلي بفئة من النظاميين او المأفوزين الذين يتظاهرون بالشذوذ وغرابة الطبع حاسبين الشذوذ صفة مكتملة للشاعر . ولقد اسأروا الى انفسهم والى الادب أيما اساءة ، وانطلقت الألسنة تسخر بهم وتلبسهم غريب النعوت . وان الفرق بين هؤلاء المهودسين والشعراء ، هو فرق ما بين المهرج المتبذل والثابتة مولير (Molière) .

بقي ان اختم هذا البحث بكلمة حول الغزل القدر الذي لا يتورع عنه كثيرون من الشعراء . فاذا قام لواضي القصص البذيئة شبه عذر - لانهم يضعون لغاية تجارية - فأني عذر يقرم للادباء ، اذ يرسمون الصور المخجلة في قصائدهم ويحسبونها جمالاً ؟ واين الجمال في هذه الوثبات العاطفية التي تسمم العقول ؟ وان مدلول لفظة الادب تعويلاً لا يقتصر فقط على العلوم والمعارف ، بل يتناول التهذيب ايضاً ، فأين هو التهذيب في الغزل القدر ؟ لا ريب ان الله أودع البشر هذا الميل الجنسي وسيلة للتناسل والنمو ضمن دائرة النظام . فن سمح للشعراء باطلاق هذه الحيوانية المقيدة وتسميتها أدباً تطالعه بناتهم قبل ابنائهم ، واخواتهم قبل اخوات غيرهم ، وأزواجهم قبل الجميع ؟ ولو شئت ان استشهد لاستشهدت بألوف الابيات من هذا الغزل المريب ، بل لدلت النيبانة العامة على هذه الجرائم التي ليست من الغزل بشي . ، ولكنها وصف دعارة جسدت في ألفاظ روءيت فيها الاوزان والقوافي . وهي ان دلت على شي . فعلى كثافة ذوق واضعها . فأني غزل

ترى ، حفظك الله ، في أبيات يصف فيها الشاعر طعم ريق الحبيبة وفيه من
الجرائم المرضية ، ما يوازي الجرائم المعنوية التي تنفثها أقلام المتغزلين ؟
وانكهي من هذا كله أن يشير أصحابنا الافاضل الى واقعات
جرت في حياتهم الخاصة فيصفون بعض الخلوات المخجلة التي تقع تحت
طائلة قانون الجزاء . وهنا لا أرى بدأ من تدوين فضيلة للشعراء الرمزيين
الذين يشبهون بالنور والالوان والعبير وما شاكل ذلك من المجاز النظيف ،
ويصونون انفسهم من التراق الى المنحدر فلا يكثرون من التثم والضم
اللذين يعدد اليهما سواهم من الفئة التي ذكرنا . وليس أسمح في الذوق من
الشم عندما يدور الكلام على اللحم والدم ، وغالباً ما تأتي اللفظتان التثم
والضم معاً فتكرونان توأمين في التعبير ، على حد قولك أسوج وزوج ،
واسحاق ويعقوب مثلاً .

ويعجبني قول نسيمي الشاعر السجاوي سعيد عقل حين يقول :
سمرء يا حلم الطفولة وتنتع الشفة البخيله
لا تقربي مني وظلي فكرة لغدي جميله
فهذا تعفف في النزول . ولو فرضنا أن سعيداً لم يتعفف بالفعل فحسابه
على ربه وانما يعنيننا منه أدبه . ويعجبني قول شاعر آخر :
حاوات لثم انامل نديانة منسوجة بأصابع اللائع
فسلختها عني وقد علقت بها الالفاظ مثقلة بوهج دمائي
هذا بنانك بالنجيع مخضب يهنيك نشر الراية الحمراء
وقول خليل صابر :
أعيد حلمي فيك بالاجمل العالي م وأنسى أنه هيكـل

وقول صلاح لبكي :

من أنت ؟ لا أدري او ما ضررتي جهلي وجهلي اللذة الباقيه
 ولكن مالي أستشهد بشعراء صقلتهم الحضارة . ان بين شعراء الجاهلية
 العرقى في البداوة ، وبين شعراء صدر الاسلام من هم أفن لساناً ، وأرفع
 تهذيباً من الذين يعايشوننا في بيروت اليوم ، فاصمع منتزة العبسي القائل :

وأفرض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يوارى جارتي مأواها
 ويتغزل بعبلة فيقول :

وسأت طير الدوح كم مثلي شجا
 يا عبيل كم يشجى فؤادي بالنوى
 قالوا اللقاء غداً بمنعرج اللوى
 وتخال أنفاسي اذا رددتها
 بجنينه وانينه المتردد
 ويروعي صوت الغراب الايسود
 واطول شوق المستهام الى غد
 بين الطلول تحت نقوش المهرد
 بل اسمع جميل بثينة يقول :

لا والذي تسجد الجباب له
 ولا بفيها ولا هممت بها
 ما لي بما تحت ذيلها خير
 ما كان الا الحديث والنظر
 وقوله :

واني لأرضى من بثينة بالذي
 بلا وبالأ استطيع وبالمنى
 لو ابصره الواشي لقرت بلابله
 وبالأمل المرجو قد خاب آمله
 وبالنظرة العجلى وبالحول ينقضي
 أواخره لا نلتقي واوائله

در این کتاب که در این کتاب است...
تالیف این کتاب را در سال ۱۲۰۰ قمری...
و در این کتاب که در این کتاب است...
تالیف این کتاب را در سال ۱۲۰۰ قمری...

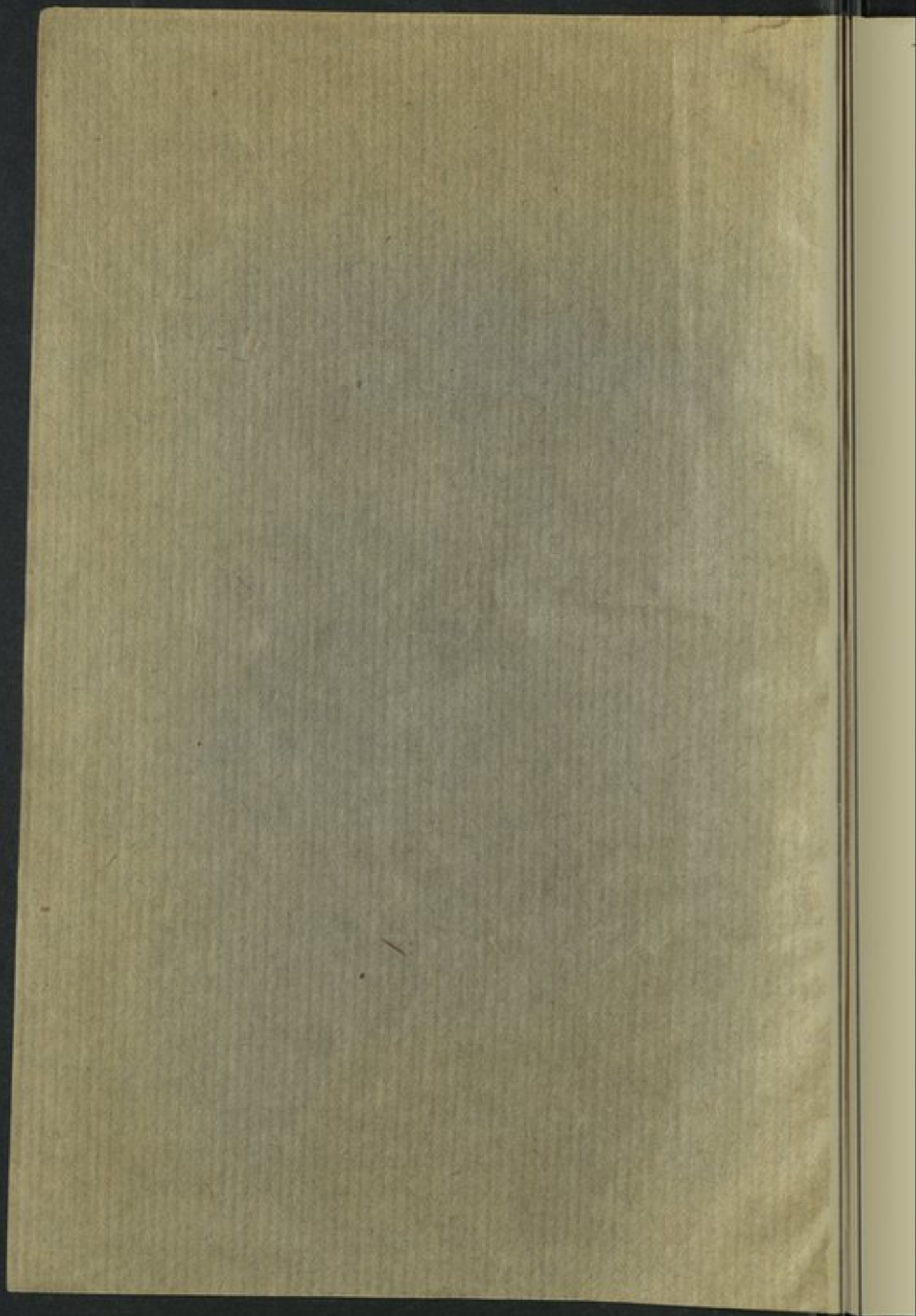
انجیر طبع هذا الكتاب

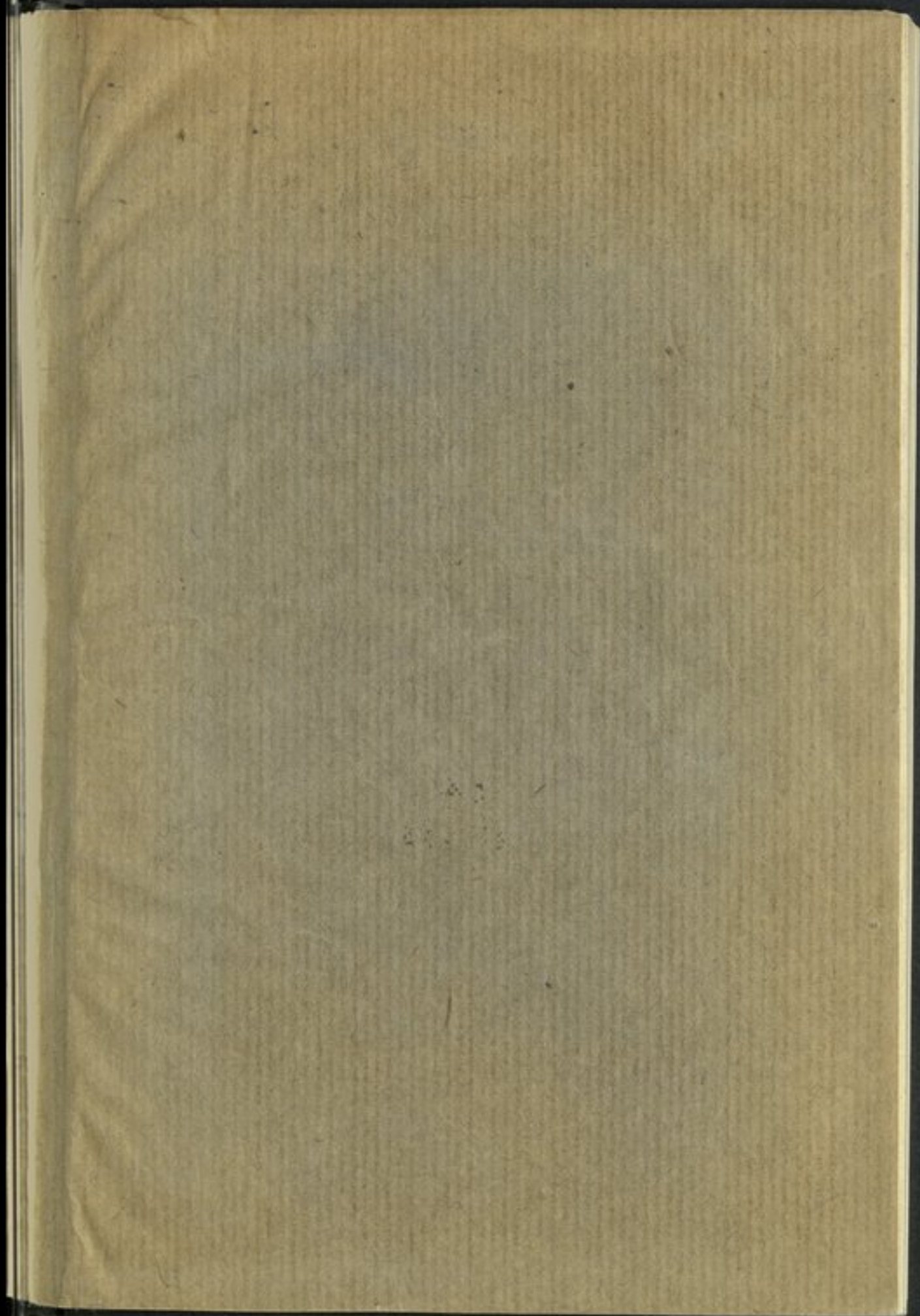
في مطبعة دير الخصاص

قرب صيدا (لبنان)

في ۱۷ ايار سنة ۱۹۰۰

در این کتاب که در این کتاب است...
تالیف این کتاب را در سال ۱۲۰۰ قمری...
و در این کتاب که در این کتاب است...
تالیف این کتاب را در سال ۱۲۰۰ قمری...
در این کتاب که در این کتاب است...
تالیف این کتاب را در سال ۱۲۰۰ قمری...
و در این کتاب که در این کتاب است...
تالیف این کتاب را در سال ۱۲۰۰ قمری...
در این کتاب که در این کتاب است...
تالیف این کتاب را در سال ۱۲۰۰ قمری...
و در این کتاب که در این کتاب است...
تالیف این کتاب را در سال ۱۲۰۰ قمری...





104

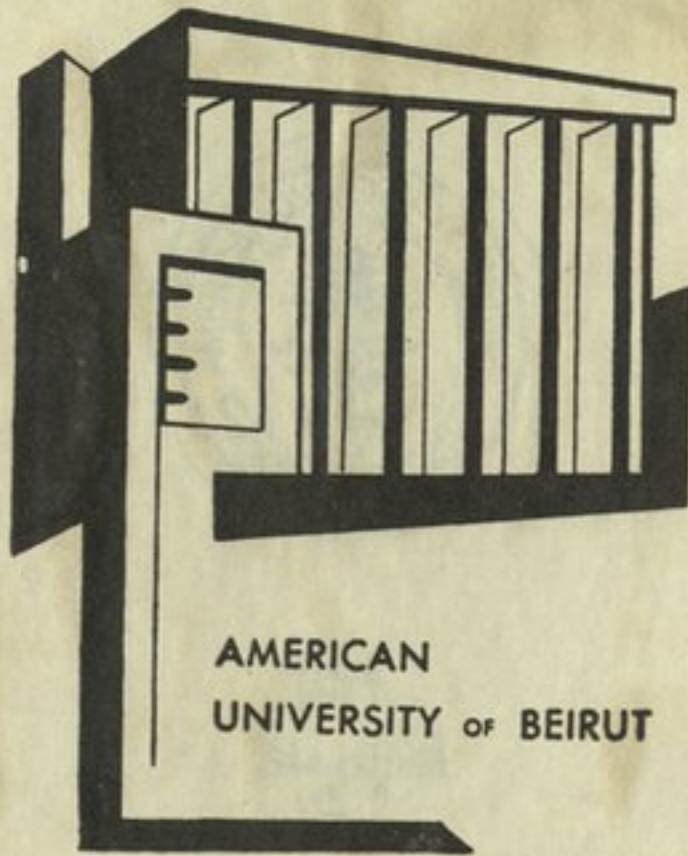
سلامة بولس

حديث العشيّة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01001131



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

